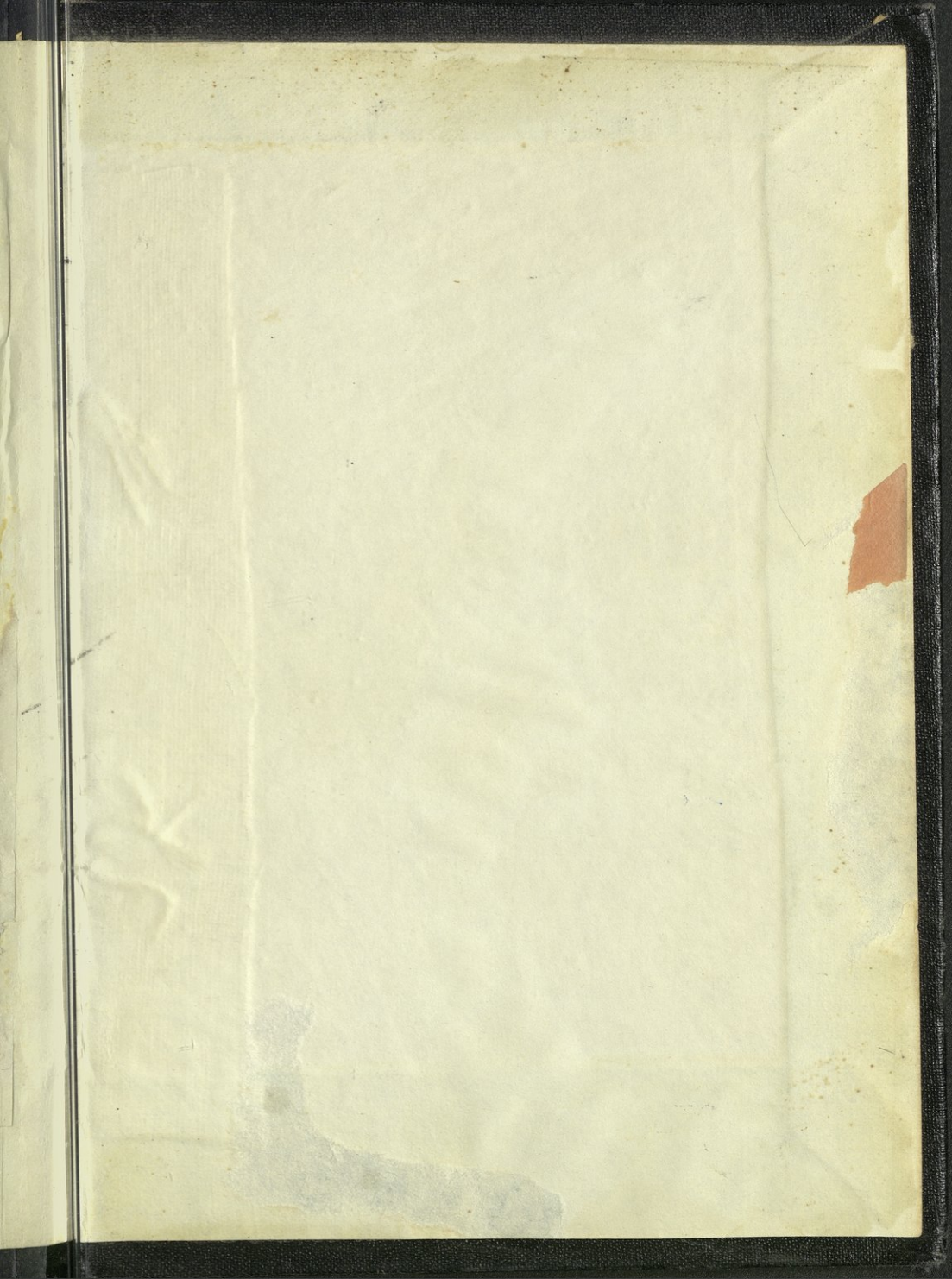




00

Oct 17/1892

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

سورة القصص

297.44

F47a31

v. 1-2

e. p.

لواضعه

السيد

على فكرى

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الأول

يشمل قصص الانبياء

عدا أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

[الطبعة الثالثة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبي وشركاه

Cat. 47 Mon. 53

الاهداء

إلى الأرواح الطاهرة ، والنفوس العالية والمكانة العالية
إلى أرواح الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
أهدي كتابي هذا ، وأسأل الله الكبير المتعال أن يوفقنا للعمل بسنتهم ،
وأن يحمينا ويميتنا على ملتهم ، إنه سميع مجيب الدعاء

السيد

على فكرى

ابن المرحوم السيد محمد عبد الله

الحكيم

مصر الجديدة في يوم الاثنين

١١ رجب سنة ١٣٥٢

١٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣

مقدمة الطبعة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه تقي ، وعليه توكل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد فإن أحسن القصص ما كان مروياً عن الأنبياء والمرسلين
والخلفاء الراشدين ، وأئمة الدين والصالحين ، لقوله تعالى :

﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾

سورة يوسف

ولقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة يوسف

ولقوله تعالى : ﴿ وَكَأَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة هود

ولما كانت القصص والروايات المنتشرة الآن في مصر بعضها مخالف

للأدب والدين ، منسب لأخلاق البنات والبنين ، لاشتمالها على حكايات خرافية ، وأحاديث غرامية .

قد دفعتنى الغيرة الدينية الإسلامية ، والعاطفة الوطنية المصرية والمحبة الإنسانية ، إلى أن أضع كتاباً صغيراً فى القصص الدينية ، التى تحت على الفضائل ، وتنهى عن الرذائل .

فقدت بمعونة الله وفضله بوضع هذا الكتاب وسميته (أحسن القصص) ليكون اسمه دليلاً عليه ، وقسمته إلى خمسة أجزاء :

الجزء الأول والثانى : يشملان مختصر قصص الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) كما ذكرت فى القرآن الكريم وعددهم ٢٥ (الواجب على كل مسلم معرفتهم ، وأن يلم بقصصهم ، وأن يؤمن بهم)

الجزء الثالث : يشمل مختصر سير الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم أجمعين) ومناقبتهم الهادية إلى مكارم الأخلاق ، وفضائل الأعمال

الجزء الرابع : يشمل مختصر سير أئمة الدين والصالحين ، الذين بينوا قواعد الدين ، وأقاموا البراهين ، على أساس متين ، للأخذ بإرشاداتهم ، والاهتداء بنورهم ، للفوز بالسعادتين فى الدارين

الجزء الخامس : يشمل مختصر سير أمهات المسلمين ، وبعض الشهيرات ، من النساء المسلمات ، ليكون فى ذكرهن أحسن أسوة وقدوة للنساء والبنات وقد توخيت فيه سهولة العبارة ، وحسن الأسلوب ، ليكون مهل

الفهم ، مناسباً لمدارك الطلاب ، وذلك إجابة لطلب حضرة أخينا عبد العزيز أفندي الحلبي^(١) .

والله تعالى أسأل أن يكون لهذا الكتاب ما أرجوه من الأثر الطيب في نفوس أبناء الأمة الإسلامية فيعملوا بما فيه ، والله الموفق لما فيه صلاح الحال وبلوغ الآمال

وإني لا أريد إلاّ الاصلاح ما استطعت ، وهو حسبي وكفى ؟
مصر الجديدة

في غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٢ الهجرية

على فكري ٢٤ يونيه سنة ١٩٣٣

الأمين الأول

لدار الكتب المصرية

(١) قد توفي هذا الأخ الفاضل رحمه الله في يوم الخميس ٢ مارس سنة ١٩٣٩ .

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ،
والصلاة والسلام على أنبيائه ورسوله .

أما بعد - فبعون الله قد نفذت الطبعة الأولى من كتابنا :

(أحسن القصص - الجزء الأول) المشتمل على قصص الأنبياء
المذكورين به ، مقتبسة من كتاب الله العزيز ، بطريقة مختصرة مفيدة وأسلوب
رائع حكيم ، في أنباء محبوبكة الحوادث جامعة لعناصر القصة .

وهي سير ذات مواظ وعبر وسمير ، ومفتاح لحفظ القرآن الكريم
ونقدمه اليوم إلى الطبعة الثانية بمطبعة عيسى الباب الحلبي وشركاه
إجابة لطلبهم .

ولا نريد الاطناب ، في بيان منفعة هذا الكتاب ، ففيه ما يغني عن
الكتب المطولة ، ويسهل للأباء والأبناء ، معرفة تاريخ الرسل والأنبياء
(عليهم الصلاة والسلام) ودعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وعبادته وإطاعته .

وفي إعادة طبعه للمرة الثانية دليل كاف على أهميته ، وجليل فائدته .
وختاماً نسأل الله أن يزيد في قبوله وانتشاره ، حتى يعم نفعه أبناء الأمة
الإسلامية إنه سميع مجيب .

مصر الجديدة

السيد

على فكرى

في ١٢ المحرم سنة ١٣٥٩

٢٠ فبراير سنة ١٩٤٠

مقدمة الطبعة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه

أما بعد ، فقد نفذت - والله الحمد - الطبعة الثانية من هذا الجزء ونقدمه اليوم لإعادة طبعه للمرة الثالثة ؛ رافعين أ كفّ الضراعة للمولى سبحانه وتعالى بأن يزيد في قبوله وانتشاره ليزداد الانتفاع به في العالم الإسلامي وليكون دستوراً لهداية أبناء الأمة الإسلامية لتوحيد الله وحسن عبادته والافتداء برسله في مكارم الأخلاق وجميل الفعال

والله الموفق لما فيه الخير والصواب إنه السميع الحبيب

السيد

على فكرى

العباسية - ١٢ شارع السرايات

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

١ صفر سنة ١٣٦٩

٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩

كلمة إجمالية عن الرسل والأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)

اعلم يا بُنَيَّ : أن الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، خلق الخلق وجعل في بعضهم أخلاقاً حسنةً تساعدهم على انتظام معاشهم ، وصلاح حالهم ، ليتسابقوا في عمارة هذا الكون كما أنه جعل في البعض الآخر أخلاقاً سيئة ليتميز الطيب من الخميث ، والحسن من المسيء .

وقد اقتضت رحمة الله بعباده أن يرسل لهم أناساً منهم تخلقوا بالأخلاق الفاضلة ، واتصفوا بالصفات الكاملة ، ليهدوهم ويرشدوهم إلى مافيه صلاحهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، وليبينوا لهم الخير لاتباعه ، والشر لاجتنابه ، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ١ - ٢ .
وقد جعلهم الله بشراً من جنسهم لينتفع بعضهم ببعض في الخطابات ولم يجعلهم ملائكة لعدم إمكان رؤيتهم ومخاطبتهم ومخاطبتهم ، فلا تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم

ولقد امتنَّ الله بهذه الرحمة والنعمة على عباده فقال تعالى :
﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾

١ - الرسول رجل حر عاقل أوحى إليه بشرع مجدد يعمل به ويبلغه للناس

٢ - النبي من بعثه الله بشرع يعمل به ، ولو لم يؤمر بتبليغه .

يَقُولُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ آل عمران .

وقد بين الله سبحانه وتعالى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي : أنهم يبشرون ، من صدقهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى وعمل به ، بالجنة والثواب ، والتنعيم بالنعيم المقيم ، وينذرون من كذبهم وعصاهم في ذلك ، بالنار والعذاب الأليم ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ الكهف .

وقد بين الله الحكمة من إرسالهم عليهم الصلاة والسلام ، وهي أن يبشروا الناس وينذروهم ، لئلا يكون لهؤلاء الناس حجة ومعدرة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل وتبليغ الشرائع ، قال تعالى :

﴿ رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء .

وقد أرسل الله هؤلاء الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) بالآيات البينات ، وأنزل معهم الكتب الميينة فيها الأحكام والمأمورين هم بتبليغها للناس ، ليكونوا على أكمل حالات العدل والإنصاف فيما بينهم ، ويتبعوا هؤلاء الرسل فيما أخبروا به ، ويطيعوهم فيما أمرهم به ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد .

وقد أيدهم الله بالمعجزات ، التي هي من خوارق العادات ، وفوق مقدور البشر ، وميزهم بصفات سامية كريمة وهي : الأمانة فيما كفوا به والطاعة لله ، والصدق في كل ما أخبروا به عن الله تعالى ، والعصمة من الوقوع في أي معصية صغيرة كانت أو كبيرة ليكونوا قدوة حسنة ، ونبراساً لهداية الناس كافة .

وقد بين جل شأنه من اصطفاه من هؤلاء الرسل وميزه عن غيره منهم بعظم قدره ، وعلو مرتبته ، وأوجب الشرع معرفتهم وهم خمسة وعشرون ذكر الله منهم ثمانية عشر في هذه الآية وهي :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَلَيْكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ ۖ الْأَنْعَامُ .

وقد بقي سبعة وهم : آدم . وهود . وشعيب . وصالح . وإدريس .
وذو الكفل . وسيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم) .

أما آدم ، فقد ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة
وأما هود ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ هود .

وأما شعيب ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود .

وأما صالح ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَشَأْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ هود .

وأما إدريس ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ مريم .

وأما ذو الكفل ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ص .

وأما سيدنا ومولانا محمد (صلى الله عليه وسلم) ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران . وقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح .

فهؤلاء هم الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) الواجب على كل إنسان معرفتهم ، وأن يلم بقصصهم ، لقوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِنْ تَضَرَّقَ الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفَصَّلَ كُلُّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف .

وأن يؤمن بهم ؛ لأن الله تعالى جعل من كمال الإيمان الإيمان بهم جميعاً ، وألا يفرق بين أحد منهم ، فيؤمن ببعض ، ويكفر ببعض ، لقوله تعالى :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ الشُّكَّ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ النساء .

وأولو العزم من هؤلاء الرسل ، هم : نوح ، وإبراهيم الخليل ، وموسى ، وعيسى ، محمد (عليهم صلوات الله وسلامه) وقد خصصنا لهم الجزء الثاني من هذا الكتاب إظهاراً لفضلهم ، ولشدة عزمهم .

قصة آدم (عليه السلام)

أبو البشر

اعلم يا بني : أن الله تعالى أوجد العالم من العدم ، فبعد أن خلق الأرض ، وجعل فيها كل ما يقوم بأمر الحياة ويصلح للعمران ، اقتضت حكمته تعالى أن يخلق فيها النوع البشرى الإنسانى ، ويهب له من قوى العقل ومواهب الإدراك ما يصلح معه لأن يكون خليفة الله فى أرضه على سائر الكائنات التى هى دونه تقيماً وتسكيماً لنظام الكون .

فأول من خلق من البشر (آدم عليه السلام) وسمى بهذا الإسم لأن الله سبحانه وتعالى خلقه بيده من أديم الأرض ، أى من ترابها وصوره وجعله بشراً سوياً ، ونفخ فيه الروح ، وأمر الملائكة بالسجود له لقوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص .

سويته (أى جعلته على هيئة الإنسان) .

وفى آية أخرى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ

حَمًّا مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٦﴾ الحجر .

« من صلصال ، أى من طين يابس إذا ضرب عليه يصلصل ، أى يصوت ومن حمًّا مسنون ، أى من طين أسود مصبوب » .

ولقد خلق الله آدم فى أحسن صورة ، وأجل قوام ، لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين .

وقال الله سبحانه وتعالى للملائكة : إني متخذ فى الأرض خليفة ليقوم بعمارتها ، وتتميم نظامها . فلما علموا ذلك ، وأدركوا أن الإنسان بطبيعته مجبول على الفساد ، سألو الله من قبيل التعلم ، لامن قبيل الاعتراض عن حكمة تفضيل الله إياه عليهم فى إسناد الخلافة إليه مع قيامهم بعبادته وطاعته أحسن قيام كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة .

فأجابهم الله عز وجل : ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة

ثم أوحى الله إلى قلب آدم كل ما هو مستعد له النوع الإنسانى من الرق الصورى والمعنوى ، وألهمه الأشياء بأسمائها ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا ﴿ وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْرِدهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، إظهاراً لاستعداد نوعه للقدرة على القيام بها

وامتحن الله الملائكة إذ يقول : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنكم أحق بالاستيخلاف في الأرض ، وأولى من آدم ، الذي هيأته لها وأعدته لمنصبه الرفيع

فلما عجز الملائكة عن ذلك اعترفوا بقصورهم ، ووقفوا عند حدهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْحَكِيمُ ﴾

البقرة

فقال لآدم : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ ﴾ الله تعالى للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

البقرة

فكان ذلك تذكيراً لهم بشأن العلم ، ورفعاً لقدره ، وإعلاناً بكرامة آدم عليه السلام ، وأفضليته على الملائكة ، واستحقاقه الاستيخلاف في الأرض ولما فهم الملائكة حكمة التفضيل ، وأنهم لا قبل لهم بخلافة الله في الأرض لعدم استعدادهم للاشتغال بالأمور المادية ، أطاعوا أمر الله بالسجود لآدم (سجدود تحية وتعظيم ، لا سجدود صلاة وعبادة) فسجدوا إلا إبليس ، فإنه أبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة .

ولما سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم
عليه السلام :

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ص .

وقال له في آية أخرى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾
الأعراف

فأخذ إبليس يخلق لنفسه الأعذار الباطلة والحجج الواهية :
و ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف
و ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ﴾ الحجر .

وسمى إبليس : لأنه أبلس من رحمة الله ، أى يئس ، وزعم بكبره وضلاله
أن النار أقوى من الطين والفخار .

ولما ظهر خبث إبليس اللعين بتسكبه عن طاعة أمر ربه وامتناعه عن
السجود لآدم عليه السلام أمره بالهبوط من الجنة (أى النزول منها) وقال له :
(٢ - أول)

ليس لك أن تتكبر فيها وتخرج عن طاعتي وأمرى لأنه لا يسكن الجنة متكبر
وعاصٍ لأمر ربه ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ الأعراف .

ثم قال له : اخرج منها صاغراً ذليلاً :

﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأعراف .

وقال له في آية أخرى :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
الَّذِينَ ﴾ الحجر .

فخرج إبليس من الجنة مطروداً مردولاً ، ورجمه الله باللعة الساحقة
فكان من ذلك الحين الشيطان الرجيم ، والمخلوق الخبيث اللئيم الذميم ،
بعد أن كان ملكاً كريماً ، وأصبح معدن كل شر ، ومنبع كل خبث
وفساد ، بين العباد .

ثم طلب من الله أن يمهله ولا يعاقبه على ما فعل إلى يوم البعث والنشور
داعياً ربه :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الأعراف

فأجابه الله بأنك من المهملين ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ الأعراف .

ثم قال إبليس لربه : يارب بسبب ما أضلّقتني لأقعدن لهم مترصداً على طريقك
المستقيم (وهو دين الحق) ثم لآتينهم من جميع جهاتهم بالتسويل والإضلال
فلا تجد أكثرهم مطيعين شاكرين لأنعمك

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ
مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الأعراف

قال الله لإبليس : اخرج من الجنة مذموماً مطروداً؛ وذلك قوله في
كتابه تعالى :

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ الأعراف .

ووعده الله بنى آدم بأن من اتبع عدو الله إبليس وأطاعه وصدق ظنه أن
يملأ منهم جهنم جميعاً ومن إبليس وذريته بقوله :

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأعراف .

ثم قال إبليس : رب بسبب ما أغويتني لأزوين لهم الأمور الأرضية والميول
الشهوانية ، ولأضلهم أجمعين إلا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك فلا سلطان
لى عليهم كما بين سبحانه بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر .

فقال الله تعالى : إن تخليصهم هذا من إغوائك حق علىَّ أن أراعيه
لا أعدل عنه ، فإن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، فسلطانك ينحصر فيمن
اتبعك من الصالحين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، يتجلى ذلك من قوله تعالى :
﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ إِنَّ عِبَادِي لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر .

« ملاحظة : لا يظن إنسان أن الله سبحانه وتعالى كان يخاطب الملائكة
وإبليس وجهاً لوجه فهذا مستحيل ؛ لأن الله جلّ وعلا لا يرى للملائكة
ولا لإبليس ، ولا يستطيع كائن من كان أن يجادله وأن يخاطبه ، وإنما أراد
الله تصوير ما فعله للملائكة والشیطان حيال آدم وما جاش بصدورهم عنه فأتى
بتلك الآيات البينات » .

ولما أسبغ الله تعالى على آدم عليه السلام من واسع فضله وجزيل عطائه
وكرمه ، وأسكنه الجنة كان يقيم فيها وحيداً لا جليس له ولا أنيس فافتيضت
إرادة الله أن يخلق (حواء) من أحد أضلاعه اليسرى لتكون زوجاً له (وسميت
حواء لأنها خلقت من شيء حى) .

وقد خلقها الله تعالى لتسكن إلى آدم ويسكن إليها ، ويأنس بها ، وذلك
قوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا﴾ الأعراف .

وقد وضع الله في قلوبهما من المودة والرحمة ما به يتم لهما السعادة في اجتماعهما
لقوله تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم .

ولما أسكن الله تعالى آدم وحواء (عليهما السلام) الجنة أباح لهما أن
يرتعا فيها حيث شاءا ، وبأكل من ثمارها ما طاب لهما ، ونهاهما عن الأكل
من شجرة واحدة (الله أعلم باسمها وحقيقتها) وقد ابتلاهما الله بالنهي عنها ،
وتحريمها اختباراً وامتحاناً لآدم بخطره هذه الشجرة ليكون ذلك سبيلاً لنفاذ
قضائه ، وذلك قوله تعالى :

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة .

فكانت هذه الشجرة حيلة الشيطان التي زينها لآدم وزوجه (عليهما
السلام) فأغراهما بها و﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبُلَى؟﴾ طه . - قال آدم عليه السلام : نعم .

قال إبليس العين له : كُلْ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ : فقال آدم عليه السلام :

نهاني ربي عنها . فقال إبليس : ما نهاك ربك عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، فأبى آدم أن يقبل منه .

فأخذ إبليس العين يبذل ما في وسعه ، ويسلك كل سبيل إلى تحسينها في عينيهما ، وما زال بهما حتى اغترا بقسمه : أنه لهما من الناصحين . ونسى آدم عليه السلام ما كان من فعلة إبليس معه حين أبى السجود له إطاعة لأمر ربه ، ونسى أيضاً وصية ربه ، وظن أن الأكل من هذه الشجرة هو الذي سيجعلهما من الخالدين ، وتلك سنة الله في آدم وسنته من بعده : (الأمل الطويل في الحياة ، والرغبة الأكيدة في طول الأجل) ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ الأعراف

فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما ، وطفقا يخصفان عليهما ، أى يجمعان عليهما ، من ورق الجنة ، ليواريا به سواتهما ، ويغطيان ما بدا من عورتهم ، التي كشفتها معصيتهما لربهما ، واغترارها بنصح عدوهما الشيطان ، وكذلك يفعل الشيطان مع بني آدم يغشهم ، ويغويهم بكذبه وبهتانه ، فيظنون غشه نصحاً ، وكذبه وبهتانه صدقاً وحقاً . قال تعالى :

﴿ فَذَلَّا هُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ الأعراف .

فلما وقع بآدم وزوجه من مصيبة المعصية ما وقع ناداهما ربهما قائلاً : ألم أنهيكما عن تلسك الشجرة ؟ ألم أفل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قال الله تعالى :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ الأعراف .

فلما ناداهما بهذا النداء أفاقا عندئذ من الغشية ، وانتهبا من الذهول وذكرا بعد النسيان ، وعلموا أنه لا نجاة من الله ، ولا مفرع إلا إليه :

﴿ وَقَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف .

وكذلك الشأن في العقلاء من بنى آدم كما قال الله في وصفهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ الأعراف .

ولما كانت الجنة دار الأتقياء البررة الطاهرين من كل رجس فلا بد أن يذوق آدم في الأرض من عناء الحياة ومشاق العمل في الزرع والحراث والسكد ما يغسل عنه الصغيرة ، ويطهره من هذه المعصية ، ويهيئه لدخولها خالداً فيها أبداً ، فأمرهما بالهبوط إلى الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ البقرة

ولما هبط آدم من الجنة إلى الأرض كما أمره ربه ، واستقر جالساً فزع
من ذلك فزعاً شديداً فذكر الجنة وما كان فيها من الراحة فخر مغشياً عليه .
قال ابن عباس (رضى الله تعالى عنهما) : بكى آدم وحواء على ما فاتهما
من نعيم الجنة مائتى سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب
آدم حواء مائة سنة .

فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول
توبته ، كما قال تعالى :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾ البقرة

ثم إن الله أرسل جبريل (عليه السلام) إلى آدم فعمله الزراعة ، وصارت
حواء معه يقاسمان هموم الدنيا ، وقضى الله على آدم أن يأكل خبزه بمرق
جبينه ، وعلى حواء بمشقات الحمل والولادة

وكانت حواء تلد في كل بطن ذكراً وأنثى ، فكان كل ذكر من بطن
يتزوج الأنثى من بطن آخر ، وولدت منه كثيراً من الأولاد ، وماتا بعد أن
عاش آدم نحو ألف سنة .

روى البخارى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : أن الله خلق آدم يوم
الجمعة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تاب عليه ، وفيه توفى

فلما حضرته الوفاة بعث الله إليه بجنوطه وكفنه من الجنة ، فلما رأت
حواء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم إليه فقال لها : خلى عني وعن رسل ربي ،
فإني ما لقيت ما لقيت إلا منك ، ولا أصابني ما أصابني إلا منك ، فلما قبض
غسلوه بالسدر والماء وترأ وكفنوه في وتر من الثياب ثم لحدوا له فدفنوه ، ثم
قالوا : هذه سنة ولد آدم من بعده .

قيل : دفن (بالهند) وقيل : دفن بمكة في غار (أبي قبيس) .
وعاشت حواء بعده سنة ثم ماتت ودفنت معه ، والله أعلم .

٢ - قصة إدريس (عليه السلام)

إدريس عليه السلام ، هو جد أبي نوح ، كما رواه البخاري ، وهو أول من أعطى النبوة من بنى آدم فيما زعم ابن إسحق ، وأول من خط بالقلم وكتب الصحف ، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وأول من ركب الخيل وجاهد في سبيل الله ، ونظر في علم النجوم والحساب ، والحكمة والمنطق ، وأسرار الفلك ، ورسم عمارة المدن ، وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث عليهما السلام

وأول من قطع الثياب وخاطها ولبس الخيط ، وكان قبل الناس يلبسون جلود الحيوانات ، وكان لا يغفل عن ذكر الله أثناء خياطته ، وهو الذي سُمي المثلث ؛ لأنه ملك ، وحكيم ، ونبي

وقد ارسله الله تعالى لبني (قاييل) حيث اتبعوا آباءهم في الفجور حتى أدى فجورهم إلى عبادة الأصنام ، وأمر إدريس قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله عز وجل ، ومعصية الشيطان ، فلم يقبلوا منه ، وكانت العصابة بعد العصابة من ولد (شيث) تنزل إلى ولد قاييل ، وفي زمانه عملت الأصنام ، ورجع من رجع عن الإسلام ، وقد خصص إدريس ثلاثة أيام في الأسبوع يأمر فيها بني قاييل وينهاهم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث عليهما السلام فأمره الله تعالى أن يقتلهم ، وكان ذا قوة وبأس شديد ، ولذا سموه (هرمس المراسمة) أي أسد الأسود

وقد أعطاه الله درجات عظيمة في الدنيا والآخرة
وقال الله تعالى لخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :
﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ
مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم

أى اذكر يا محمد في هذا القرآن الذى أوحينا إليك به أن إدريس (كان
صديقاً) لا يقول الكذب (نبياً) نوحى إليه من أمرنا ما نشاء (ورفعناه
مكاناً علياً) أى مكاناً عالياً من السكال

وقال بعض المفسرين : لما كشفت له أسرار الملكوت ، واشتاق إلى
الملأ الأعلى أكرمه الله برفعه إلى السماء الرابعة ، وقيل : بل إلى السماء السادسة
روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه رفع إلى السماء السادسة .
والله تعالى أعلم

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أربعة من الأنبياء أحياء وهم :
إدريس ، وعيسى (فى السماء) وإلياس والخضر (فى الأرض) ،
وكلهم يموتون إلا إدريس فإنه إذا مات الخلق يبقى حياً .

وقيل : هو الذى يجب الله تعالى إذا مات الخلق وقال : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ ؟﴾ فيقول إدريس : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ
الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء

وقد روى البخارى وغيره عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : فلما مرَّ
جبريل (عليه السلام) في ليلة الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم بإدريس قال :
مرحباً بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس
وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن معاوية بن الحكم السلمي قال :
قلت يا رسول الله ومنا رجال يخطون ؟ قال : كان نبي من الأنبياء يخط
فن وافق خطه فذاك

قيل هذا النبي : هو إدريس عليه السلام ، وكان يخط في الأرض
خطوطاً يستخرج منها علوماً ومعارف بتعليم إلهي فوافقه الآن مستحيلاً
فالخط أو الحرف الذي يسميه العامة (ضرب الرمل) حرام لأنه دجل
وكذب ، ورجم بالغيب
والله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، وهو علام
الغيوب .

٣ - قصة نوح (عليه السلام)

مذكورة في الجزء الثاني مع أولى العزم من الرسل

٤ - قصة هود (عليه السلام)

سيدنا هود عليه الصلاة والسلام هو نبي من نسل (سام بن نوح) عليه السلام ، أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قوم عاد ، وهم قوم كانوا يسكنون الجبال في أرض (الأحقاف) وهي تقع في شمال (حضرموت) من بلاد اليمن ، وكانوا ماهرين في العمارة فبنوا في بلادهم أبنية لطيفة متينة ، وكانوا يعبدون الأوثان من دون الله تعالى كما كان من قبلهم قوم نوح يعبدون الأصنام ، فدعاهم هود إلى عبادة الله ، وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس قائلاً لهم :

يا قوم ، اعبدوا الله وحده لا شريك له ، دون ما تعبدون من الآلهة والأوثان ، واعلموا أنكم ما لكم من إله غيره ، ولا معبود سواه ، فأخلصوا له العبادة ، واعلموا أنه في إشرაკكم معه الآلهة والأوثان مفترون مكذبون يفتلقون الباطل .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ هود

وكان هو يبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجراً يأخذه منهم ، وأنه لا يطلب الأجر على ذلك إلا من الله تعالى الذي خلقه ، ويقول لهم : افهموا وتعقلوا أنى لو كنت أبتغى بدعايتكم إلى الله غير النصيحة وطلب السعادة لكم في الدنيا والآخرة لالتست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا ، وطلبت منكم الأجر والثواب .

قال تعالى ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هود .

ثم أخذ يقول لهم : إن الواجب عليكم أن تتقوه ، وأن تتوبوا إليه ، وأن تستغفروه ، حتى يرسل عليكم المطر من السماء ، يدرث لكم الغيث وقت حاجتكم إليه ، فتحيا بلادكم من الجذب والقحط ، ويرزقكم المال والبنين ، فتزدد قوتكم وسعادتكم ، فلا ترجعوا عما دعوتكم إليه من توحيد الله ، ولا تكونوا مجرمين كافرين بالله .

قال تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ هود .

وكان في قوم عاد ناس قد عتوا ورأوا كبراً على أنفسهم أن يمتنعوا عن عبادة الأوثان ، وغلبت عليهم الشقاوة والكفر ، وكانوا الجمهور

الأعظم ، فسفهوا هوداً وكذبوه ، ولم يأخذوا بأقواله ، وقالوا له : إنا لنراك في
سفاهة ، ونظن أنك من الكاذبين

قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إْنَا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الأعراف

ثم قالوا له : يا هود ما جئتنا ببيان ولا برهان على صحة ما تقول ،
فنسلم لله ، ونقر بأنك صادق فيما تدعونا إليه من توحيد الله ، والإقرار بنبوتك
ونحن لا نترك آلهتنا لمجرد قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدين بما تدعى
من النبوة والرسالة

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا
عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ هود

فراجعهم هود وقال لهم : ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب
العالمين ، لأبلغكم رسالة ربي ، وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه
يكون الضرر برسالة أكبر وأعظم من النفع بها ، وإني لكم ناصح
أمين ، وأخلص الناصحين ، فاقبلوا نصيحتي فإني أمين على وحي الله
وعلى ما أتمنى الله عليه من الرسالة ، لا أ كذب فيه ، ولا أزيد عليه
ولا أبدل .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ الأعراف

ثم قال لهم : هل أخذكم العجب أن الله أنزل وحيه بتد كبيركم
ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على رجل منكم لينذركم بأس الله
ويخوفكم عقابه ؟

قال تعالى : ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۖ الْأَعْرَافُ .

وذكركم هود ماحل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا
برأيهم ، وقال لهم : إن الله جعلكم خلفاء في الأرض بعد قوم نوح لما
أهلكهم ، فاتقوا الله وخافوا أن يحل بكم ماحل بهم من العقوبة فيهلككم
ويبدل منكم غيركم ، سنته في قوم نوح قبلكم ، على معصيتكم إياه وكفركم به
مع أنه زادكم في الخلق بسطة ، فزاد في أجسادكم طولاً وعرضاً وعظماً ، على
أجسام قوم نوح ، وفي قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك وفضلاً عليكم ،
فاذكروا نعمة الله وفضله ، واشكروا الله على ذلك بإخلاصكم العبادة له ، وترك
الإشراك به ، وهجر الأوثان والأنداد لعلكم تفلاحون ، فتتالوا البقاء والخلود
في دار النعيم في الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ
وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ الْأَعْرَافُ
فَقَالُوا لهُود : أَجِئْتَنَا تَوْعِيدَنَا بِالْعَذَابِ مِنْ اللَّهِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ
الدين كي نعبد الله وحده ، وندين له بالطاعة خالصاً ، ونهجر عبادة الآلهة

والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها ، ونبتأ منها ، فلسنا فاعلين ولا متبعين دعوتك ، فإن كنت صادقاً فيما تدعيه فأتنا بما تعدنا من العقاب والمذاب

قال الله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الأعراف

فأجابهم هود : لقد حل بكم سخط وغضب من الله ، هل تجادلونني في الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم وهي لا تضر ولا تنفع ؟ وما جعل الله لكم في عبادتها من حجة ولا معذرة ، لأن العبادة لا تكون إلا لمن ضرر ونفع ، وأثاب على الطاعة وعاقب على العصية ، ورزق ومنع ، فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، فانتظروا حكم الله فينا يوفيكم ، إني معكم من المنتظرين حكمه وفصل قضائه .

قال تعالى : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ الأعراف

ازداد قوم هود في تكذيبه ، واهتموه في عقله ، وقالوا له : إن الذي حملك على ذم آلهتنا ، والنهي عن عبادتها ، هو أن يكون قد أصابك منها خبل وجنون ، فأنت عندنا في حكم أهل العته والجنون

قال تعالى : ﴿ إِن نَقُولُ إِلَّا نُفِثُ بِسُوءِ ﴾ هود
سمع هود ذلك منهم فقال لهم : إني أشهد الله تعالى وأشهدكم إني برىء
من تلك الآلهة التي تزعمون أن لها القدرة على أن تمسني بسوء ، فاحتالوا
أنتم جميعاً وآلهتهم في ضرري وإيذائي ، ثم انظروا هل يمكنكم أن تصيبوني
بسوء ؟ كما تزعمون أنه أصابني سوء من آلهتكم

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴾
مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿ هود

واعلموا بأنني متوكل على الله الذي خلقني وخلقكم ، وواثق بأنه
لا يصيبني منكم أو من غيركم سوء بغير إذنه ، فإنه ليس من شيء يدب
على وجه الأرض إلاّ والله ماله كنه ، وقابض على ناصيته ، وتحت سلطانه ،
ذليل خاضع له ، وأنه المقيم على جميع خلقه ، عادل في حكمه ، يجازي المحسن
بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً منهم شيئاً ، ولا يقبل منهم إلاّ
الإسلام والإيمان

قال تعالى : « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ
أَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هود

ثم أعلمهم هود (عليه السلام) بأنهم إذا تولوا وأدبروا معرضين عما
يدعواهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان ، فإنه قد قام بالواجب من

إبلاغهم رسالة ربه ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاغٌ ﴾ وأن الله تعالى بعد ذلك سيهلكهم ، وَيَسْتَخْلِفُ قوماً غيرهم يوحدونه ويخلصون له العبادة ، وأنهم لا يضرّونه شيئاً ، إذا أراد إهلاكهم ، فهو الحفيظ على كل شيء وكل شيء في قبضته وقدرته .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ هود

لم يزل هود ينصح لقوم عاد ، ويعلمهم أنه رسول أمين ، ويحذرهم ويقول لهم : ألا تخافون الله ، وتحسبون لبطشه حساباً ؟ ويكرر القول لهم : أن اتقوا الله وأطيعوني ، وما أسألكم على هدايتكم للطريق القويم أجراً فإن أجرى على الله رب العالمين . أتبنون بكل طريق أعلاماً للعبث ، لأنكم في غير حاجة إليها ؟ وتتخذون قصوراً فخمةً لسكناكم رجاء أن تعيشوا فيها مخلدين . وإذا أخذتم قوماً في حرب ، أو بقصد فتح أو غزو ، أخذتموهم بعنف الجبابة وقسوة المناردة ، فاتقوا الله وأطيعوني وخافوا الله الذي أمدكم من النعم بما تعلمونه أمدكم بمواشٍ وأولادٍ وجناتٍ تحيطُ بها العيون الكثيرة الغزيرة المياه . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الأهوال شديد المخاوف

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْتُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسَأَلُكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الشعراء .

فقالوا له : إننا لدعوتك مكذبون ، سواء علينا أوعظتنا أم لم تكن من الواعظين ، وما الذي نحن عليه من الأخلاق والمعادات إلا خلق الأولين وعاداتهم ، جرينا وجرى الناس عليها ، وما نحن بمعذبين عليها كما تنذرنا به .
قال تعالى : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء .

فلما استكبر قوم عاد على ربهم ، وعصوا رسوله هوداً ، وتجبروا في الأرض تكبراً وعتواً بغير ما أذن الله لهم به وقالوا : من أشد منا قوة ؟ وكانوا بآيات الله يمحذون ، ولم ينظروا أن الذي خلقهم وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق ، وشدة البطش ، هو أشد منهم قوةً وبطشاً فيحذروا عقابه ، ويتقوا سطوته ، لسكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، وجحدهم بآياته ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً ، أي ريحاً شديداً ، في أيام نحسات (أي أيام مشثومات متتابعات) أذاقهم فيها

عذاب الخزي في الحياة الدنيا وأعد لهم في الآخرة عذاباً أخزى لهم وأشد إهانة ،
وإذلاً لا فلا ينصروهم الله يوم القيامة ولا ينقذهم منه .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ
لِنُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴾ فصلت .

وقد أرسل الله عليهم الريح الشديدة في مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً
وأهلكهم عن آخرهم ، فلم تبق منهم أحداً ، وكان القوم فيها صرعى ، مذهولين
بما أصابهم ، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية (أى أصول نخل
قد خوت) فلا يرى لها من أثر .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا
نَحْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ الحاقة .

وهؤلاء القوم الذين جحدوا بأدلة الله وحججه ، وعصوا رساله واتبعوا
كل جبار عنيد ، قد أحل الله بهم نعمته ، واستحقوا لعنة الله وغضبه ، وسخطه
في الدنيا ، وسيبغهم يوم القيامة لعنة مثلها ؛ لأنهم كفروا بنعمة ربهم ، فأبعدهم
الله من الخير .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ هود .

وصار يضرب بهم المثل في شدة العذاب حيث يقال :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ اللَّهُ بِعَادٍ أَصْحَابِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ) .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ الفجر .

ولقد نجي الله تعالى هوداً والذين آمنوا معه برحمة من ذلك العذاب الغليظ في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هود .

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى ؛ وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ .

ويقول أهل حضرموت : إن هوداً عليه الصلاة والسلام سكن بيلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرق بلادهم على بضعة مراحل من مدينة (تريم) والله أعلم .

العبرة من قصة هود عليه الصلاة والسلام مع قوم عاد

يستخلص من قصة هود عليه السلام ، أنه كان إنساناً وقوراً ، زنياً يزن الكلام قبل إلقائه ، وأنه كان رجلاً حليماً كريماً ، لا يقابل الشر بمثله ، بل يستعمل الدين في كلامه مع قومه ، والتلطف في إسداء النصيحة الخالصة لهم ، ابتغاء وجه الله لا يريد جزاء ولا شكوراً .

وأنه كان حكيماً في تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وترغيبهم في الإيمان ، ودعوتهم إلى سبيل الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ مبيناً لهم ما أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم من أموال وبنين ، وبساتين وأنهار ، وأنه زادهم بسطة في الخلق وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وأن إيمانهم يستوجب رضا الله تعالى عنهم ، فيرسل السماء مدراراً لسقي زروعهم وإنبات الكلاً ، وأنه تعالى يزيدهم قوة إلى قوتهم وعزاً إلى عزهم .

وأنه مع مشاكستهم له ، وافترائهم عليه ، وتكذيبهم إياه ، ورميهم إياه بالجنون والسفه ، لم يزد في جوابه على أن قال لهم : لم يكن بي سفاهة وإني أشهد الله ، وأشهدكم أيضاً إنني بريء مما تشركون ، وإن اعتمادى وتوكلى على الله ربى وربكم ، القابض على كل شيء ، والآخذ بناصية كل دابة على وجه الأرض .

إن الذي يقولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ، ينبغي أن يكون مثل
سيدنا هود عليه السلام فى سعة الصدر والتسامح ، وعدم مقابلة الشر بمثله ،
وتحمل الأذى ، رجاء أن يظفر ببغيته ، ويفوز بهدايتهم أو هداية بعضهم ،
وأن يكون جوابه عند اليأس والفشل بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب
والنصح والإرشاد ما قاله هود عليه السلام : إني قمت بالواجب على من تبليغ
رسالات ربى (وما على الرسول إلاّ البلاغ) وأن ربى على كل شىء حفيظ ،
فهو القادر وحده على أن يستخلف قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً .

أما عاد الذين كفروا بربهم ، وعصوا رسوله هوداً فكانت عاقبتهم
الهلاك والدمار ، واستحقوا عذاب الله لعنته ونقمته .

٥ - قصة صالح عليه السلام

سيدنا صالح (عليه السلام) هو ابن عبيد ، بن جابر ، بن ثمود و ثمود هو جد القبيلة التي سميت باسمه . وهو ثمود ، بن عامر ، بن إرم ، بن سام ، ابن نوح .

وكانت مساكنهم (بالحجر) وهي المعروفة (بمدائن صالح) بين الحجاز والشام في الجنوب الشرق من أرض (مدين) وهي مصابة (أى مجاورة) لخليج العقبة .

وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، وكانوا يعبدون الأصنام كقوم عاد فأرسل الله إلى ثمود أخاهم (صالحاً) من أوسطهم نسباً ، وأكرمهم حسباً فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة ، فما لكم من إله غيره ، وهو الذى أنشأكم من الأرض ، ومنحكم من القوى الجسدية والعقلية ما يمكنكم من عمرانها فاستغفروه من ذنوبكم ، ثم توبوا إليه فإنه قريب الرحمة ، مجيب لمن دعا .

قال تعالى ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ هود .

فقالوا له : يا صالح لقد كنت فينا قبل هذا محل رجائنا ، لما نرى

فيك من علامات الحكمة وأصالة الرأي، أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ؟
إننا لنرى شك مما تدعوننا إليه إنه يوجب الريبة .

قال تعالى ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبِيلَ هَذَا أَتَنْهَانَا
أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ هود
فقال لهم : يا قوم خبروني ، هل لو كنت على برهان وبيان من الله قد
علمته وأيقنته وآتاني النبوة والحكمة والإسلام ، فمن ينصرني من الله إن
عصيته ؟ فما تريدونني بنصرتكم إياي لو عصيته إلا خساراً .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينَةٍ مِّنْ رَبِّي
وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنْصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ ﴾ هود .

ثم أخذ صالح يحض لهم النصيح ويقول لهم : يا قوم ألا تحشون ربكم
فتطيعوا أمره وتعبدوه ؟ إني لكم منه رسول أمين عليكم ، حفيظ على
مصالحكم ، فاحذروا الله وأطيعوني ، واست بمطالبكم بجعل أو أجر على
صلاح أموركم ، فما أجرى إلا على رب العالمين ، أخيل لكم أنكم تهملون
في دياركم آمنين ، وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر والظلم المبين وتتركون
راعين في جنات وعيون وزروع ونخل ثمرها لطيف بين ، وتنحتون من
الجبال بيوتاً شيطيين ؟ فخافوا الله وأطيعوني ، ولا تتبعوا وسوسة المفسرين
على أنفسهم ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ بِمَاهِيَةً آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَمْجُتُونَ مِنْ الْحَبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴾ الشعراء

قالوا له : إنما أنت من الذين سحرنا مرات متعددة ففسد عقولهم وما أنت إلا رجل مثلنا ، فأت بمعجزة إن كنت من الصادقين .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الشعراء .

فقال لهم : معجزتي هذه الناقة التي أخرجها الله دليلاً على نبوتي وصدق مقالتي ، وهي من المعجزات التي لا يقدر على مثلها إلا الله ؛ لأنه خلقها على خلاف سنته تعالى في خلق الإبل وصفاتها ، إذ لم يخلق في الإبل سواها ناقة تختص بالشرب يوماً ، وأهل ذلك الماء يوماً آخر ، وتعرف يومها الخاص ، ولا تقرب الماء في يوم أهلها ، فلا تمسوها بسوء وإلا حاق بكم العذاب .

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا سَوْءً فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الشعراء

ثم أخذ يحذرهم بالآل يتعرض أحد من ثمود لهذه الناقة ، وألا يمسها بسوء في نفسها ، ولا في أكلها ، ولا في شربها من الماء انخاض بها ، الذي كان قسمةً بينهم وبينها ، وأنذرهم بالوعيد ، والعذاب الشديد ، الذي يحل بهم متى اعتدوا عليها في أحد هذه الأشياء .

قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ الأعراف .

وفي آية أخرى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

هود

وبذل صالح الجهد في تذكيرهم بأنهم خلفاء من بعد قوم عاد ، وأن الله أنزلهم في الأرض وجعل لهم فيها مساكن وأزواجاً يتخذون من سهولها قصوراً ، وينحتون من الجبال بيوتاً ، وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وحذرهم بالآل يعيشوا في الأرض مفسدين ، وألا يستكبروا عن عبادة الله .

قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف .

فقال السادة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباعه والإيمان بالله وبه
الذين استضعفوا من أتباع صالح والمؤمنين به : أتعلمون أن صالحاً مرسل من
ربه أرسله الله إلينا وإليكم ؟

قال الذين استضعفوا وآمنوا بصالح : إننا بما أرسل الله به صالحاً من الحق
والهدى مؤمنون مصدقون ، مقرون أنه من عند الله وأن الله أمره به .
فقال المستكبرون : إننا أيها القوم بالذي آمنتم به كافرون ، ومنكرون
الذي جاء به ولا نصدقه ولا نقره .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ
اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴾ الأعراف .

وأمسكوا الناقة التي أمرهم الله ألا يمسوها بسوء فعمقروها (أى نحروها)
متجاوزين حدود الله وأوامره ، وقالوا لسيدينا صالح : اثنتا بما توعدنا به من
العذاب إن كنت من المرسلين .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ
أَتُنْفِئُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأعراف .

فقال لهم : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك ترون عذاب الله .
وهذا وعد غير مكذوب .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوْهَا وَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ هود .

فأخذتهم (الرجفة) أى الزلزلة والصيحة التى زعزعتهم وحركتهم للهلاك ،
فأصبح الذين أهلستهم الله من ثمود في دارهم أى في أرضهم التى هلكوا فيها ،
خامدين هامدين لا يتحركون .

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾
الأعراف

وفى آية أخرى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا آلَا إِن تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لِمُؤَدَّ ﴾ هود .

فأعرض عنهم صالح وقال لهم : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى وأدبت
إليكم ما أمرنى به ربى ، ونصحت لكم وحذرتكم بأسه وبطشه بإقامتكم
على كفركم به ، وعبادة الأوثان ؛ ولكن لا تحبون الناصحين لكم فى الله .
قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ الأعراف .

ولما جاء ثمود عذاب الله ، نجى صالحاً والذين آمنوا معه برحمة وفضل من الله ، ومن خزي ذلك اليوم ، فإن الله هو القوي العزيز ، فلا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ هود .

وقيل : إن الذين نجو مع صالح كانوا مائة وعشرين ، وأنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحي فلسطين ، ويقول أهل حضرموت : أنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها ؛ لأن أصلهم من تلك الناحية ، ولأنهم من أهل (الأحقاف) وهناك قبر يزعمون أنه لصالح عليه السلام ، وبعضهم يقول : أنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا ، والله ورسوله أعلم .

٦ - قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

مذكورة في الجزء الثاني

٧ - قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام هو ابن أخى (إبراهيم الخليل) عليه السلام ، وقد هاجر
سمعه من أرض بابل إلى أرض الشام المباركة لقوله تعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء
وهى الأرض المقدسة التى بعث الله منها أكثر الأنبياء (صلوات الله
عليهم أجمعين)

وقد أرسله الله تعالى إلى أرض (سدوم) وكانت أرض كفر وفحش ،
وكان قوم لوط من المجرمين الفاسقين ؛ وكانوا يقطعون الطريق على السابلة ،
وقد ذهب ماء الحياء من وجوههم ، فلا يستقبحون قبيحاً ، ولا يرغبون فى
حسن ، كما قال الله تعالى :

أَنفَكُمۡ لَمَّا تَوُنَّ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
الْمُنْكَرَ ﴿ العنكبوت

وكانوا قد ابدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من الخلق ،
وذلك أنهم كانوا يأتون الذكور شهوةً من دون النساء يستعلنون بذلك

ولا يستترون ، ولا يرون في ذلك سوءاً أو قبحاً ، وأن لوطاً عليه السلام قد وعظهم ونصحهم ونهاهم عن هذا الفعل الذمى ، وخوفهم بأمر الله تعالى وبطشه ، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى ، فلم يسمعو لقوله ، ولم يرددوا .

فلما ألح عليهم بالعظات والإنذار هددوه تارة بالرجم ، وطوراً بالإخراج من بينهم إلى أن جاء إلى لوط الملائكة .

فلما جاءت الملائكة لوطاً ساء مجيئهم ، فضاق بهم ذرعاً ، لأنه علم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن ضيوفه ضد قومه الجرمين ، ولذلك قال في نفسه : هذا يوم عصيب ، أى يوم شديد .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هود .

وأقبل قومه إليه مسرعين ، طالبين ضيوفه الحسان ليفعلوا بهم الفاحشة كما هي عادتهم من قبل ، فقال لهم : (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوا بهن (وأراد نبي الله أن يقي أضيافه بيناته) .

ذكر بعض المفسرين أن البنات هنا لسن بناته لصلبه ، بل يريد البنات من جميع أمة الدعوة بعرض الزوج منهن شرعاً (إن كنتم فاعلين) وهذا خير لكم مما تريدون من الفاحشة من الرجال ، فآخشوا الله واتقوه ، ولا تفضحوني في ضيقي ، ولا تذلووني بإتيان السوء معهم ، أليس فيكم رجل عاقل رشيد يعرف الحق ، وينهى عن المنكر ؟

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ
يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي
أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ هود .

فأجابوه : لقد علمت يا لوط إن بناتك لسن لنا أزواجاً بحق ، وأنت تعلم
ما نريد ، إنا نريد الرجال لا النساء .

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

هود

فلما لم يتناهاوا عن غيِّهم ، ولم يردعهم قوله ، ولم يقبلوا منه شيئاً مما عرض
عليهم من أسر بناته ؛ قال لوط : لو أن لي بكم قوة ، أى لو أن لي أنصاراً
تنصرني عليكم ، وأعاوناً تعينني ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو أنضم إلى
عشيرة مانعة تمنعني منكم ، لحلت بينكم وبين ما جئتم به تريدونه منى
في أضيافي .

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بَكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هود .

وقيل : إن لوطاً لما قال ذلك وجدت الرسل عليه وتكدرت وقالوا : إن
ركنك لشديد .

وقالت الملائكة للوط لما سمعوا هذا القول منه ، ورأوا ما لقي من
الكرب بسببهم : إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم ، وأنهم لن يصلوا إليك

بسوء ، ولا إلى ضيفك بمكره ، فهوّن عليك الأمر ، فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك في جوف الليل ، ولا يلتفت أحد منكم إلا امرأتك ، فإنه سيحل بها من السخط والعذاب ما حلّ بهم ، لأنها كانت كافرة غير مؤمنة (والتفت إليهم وأعجبها حسنها) وأن موعد هلاكهم الصبح . فاستبطأ ذلك لوط ، وطلب منهم تعجيل الهلاك فقالوا له : أليس الصبح بقريب ؟ وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَ أَنْتَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود .

ولما جاء أمر الله بهلاكهم جعل على قريتهم سافلها ، وأمطرها حجارة من (سجيل) أي من طين (منضود) أي متتابع بعضه إثر بعض (مسومة) معاملة عند الله . فأهلكها بمن فيها وما حولها من المؤنكات ، ونجى الله لوطاً ومن معه من أهله إلا امرأته فإنها هلكت فيمن هلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود .

٨ - قصة إسماعيل (عليه السلام)

جاء في قصة سيدنا إبراهيم الخليل أن زوجته السيدة الطاهرة (سارة) كانت عاقراً لا تلد ، وكان ملك مصر قد أعطاها جاريةً مصريةً اسمها (هاجر) فوهبتها له ، فولد منها (إسماعيل) عليه السلام .

ولكن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء أرسل الملائكة إلى سيدنا إبراهيم فقالوا له : إنا جئنا لنبشرك بغلام عليم . فراجعهم قائلاً : أبشروني على أن مسني الكبر ، وصار لا يرجي لمن كان مثلي أن يلد ، وامرأتى عاقر قد بلغت سن اليأس .

وكانت السيدة (سارة) تسمع كلام الملائكة لسيدنا إبراهيم ، فضحكت من هذه البشرى العجيبة وقالت : كيف ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ؟ وأبدت غاية الاستغراب ، فقال الملائكة : إن هذا وعد من الله القادر ، وذلك قوله :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَمِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُ قَانَانَ فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ

يَا وَيْلَتَى ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .
قَالُوا أُنَعِّجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴿١٠٠﴾ هود .

فلم يحل الحول على (سارة) وهى بنت تسعين سنة حتى حملت (باسحق)
ولما ولدته أسمته (يصحق) وترجمتها (يضحك) تريد أن كل من سمع بولادة
هذا الولد من أبوين شيخين يضحك لما فى هذه الولادة من الغرابة ؛ وقد آل
أمره إلى أن يكون نبياً لقوله تعالى : فى سورة الصافات .

﴿وَبَشِّرْهُ نَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وستأتى قصته .

وقد أخذت السيدة (سارة) القبرة من (إسماعيل بن هاجر) وهى تود
أن يرث ابنها إسحق وحده إبراهيم دون إسماعيل كما هى غيرة النساء ، لأنها
إمرأة تحب لابنها مالا تحب لابن ضررتها ، فطلبت من إبراهيم أن يبعد عنها
هاجر وابنها إسماعيل ، وأصرّت على ذلك ، فأوحى الله إلى إبراهيم عليه
السلام أن يأتى بالسيدة هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ، فذهب بهما حتى قدم
مكة ، فوضعهما هناك فى هذه البقعة التى لا نبات ولا ماء ولا أنيس فيها ،
ورجع إلى فلسطين بعد أن دعا لهما أن يتولاهما الله بعنايته وحفظه ، قال الله
تعالى على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ إبراهيم .

ولما نفذ الماء من هاجر عطشت ، وانقطع لبنها ، فعطش الصبي (إسماعيل) فنظرت ، أى الجبال أدنى من الأرض ؟ فصعدت (الصفاء) فتسمعت ، هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً ؟ فلم تسمع فأنحدرت ، فلما أتت على الوادى سمعت فنظرت ، أى الجبال أدنى من الأرض ؟ فصعدت (المروة) فتسمعت ، هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً ؟ فسمعت صوتاً فقالت : قد أسمعتنى صوتك ، فأغثنى فقد هلكت وهلك من معى . فجاء الملك وجاء بها حتى انتهى بها إلى موضع (زمزم) فضرب بقدمه فقارت عين فعجلت (هاجر) فجعلت فى شئتها (زمزمتها) أى لما أبصرت هاجر الماء ، قامت واستقت لنفسها ولابنها إسماعيل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس فى هذا الحديث : « رحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً تجرى إلى يوم القيامة » .

وقال لها الملك : لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنما هى عين لشرب ضيقان الله « ومن وقتها إلى الآن يشرب الحجاج من ماء زمزم ويأخذون منهم جزءاً منه تبركاً به » .

ومن وقتها إلى الآن والحجاج يسعون بين الصفا والمروة سبع مرات لأنها
صارت سنة مشروعة

وقال : إن أبا هذا الغلام (إبراهيم عليه السلام) سيجيء فينبات
لله بيتاً هذا موضعه . قال : ومرت قافلة من (جرهم) تريد الشام فأروا
الطير على الجبل فقالوا : إن هذا الطير لعائف على ماء فهل علمتم بهذا الوادى
من ماء ؟ فقالوا : لا . فأشرفوا فإذا هم (بهاجر) فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا
معهما فأذنت لهم . قال : وأتى عليها (أى على هاجر) ما يأتى على هؤلاء
الناس من الموت فماتت

رواج إسماعيل وزيارة والده له

وتزوج إسماعيل عليه السلام امرأة منهم ، فجاء إبراهيم فسأل عن منزل
إسماعيل حتى دل عليه فلم يجده ، ووجد امرأة له فظة غليظة القلب فقال لها : إذا
جاء زوجك فقل له جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وأنه يقول لك :
إني لا أرضى لك عتبة بابك فحوها ، وانطلق

فلما جاء إسماعيل أخبرته ، فقال ذاك أبى وأنت عتبة بابى فطلقها ،
وتزوج امرأة أخرى منهم ، وجاء إبراهيم حتى انتهى إلى منزل إسماعيل
فلم يجده ، ووجد امرأة له سهلة بشوشة فقال لها : أين انطلق زوجك ؟

فقلت : انطلق إلى الصيد . » وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع » قال : فما طعامكم ؟ قالت : اللحم والماء . قال : اللهم بارك لهم في لحمهم وماءهم . اللهم بارك لهم في لحمهم وماءهم (قالها ثلاثاً) وقال لها : إذا جاء زوجك فأخبريه وقولي له : جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وأنه يقول لك : قد رضيت لك عتبة بابك فأثبتها

فلما جاء إسماعيل أخبرته : قال ذاك إبراهيم أبى ، فلبث ما شاء الله أن يلبث ، وأمره الله ببناء البيت فبناه هو وإسماعيل . فلما بنياه قيل : أذن في الناس بالحج ، فجعل لا يمر بقوم إلا قال : أيها الناس إنه قد بنى لكم بيت فحجوه ، فجعل لا يسمعه أحد ولا صخرة ولا شجرة ولا شيء إلا قال (كَبَيْكَ اللَّهُمَّ كَبَيْكَ) وأصبح الحج فرضاً على كل مسلم أن يؤديه متى استطاع لذلك سبيلاً

أولاد إسماعيل (عليه السلام)

وقد رزق إسماعيل عليه السلام اثني عشر ولداً وكانوا رؤساء قبائل وسميت (بالعرب المستعربة)

بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة (البيت الحرام)

لما أمر الله إبراهيم (عليه السلام) ببناء الكعبة سار من الشام إلى مكة

وقدم على ابنه إسماعيل عليه السلام وقال له : يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرني
أن أبني له بيتاً

فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك

فقال إبراهيم : وقد أمرك أن تعينني عليه . فأجابه : سمعاً وطاعة

فقام معه إسماعيل وصدعا بالأمر ، وبني الكعبة ، وكان إبراهيم عليه
السلام يبني ، وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ويناولها لوالده ، إلى أن
رفعا قواعد البيت وأتما بناءه وهما يدعوان الله قائلين :

« ربنا تقبل منا أعمالنا إنك أنت السميع للداعين ، العليم بأحوالهم »

« ربنا اجعلنا مخلصين لك ، واجعل من ذريتنا أمة مخلصين لك ،

وأرشدنا إلى طرق عبادتك ، واغفر لنا ذنوبنا ، وتب علينا إنك أنت

التواب الرحيم »

وسألا الله بأن يبعث في الناس رسولاً منهم (وهو محمد صلى الله
عليه وسلم) ليعلمهم كتاب الله (القرآن الكريم) والحكمة (أى الدين
والفقه) وأن يطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وأن يغرس فيهم حب
الطاعة ، والإخلاص لله ، والاعتراف بأنه هو القوى العزيز ، الحكيم في
تصرفاته وأفعاله ، وذلك قوله تعالى .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ

مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَيِّدُهُمْ مِنْ أَنْتَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾
 البقرة

وقد أجاب الله دعاءهما ، وجعل هذا البيت الحرام مرجعاً للناس ، ومعاداً
 يأتونه كل عام للحج و يرجعون إليه ، كما أنه جعله أمناً لهم يأوون إليه من
 المخاوف لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة

وأنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم آية باتخاذ مقام إبراهيم (وهو
 الحجر الأسود الذي قام عليه حين ارتفع بناء البيت وضعف عن رفع الحجارة
 وقيل : هو مقامه المعروف في المسجد الحرام) مُصَلًّى يصلون عنده عبادة لله
 وتكرمة منه لإبراهيم عليه السلام ، قال تعالى :

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة

وعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير هذا البيت الحرام من عبادة
 الأصنام للطائفتين الذين يأتونه ويطوفون به ، سواء كانوا غرباء أو من

أهله ، وللعاكفين الملازمين له ، والركع السجود ، أى أهل الصلاة القائمين بها خير القيام ، لقوله تعالى :

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرْنَا بَيْنَنَا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة .

ودعا إبراهيم ربه قائلاً : رب اجعل هذا البلد (أى مكة) بلداً آمناً من الجبابرة وغيرهم أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وانتقال وغرق .

وقيل : ان مكة منذ وجدت وحرم آمن عقوبة الله وسطو الجبابرة وقيل : ان إبراهيم سأل ربه ذلك ، لأنه أسكن فيه ذريته وكان غير ذى زرع ولا ضرع ، فاستعاض ربه من أن يهلكهم بها جوعاً وعطشاً ، ودعاه أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه ، كما أنه دعاه أن يرزق المؤمنين من أهل مكة من الثمرات دون كافرهم .

فأجاب الله دعاءه وقال له : أجبت دعائك ، وسأرزق مع مؤمنى أهل هذا البلد كافرهم أيضاً ، فأمتمه قليلاً برزق من الثمرات فى الدنيا إلى أن يأتیه أجله ، ثم أذفعه إلى عذاب النار ، وأسوقه سعياً وجرأ على وجهه ؛ وهذا المصير السيئ لكل كافر ، وذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ

مِنَ الشَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿البقرة﴾
فكانت الكعبة أول بيت وضع للناس للعبادة في حين أن بقية الشعوب والقبائل في سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل.

وكان هذا البيت الحرام مباركاً وهدى للعالمين ، ومآباً لعبادة العابدين ، وطواف الطائفين ، تعظيماً وإجلالاً لله ، وفيه علامات وآيات بينات ، وهي مقام إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) والمشعر الحرام ، وكل من دخله كان آمناً على نفسه من المخاوف ، ومن عذاب النار ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾
آل عمران

طاعة إسماعيل لوالده إبراهيم (عليهما السلام)

لذبحه امتثالاً لأمر ربه وشجاعة

جاء في القرآن الكريم قصة ذبح إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام ، وقيامه بذلك امتثالاً لأمر ربه إلى أن أوحى إليه بالامتناع

عن ذبحه وفدائه بكبش عظيم عوضاً عنه وهى :

أن سيدنا إبراهيم عليه السلام رأى فى منامه أنه يقدم على ذبح ولده إسماعيل ليقدمه قرباناً لله ، فصدع بالأمر الصادر إليه فى المنام (ومنام الأنبياء وحى من الله فهو صدق وحق)

ولما عرض الأمر على ولده إسماعيل عليه السلام تقبله بالرضا ، وقال لوالده : يَا بَتِ افْعَلْ مَا تَوْمَرُ ، ستجدنى إن شاء الله مطيعاً لأمر ربى ، وستجدنى من الصابرين ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ افْعَلْ مَا تَوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾
الصفات

فلما استسما لأمر الله ، وصرع إبراهيم ولده إسماعيل على وجهه ليذبحه نودى إبراهيم لقد صدقت الرؤيا بالحق فكف عن ذبح ولدك . فالتفت فإذا بكبش كبير ، فأخذه وذبحه وأخلى سبيل ابنه ، وأكب على ابنه يقبله وهو يقول : اليوم يا بنى قد وهبت لى ، ويقول الله ما معناه : إنا كما جزيناك خيراً وإحساناً منا لطاعتك لنا يا إبراهيم كذلك نجزي الذين أحسنوا وأطاعوا أمرنا وعملوا على مرضاتنا ، قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠﴾ الصَّافَات

وإِن أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ ابْنِكَ هُوَ أختَبَارٌ مِّنَّا لَكَ ، يظهر لمن
فكر فيه أنه بلاء شديد ومحنة عظيمة .

وقد فديناه بكبش عظيم ، وأنقذناه من الذبح ، وأبقينا له الثناء الحسن
في الآخرة ، وتلك مِنَّةٌ من الله لإبراهيم أن يذكره من بعده بالذكر الجميل ،
وذلك قوله تعالى :

﴿ إِن هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

الصَّافَات

واليهود يزعمون أن الذبيح هو إسحق لا إسماعيل ، وهذا خلاف
ما قرره العلماء ، والله تعالى أعلم .

صدق إسماعيل (عليه السلام) ووفائه

إن إسماعيل عليه السلام كان صادقاً لا يكذب ، ووفياً لا يخلف وعده ،
ولذا قال الله في حقه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ
رَسُولاً نَبِيّاً ﴾ مريم

أى اذكر يا محمد فى القرآن الذى أوحيناه إليك ، أن إسماعيل بن إبراهيم كان لا يكذب ، ولا يخلف وعده ، فكان إذا وعد ربه أو عبداً من عباده وعداً ، قام وأوفى به .

قال سهيل بن عقیل : إن إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه . فجاء ونسى الرجل ، فظل إسماعيل وبات حتى جاء الرجل فى الغد ، فقال له : ما برحت من ههنا ؟ قال : لا . قال الرجل : إني نسيت . قال إسماعيل : لم أكن لأبرح حتى تأتى .

فهكذا يكون الصدق والوفاء فى الأنبياء وغيرهم .

وكان إبراهيم عليه السلام ، يأمر أهله بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكان عمله هذا عند ربه مرضياً محموداً ، لقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

مریم

رسالة إسماعيل إلى الناس

وقد أرسل الله تعالى إسماعيل عليه السلام إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق ^(١) ليدعوهم إلى وحدانية الله وعبادته ، وكانت العمالة ساكنين فى جزيرة العرب من جهة الشام .

(١) العماليق جمع عملاق وهو الرجل الطويل القامة

ولما تكاثر نسله ، وبارك الله فيه ، وجعل له القوة على غيره ، أخرج
العالمين فانتشروا في جهات كثيرة ، وكانت لهم اليد العليا في كل ناحية
وصلوا إليها .

عمر إسماعيل ووفاته ومحل موته

قيل : إن إسماعيل عليه السلام عاش ١٣٧ مائة وسبعاً وثلاثين سنة .
وقيل : إنه مات بفلسطين ، ولكن مؤرخو العرب قالوا : إنه مات
بمكة ، ويظن أنه دفن (بالحجر) الذي بجوار البيت الحرام هو وأمه ، والله
تعالى أعلم .

٩ - قصة إسحاق (عليه السلام)

سيدنا إسحق عليه السلام ويقال له (يصحق) بالعبرانية ، ومعناها يضحك ؛ هو ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام من زوجته السيدة (سارة) وإنما سمي بذلك لأن أمه ضحككت في نفسها حينما بشرها الملك بأن يكون لها ولد ، وهى قد شاخت وفاتت سن الولادة ، ولذلك إبراهيم قد بلغ من العمر مائة سنة ، ولكن لما كان وعد الله لإبراهيم بإقامة النسل من ولده إسحق لم يخلف الله وعده ، وولد إسحق سنة ٢١٠٨ قبل الميلاد ، وكان به لوالديه فرح لا يوصف .

ولما رأت السيدة سارة أنه قد صار لها ابن كبر عليها أن يشترك معه في ميراث أبيه إسماعيل ابن جارتها (هاجر) فطلبت من إبراهيم أن يقصيه وأمه عنها ، وأراد الله ما طلبته كما مرّ ذلك في قصة إسماعيل عليه السلام .

ولم يذكر في القرآن الكريم من قصة إسحق عليه السلام إلا البشارة به ، وأنه غلام عليم ، وأنه نبي من الصالحين ، وأن الله بارك عليه لقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْناهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَكَلَّمْنَاهُ وَإِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ الصافات .

ولما تكاثر نسله ، وبارك الله فيه ، وجعل له القوة على غيره ، أخرج
العالمين فانتشروا في جهات كثيرة ، وكانت لهم اليد العليا في كل ناحية
وصلوا إليها .

عمر إسماعيل ووفاته ومحل موته

قيل : إن إسماعيل عليه السلام عاش ١٣٧ سنة وسبعاً وثلاثين سنة .
وقيل : إنه مات بفلسطين ، ولكن مؤرخو العرب قالوا : إنه مات
بمكة ، ويظن أنه دفن (بالحجر) الذي بجوار البيت الحرام هو وأمه ، والله
تعالى أعلم .

٩ - قصة إسحاق (عليه السلام)

سيدنا إسحق عليه السلام ويقال له (يصحق) بالعبرانية ، ومعناها يضحك ؛ هو ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام من زوجته السيدة (سارة) وإنما سمي بذلك لأن أمه ضحككت في نفسها حينما بشرها الملك بأن يكون لها ولد ، وهى قد شاخت وفاتت سن الولادة ، ولذلك إبراهيم قد بلغ من العمر مائة سنة ، ولكن لما كان وعد الله لإبراهيم بإقامة النسل من ولده إسحق لم يخلف الله وعده ، وولد إسحق سنة ٢١٠٨ قبل الميلاد ، وكان به لوالديه فرح لا يوصف .

ولما رأت السيدة سارة أنه قد صار لها ابن كبير عليها أن يشترك معه في ميراث أبيه إسماعيل ابن جارتها (هاجر) فطلبت من إبراهيم أن يقصيه وأمه عنها ، وأراد الله ما طلبته كما مرّ ذلك في قصة إسماعيل عليه السلام .

ولم يذكر في القرآن الكريم من قصة إسحق عليه السلام إلا البشارة به ، وأنه غلام عليم ، وأنه نبي من الصالحين ، وأن الله بارك عليه لقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ الصافات .

وأنه من عباد الله المخلصين ، ومن أهل القوة والطاعة على عبادته ، ومن ذوى العقول الراجحة الذين خصهم الله بحسن الذكري في الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا ، وأنه من الذين اصطفاهم الله من الأخيار ، واختارهم لطاعته ورسالته إلى خلقه ، لقوله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَكِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ص .

وأن الله سبحانه وتعالى وهبه وتفضل به على إبراهيم ليكون من الرجال العاملين بطاعة الله ، المجتنبين لمحارمه ، وجعله من الأئمة الذين يهدون الناس إلى طريق الحق ، ويقتدى بهم في العمل بأمر الله ، والدعوة إلى عبادته من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لقوله تعالى :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء .

هذا ما جاء في القرآن الكريم من ذكر قصة إسحاق عليه السلام . أما قصته في التوراة فملخصها ، نقلاً عن كتاب قصص الأنبياء لفضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار (ص ٨٨) ما يأتي :

إن إبراهيم (عليه السلام) لما شاخ أتى بعبده المستولى على بيته وأحلفه على أنه لا يأخذ لابنه إسحق زوجة من بنات الكنعانيين الموجودين في (فلسطين) بل يأخذ له زوجة من عشيرته وبني أبيه ، فذهب العبد إلى (آرام) التي بها أسرة (ناحور) أخى إبراهيم وخطب له فتاة حسنة وهى (رفقة) بنت (بتوئيل) فأجابته والدها إلى ما طلب وذهب بها إلى ديار سيده وكانت (رفقة) عزاء لإسحق بعد موت أمه ، وقد رزق منها بتوأمين هما (عيسو) وأوعيص (ويعقوب) وكان خروجهما من بطنها بهذا الترتيب وكان عيسو فى كبره مغرمًا بالصيد ، ويعقوب وادعًا ، فأحب إسحق عيسو ، وأحبت رفقة يعقوب لكثرة برّه بها ، وكان فى ذلك الزمن للبكر امتياز على غيره فى الميراث بحق البكورية ، فجاء عيسو يومًا متعبًا لم يظفر بصيد ، وقد هيا يعقوب طعامه من عدس ، فأراد أن يأكل منه ، فأبى عليه ذلك ، إلا أن ينزل له عن حق البكورية ففعل

تغرب إسحق

وقد جاء فى التوراة أيضًا ، أنه حصلت مجاعة فى الأرض فى عهد إسحق كما حصلت فى عهد إبراهيم ، فذهب إسحق من (بئر سبع) إلى (جرار) عند أبى مالك ، وقالت رفقة عن زوجها إسحق : إنه أخى ،

وهو أيضاً قال : إنها أختي . ورأى الرجل إسحق يلاعبها . فعلم أنها زوجته ، فعاتب إسحق ، وحصل لهما كما حصل في شأن إبراهيم وسارة . وما يذكّر أن إسحق أعطاه الله هناك أى (جرار) أموالاً كثيرة ، وعميداً حتى حسده الأهالي حسداً شديداً ألجأه إلى الخروج من بينهم ، فرجع الى (بئر سبع) وتوطن هناك . وقد توفي إسحق بعد أن عاش ١٨٠ سنة وثمانين سنة ، ودفن بمغارة في (جيرون) وهي مدينة الخليل اليوم .

١٠ - قصة يعقوب (عليه السلام)

يعقوب عليه السلام هو ابن إسحق بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أنه نبي صالح ، وأن الله هداه كما هدى نوحاً من قبل ، لقوله تعالى :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾

الأنعام

أما في التاريخ فقليل :

قد بعث الله تعالى يعقوب نبياً إلى أهل (كنعان) وكان ملكهم يومئذ (سلجم) من ولد (دارا) فلما نزل يعقوب عليه السلام بأرض (كنعان) وبني بها داراً واسعةً نزل بها هو وأولاده ، قيل : هي مدينة (نابلس) وهناك مرعاه (لأنه كان صاحب زرع وماشية) فبلغ الملك ذلك فخرج بجميع جنوده يريد إهلاكه . فلما بلغ إلى مكان يعقوب نظر إلى دار وهنة فقدم على الجحى إلى هناك واجتمع مع يعقوب وجلس بين يديه وقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ وكيف نزلت في هذا المكان بغير إذني ؟ فقال : أنا يعقوب بن إسحق بنى الله ابن إبراهيم خليل الله ، ونزلت في هذا المكان بإذن الله تعالى ، وإني بعثت لأدعوك وقومك إلى الإيمان بالله تعالى ، والإقرار بأنى عبده ، فإن

أجبت ، وإلا جاهدتك في الله حق جهاده . فغضب الملك وقال له : سيم
تجاهدني وليس معك جنود ؟ فنظر يعقوب إلى أولاده الاثني عشر ، وكانوا
قياما على رأسه فقال : أجاهدك بالله ، وملائكته ، وهؤلاء الأولاد . فغضب
الملك وانصرف إلى حصنه ، وأخذ يعقوب يدعوهم إلى دين الإسلام فلم يقبلوا ،
ولم يؤمنوا ، فأمر أولاده بالجهاد ، فقال (شمعون) : يا نبي الله أنا أكفيك
أمر هذا الحصن ، فأذن له فوقف على باب الحصن وقال : اللهم افتح لنا وأنت
خير الفاتحين ، بسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . وضرب برجله اليمنى
باب الحصن فتدكدك الحصن ، وسقطت حيطانه ومات أكثر من فيه من
الخوف ، ودخل يعقوب إلى الحصن وأولاده وانهمزم الملك ، وغالب جنوده ،
وغنموا كل ما فيه .

ثم هاجر يعقوب وسار إلى خاله (لابان) في (فلسطين) فكان يسير
بالليل ، ويمكن بالنهار ، فسمى لذلك : إسرائيل .

فبينما هو يسير أدركه النوم في بعض الطرق فبات متوسداً حجراً ؛ فرأى
رؤيا (ورؤيا الأنبياء وحى من الله) أن الله أوحى إليه : أنى أنا الله لا إله
إلا أنا إلهك وإله آبائك ، وقد أورتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من
بعدك ، وباركت فيك وفيهم ، وجعلت فيكم الكتاب ، والحكم ،
والنبوة ؛ فسار إلى خاله (لابان) وكان له بنتان (ليآ ، وراحيل) فتزوجهما
وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين ، وقد حرم الله ذلك فيما بعد لقوله تعالى :

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ النساء .

وكان يعقوب في غبطة وسرور منهما ، وكان لهما جاريتان أختان : (بَلْهَة
وزِلْفا) فوهبته كل واحدة منهما جاريتها ، فجمع بين أختين حرتين ، وأختين
أمتين فولد له من (لِيَا) ستة من الأسباط وهم : روبيل ^(١) . ويهوذا ^(٢) .
وشمعون ^(٣) . ولاوى ^(٤) . وإسّاخر ^(٥) . وزبولون ^(٦) .

وولد له من (زاحيل) يوسف عليه السلام وأخوه بنيامين .
وماتت (زاحيل) من نفاس (بنيامين) ودفنت خارج بيت المقدس
على الشارع الذى بقرب (بيت لحم) .

وولدت كل من الجاريتين رهطين من الأسباط وهم : (دانا ^(٧)) .
(ونفتالى ^(٨)) من بَلْهَة جارية (زاحيل) ، وجاد ^(٩) . وأشير ^(١٠) من زِلْفا
جارية لِيَا .

وسموا بالأسباط لأن كل واحد منهم ولد له قبيلة .

والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الأغصان .

ثم اشتاق (يعقوب) لرؤية أمه وسار بأهله وأولاده ، وهم اثنا عشر ذكراً ،
إلى أرض (كنعان) ، وكان أخوه (عيسو) ذا سلاح وقوة ، وكان قد سمع
بوصول أخيه فاستقبله فتلاقيا وتعانقا .

-
- ١ - روبيل (أى العظيم) - ٢ يهوذا (أى الشاكر) - ٣ شمعون (أى الطائع)
٤ - لاوى (أى التام) - ٥ إسّاخر (أى حاضر الرجاء) - ٦ زبولون (أى النجاة
من هول الليل) - ٧ دانا (أى الحكيم) - ٨ ونفتالى (أى المتضرع) - ٩ جاد (أى
الحظ) - ١٠ أشير (أى المجد) (عن مجانى الأدب) .

وكان ليعقوب مواش كثيرة ، فأعطى العشر من غنمه لأخيه ، فانتقل بها إلى بلاد الروم ، فاستوطنها فهو (أبو الروم) .

وقيل : إن يعقوب وعيسو ، ماتا في يوم واحد ، وقيل عاش يعقوب عليه السلام في أرض مصر بعد أن اجتمع بولده يوسف سبع عشرة سنة وكان عمره ١٤٧ مائة وسبعاً وأربعين سنة ، وتوفي بمصر ، وحمله ابنه يوسف عليه السلام ودفنه عند قبر أبيه إبراهيم عليه السلام .

وصية يعقوب لأولاده

وقد جاء في القرآن الكريم أن سيدنا يعقوب عليه السلام أوصى بنيه بما أوصى به إبراهيم عليه السلام بنيه من الحث على طاعة الله ، والخضوع له ، واتباع قواعد الإسلام ، لقوله تعالى :

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ البقرة .

وهذه الوصية تنحصر في قوله لهم : إن الله اصطفى لكم الدين القيم الذي قد عهد إليكم فيه ، فاتقوا الله ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون ، كما قال الله تعالى :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكَ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

البقرة

١١ - قصة يوسف الصديق

عليه السلام

يوسف الصديق عليه السلام ، سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم :
الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، فهو يوسف بن يعقوب
ابن إسحاق ، بن إبراهيم عليه السلام

كان جميل الصورة ، حسن الوجه ، وكان أبوه يعقوب يؤثّر به زيادة
الحبة على إخوته ، وكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه ، وسبباً في
محنه التي كانت خيراً ، وبركة عليه وعلى مصر ، وعلى الأمم القريبة
من مصر .

وقد ذكرت قصة يوسف في القرآن الكريم في سورته الماعونة ، وهي
مشروحة فيما يأتي :

إن يوسف عليه السلام رأى في منامه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر
تسجد له فقصّ هذه الرؤيا على أبيه ، وكان عمره وقتئذ اثنتي عشرة سنة . فقال له
أبوه : يا بُنَيَّ لا تخبر إخوتك بهذه الرؤيا فيدبروا حيلةً لإهلاكك ، لأن
الشیطان للإنسان عدوٌّ مبين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى
إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾

وكما أن الله اصطفاك فأراك هذه الرؤيا ، يصطفيك للنبوته والملك
ويعلمك تعبير الرؤيا ، ويتم نعمته عليك بالنبوته ، وعلى آل يعقوب
بالتقوى والصلاح ، كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحق من قبل ، إن
ربك عليم بأهل الفضل ، حكيم لا يقضى إلا ما ينبغي أن يكون ، وذلك
قوله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

حسد إخوته وحقدهم عليه واتفاقهم على قتله

ولما رأى أبناء يعقوب شدة حب أبيهم ليوسف وإيثاره عليهم
اشتد بهم الغيظ والحسد والحقد ، وهم في شرح الشباب ، وطيش الحداثة ،
فأضمروا له الشر ، وسعوا في التفريق بينه وبين أبيه ، فقالوا : إن يوسف
وأخاه (بنيامين) من أمه أحب إلى أبينا منا ، ونحن جماعة أقوىاء أشداء
نافعون له ، وأحق بمحبته ، وأجدر بمعونته ، إن أبانا إذا لقي خطيئاً عظيماً

في إشاره يوسف وأخاه علينا بالحجة .

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وأجمعوا أمرهم على قتله ، وقال بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف أو ألقوه في
أرض من الأراضي يخل لكم وجه أبيكم عن شغله بيوسف ، فإنه قد يشغله
وصرف وجهه عنا إليه ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين بتو بتكم من قتله .
﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا
مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

قال قائل منهم وهو « يهوذا » وبعضهم قال : (أرويل) وكان أكبر
القوم وأفضلهم ، وأرجحهم عقلاً : لا تقتلوا يوسف ، فإن القتل ذنب عظيم ،
بل ألقوه في قعر بئر يلتقطه بعض المارة إن كنتم ولا بد فاعلين .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ
بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وأخذ عليهم اليهود أنهم لا يقتلونه ، فأجمعوا عند ذلك على أن يدخلوا
على يعقوب ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية ، وأقبلوا عليه ، ووقفوا
بين يديه ، فلما رآهم قال لهم : ما حاجتكم ؟

قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ والحال أننا عليه مشفقون ، وله ناصحون ، أرسله معنا إلى الصحراء يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ، نحفظه حتى يردده إليك سالماً .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وكان يعقوب قد أحس بالشر الذي يضمه بنوه لأخيه يوسف ، ولم يرد أن يظهر لهم تخوفه من جانبهم ، فقال لهم : إنه ليكدرني أن تذهبوا بيوسف ، لأنني لا أطيق وقع فراقه على نفسي ، وأخاف أن يحتطفه الذئب منكم فيأكله وأتم عنه لاهون » والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

فأجابوه قائلين : لن أكله الذئب ونحن جماعة كثيرون نكون إذا عاجزين هالكين .

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

تنفيذ مؤامرتهم بإلقاء يوسف في غيابة الجُبِّ لهلاكه

فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن إليهم وأرسله معهم . فلما ذهبوا به إلى البرية ، أجمعوا رأيهم ، وعزموا على إلقائه في غيابة الجُبِّ ، وأظهروا له العداوة ، وجعل بعض إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، ولم يجد منهم أخا رحيماً ، وجعلوا يضربونه ، حتى كادوا يفتككون به ؛ فأخذ يصيح ويقول : يا أبتاه ! (يا يعقوب) لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء . فلما كادوا يقتلونه قال لهم يهوذا : أليس قد أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه ، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه ، وأوثقوه كتفاً ، ونزعوا قميصه ، وألقوه فيه

فقال لهم : يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتواري به في الجُبِّ .

فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك .

قال : إني لم أر شيئاً . فأدلوه في الجُبِّ حتى إذا بلغ نصفها القوه حتى يموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فيها فقام عليها ، ثم نادوه فظن أنهم رحموه فأجابهم ، فأرادوا أن يرحموه بالحجارة ، فمنعهم يهوذا ثم أوحى الله إليه لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون بالوحي

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

تلطّيح قيصه بدم كذب لإخفاء الجريمة

ثم عمدوا إلى سخلّة (جدي) من الغنم فذبجوها ، ولطخوا قيص
يوسف بدمها ، ورجعوا إلى أبيهم يعقوب في العشاء ، وكان ينتظر مجيئهم لتعلق
قلبه بيوسف

فلما دنوا منه صرخوا صراخ رجل واحد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء
والعويل ، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة

فلمّا أقبلوا عليه اجتمعوا وتقدموا بين يديه ، وأكثروا من البكاء ،
ففرّج يعقوب وقال لهم : ما لكم يا بني ، وأين يوسف ؟

قالوا يا أبانا إنّنا ذهبنا للسباق والنضال ، والرمي بالسهم ، وتركنا يوسف
عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وأنت لست بمصدقنا ولو كنا صادقين
﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ
كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

فبكى الشيخ وصاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فجاءوه بالقميص
عليه دم كذب ، فأخذ القميص وطرحه على وجهه ، ثم أخذ يبكى
حتى تخضب وجهه من دم القميص ، ولما لم يجد بالقميص تمزيقاً ولا
قطماً قال لهم متهمك : ما أحلم هذا الذئب الذي افترس ولدى ولم يمزق

قيصه ، ولم يُعَمِل في قيصه ناباً ولا ظفراً ، ثم قال لهم : لقد سَوَّلت لكم أنفسكم ارتكاب ذنب عظيم ، فصبر جميل ، وربى المعين على احتمال ماتقولون .
﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّاتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

إنقاذ يوسف من الجُبِّ

وأقام يوسف في الجُبِّ ثلاثة أيام وكان قليل الماء ، وجاءت سَيَّارة (قافلة) فبعثوا من يستقي لهم ، فأدلى دلوه في البئر الذي به يوسف فتعلق به ، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء فإذا بها غلام وسيم (حسن الوجه) فاستبشر الرجل وقال : يا بشرى هذا غلام !
﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ .

واتفق وارد القوم الذي أدلى دلوه ومن معه من أصحابه من رفقته بالقافلة ، على أن لا يقولوا أنهم اشتروه من سادته أصحاب الماء خيفة أن يطلبوا منهم الاشتراك معهم فيه ، فقال : إن أهل الماء استبضعونا هذا الغلام . والله عليم بما يعمل به باعة يوسف ومشتروه في أمره .

﴿ وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

بيع يوسف لعزير مصر

ثم جاء (يهوذا) بطعام ليوسف حسب عادته فلم يره في الجب فنظر
فرآه عند مالك في المنزل فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا مالكا وقالوا له : هذا
عبد (آبق) هارب منا ، فاشتراه منهم بثمان بئس قيل : عشرون درهماً ،
وكانوا فيه من الزاهدين .

ثم ذهبوا به إلى مصر وعرضوه للبيع فاشتراه (إطفير) عزير مصر وكان
وزيراً على خزائن مصر ، وكان الملك على مصر يومئذ (الريان بن الوليد)
رجل من (العماليق) ثم مضى به العزيز وقال لامرأته (راعيل أو زليخا) :
أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا إذا فهم الأمور ، أو نتخذه ولداً ، لأنه لم يكن
له ولد ، وليس عنده ميل للنساء .

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ .

ولما رأى في يوسف الذكاء والأمانة والعلم جعله صاحب أمره ونهيه ،
والرئيس على خدمه ، والمتصرف في بيته بحيث لم يكن لأحد من في الدار كلمة .

أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته ، وهذا إكرام من الله له ، وحسن جزائه إليه

ولما أنقذ الله يوسف من أيدي إخوته (وقد هموا بقتله بالقائه في الحب) وأخرجه من الحب صيره إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ، ومكن له في الأرض وجعله على خزائنها ، وتولاه بالهداية والتربية والتوفيق ، وعلمه من لدنه علماً عظيماً ، وهو (تعبير الرؤيا) والله غالب على أمره ، فعّال لما يريد ، ولكن أكثر الناس الذين زهدوا في يوسف وباعوه بشمن بخس ، والذين صار معهم من أهل مصر لا يعلمون ما الله صانع بيوسف

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
ولما بلغ يوسف منتهى شدته وقوته في شبابه ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وجزاه أحسن الجزاء ، وكذلك يجزي الله المحسنين من عباده القائمين بأمره ، المهتدين إلى طاعته

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

محنة يوسف بحب امرأة العزيز له

وما حصل له معها

كانت نعمة الله تعالى على يوسف بالحسن والجمال الرائع سبباً في محنته . من حيث أن امرأة العزيز لما نظرت إليه ، ورأت حسنه وجماله شغفها بحبه وعشقتة ، فأخذت تداعبه ، وهو يعرض عنها لشدة إيمانه بالله ، وخافة عصيانه ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولطهارة أخلاقه ، تلك الطهارة التي ورثها عن أبيه وجده وجد أبيه ، ولأمانته وعدم قبوله خيانة سيده الذي اتقنمه على ماله وعرضه ، ومكّن له في بيته ، وجعله المتصرف في أمواله وخدمه ، ووثوقه به ثقة عظيمة

كل ذلك كان كافياً لحفظ سيده في أهله ، والابتعاد عن تدنيس شرفه وكرامته ، وإعراضه عن امرأته التي هاج بها الغرام ، فراودته عن نفسها ، وأخذت عدتها لتنفيذ رغبتها ، وغلقت الأبواب ، وقالت ليوسف : هيت لك (فلم بنا) فأبى عليها ذلك ، وقال لها : معاذ الله ، أعصم بالله ، وأستجير بالله من هذا الفعل المنكر ، إن سيدي (أى بعلمها) أحسن منزلتى وأكرمنى وأثمننى فلا أخونه في أهله ، والله ، إن الذى تدعينى إليه لظلم فاحش ولا يفلح الظالمون ﴿ وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿١٠٠﴾

ولما همت بيوسف امرأة العزيز ودعته إلى نفسها أراد أن يهيم بها
إجابة لنداء الطبيعة البشرية القاهرة ، لولا أنه نظر بعين البصيرة ، فرأى
البرهان الساطع ، والدليل القاطع ، وهو عصمة الأنبياء ، من ارتكاب
الفحشاء ، فاستعصم ، وحرص كل الحرص على طاعة ربه ، وتمسك بأداب
آبائه ، وأخلاقهم الطاهرة الزكية ، ولذا صرف الله عنه السوء والفحشاء
وجعله من عباده الصالحين ، المخلصين في عبادته وطاعته .

وقد اعترفت امرأة العزيز نفسها بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم
كما سيحيى ذكره ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

وقام يوسف مولياً وجهه شطر الباب هارباً مما أرادته ، فاتبعته وأدركته
وتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبتة إليها مانعة له من الخروج ، فخرقت
قميصه ، وشقته من خلفه ، لأن يوسف كان الهارب ، والمرأة كانت الجاذبة
الطالبية ، واستبقا الباب فوجدا سيدها العزيز وابن عمها معه قائمين على
باب البيت ، فلما رآته هابته وقالت له : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا

أن يسجن أو يعذب عذاباً أليماً ، ولطخته مكانها بالسيئة خوفاً من أن يتهمها صاحبها بالفجور

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

تبرئة يوسف مما اتهمته به امرأة العزيز

فلما سمع يوسف عليه السلام ذلك اضطر إلى تبرئة نفسه الطاهرة الزكية فقال : هي راودتني عن نفسي فهربت منها ، فأدركتني فقدت قميصي من خلف (أى قطعه وشقته طولاً)

فقال ابن عمها : تبیان هذا فى القميص ، فإن كان قدّ من أمام فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قدّ من خلف فكذبت وهو من الصادقين ، فأتى بالقميص فوجده قدّ من دبر (خلف) فقال : إن هذا الفعل من كيدكن ، إن كيدكن عظيم

« وقيل : إن الشاهد كان صبيّاً فى المهد »

فقال زوجها ليوسف : يوسف أعرض عن هذا (أى لا تذكر ما كان منها لأحد)

ثم قال لزوجته : استغفرى لذنبك إنك كمت من الخاطئين المذنبين

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنَّ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرِ لِي ذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

وذنبها طلبها الفحشاء من يوسف ، وافترأوها عليه بأنه هو الذي راودها عن نفسه وأراد بها السوء والفحشاء .

شيوخ الخبر في المدينة وتحدث النساء به

ثم شاع أمر يوسف وامرأة العزيز بين الناس في أرجاء المدينة ، وأكثر بعض نساء الأشراف من التحدث بهذه الحادثة ، ووجهن سهام الطعن والملام ضدّها قائلات : إنها في ضلال عظيم .

فلما بلغ امرأة العزيز اغتياها لها أخذت في الكيد لهن ليعذرنها فيه ، ولا يعذرنها ، فأرسلت إليهن ، وهيات لهن مكاناً أنيقاً ، فيه من التمارق والوسائد ما يتكئن عليه ، وقدمت إليهن طعاماً مما يحتاج قطعه إلى السكين ، قيل : أنه التفاح وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وبينما هن يقطعن ماهيات لهن أمرت يوسف أن يخرج عليهن .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ .

فاما خرج يوسف عليهن ورأينه بهرهن جماله ، وشغلن حسنه عن قطع الفاكه التي كانت بأيديهن ، فصرن يقطعن أيديهن ، وهن لا يشعرن بآلم الجرح ، وأعلن إكبارهن وإعظامهن لذلك الجمال الرائع وقلن : حاش لله ليس هذا بشراً ، ولكنه ملك كريم .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

عند ذلك باحت امرأة العزيز بحبها وشغفها بيوسف وقالت لأولئك النسوة :

هذا هو الذي لمتني في حبي إياه ، وشغف فؤادي به ، وقائن قد شغف امرأة العزيز فتاها حباً ، ونسبتن إلى الضلال .

ثم اعترفت وأقرت لهن بأنها هي التي راودته عن نفسه ، وأن الذي تحدثن به عنها في أمره حق ، وقالت : لقد راودته عن نفسه فاستعصم وامتنع ،

فإن لم بطاوعني ويحبني إلى ما أدعوه إليه من قضاء شهوتي ليحبسن في السجن ويكون ذليلاً صغيراً .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ
وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾ .

ولما توعده بالسجن والحبس إن لم يفعل ما دعته إليه اختار السجن على معصية الله وقال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ؛ ثم دعا ربه وقال : إن لم تدفع عني يا رب فعلهن الذي يردن أن يفعلنه بي وهو مراودتهن إياي عن نفسي أخاف أن أميل إليهن وأتابهن في إغوائهن لي ، وأكون حينئذ من الجاهلين ، أي جاهلاً إذا ارتكبت معصيتك .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فاستجاب له ربه ، وصرف عنه كيدهن ، ونجاه من ارتكاب المعصية معهن ، وكان الله سميعاً لدعائه ، عليماً بمطلبه وحاجته ، وما يصلحه ، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
ولما يئست امرأة العزيز من موافقة يوسف لها شكت لزوجها وقالت له :
إن هذا الفتى قد فضحني بين الناس .

فرغماً بما رآه العزيز من الآيات الدالة على إجرام امرأته وهى قد القميص ،
وشهادة الشاهد من أهلها ، وتقطيع النسوة أيديهن ، واعترافها بأنها هى التى
راودته عن نفسه أمامهن ، بداله ولمشيريه أنه لا يخلصهم من العار الذى لحقه
ولحق زوجته ، ويكف أسنة الناس عنه وعنهما ، إلا زج يوسف فى السجن ،
ليعتقد الناس أنه ما حبس إلا لأنه آثم كاذب فى ادعاء البراءة ، وأن زوجته
العزيز بريئة مما قذفت به ، وهذا مصداق قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنْدُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

ما حصل ليوسف فى السجن ودعوته لدين الله

أدخل يوسف السجن بدون جريمة ارتكبتها ، ودخل معه السجن فتيان :
أحدهما صاحب شراب الملك ، والثانى صاحب طعامه وخبزه (قيل إن الملك
غضب على خبازه لأنه بلغه أنه يريد أن يسمه فخبسه ، وحبس صاحب شرابه
ظناً منه أنه ماله على ذلك فخبسهما مع يوسف) فسألاه عن صنعته وعمله فقال
لهما : أنا أفسر الأحلام ، وأعبر الرؤيا .

فقال أحد الغلامين لصاحبه : هلم نجرب هذا العبد العبرانى ، فأتاه صاحب
شراب الملك وأخبره : أنه رأى فى منامه أنه يعصر فى كأس الملك خمرأ ؛
وجاء الخباز وقال له : إني رأيت فوق رأسى طبقاً من الخبز والطير تأكل منه ،
وطلبا إليه أن ينيء كل واحد منهما بتأويل ما رأى فى منامه ، وقالاه :
إنا نراك المحسنين لنا إن عبرت لنا رؤيانا .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السُّجْنُ فَعَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا
وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ
بَقَاوِيلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

فاغتنم يوسف الفرصة وأخذ يفوه بشأن نفسه أمامهما ، حتى يجذب
نفوسهما نحوه ، ليمكنه دعوتهما إلى الإيمان ، وذلك هو أعظم ما يبتغيه وأخذ
يقول لهما : لا يأتكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بقاويله قبل أن يأتكما . فقالا
له : هذا فعل الكهنة والسحرة . فقال لهما : ما أنا بكاهن ولا بساحر ،
ولكن ذلك مما علمني ربى بتركى ملة الأقبام الكفار الذين لا يؤمنون بالله
واليوم الآخر ، واتباعى ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فكلنا نعبد الله
وحده لا نشرك به أحداً ، فليس لأحد أن يشرك بالله شيئاً ، وذلك كله
من فضل الله علينا وعلى الناس إذ أرسلنا إليهم دعاة إلى توحيدهِ وطاعته ،
ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم بما أنعم به عليهم من عبادته :
﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ
يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

ثم أن يوسف (عليه السلام) سأل صاحبيه (الغلامين) قائلاً لهما :
 أعبادة أرباب شتى متفرقين ، وآلهة لا تنفع ولا تضر خير ، أم عبادة المعبود
 الواحد القهار ، الذى لا ثانى له فى قدرته وسلطانه ، الذى قهر كل شىء فأذله
 وسخره ، فأطاعه طوعاً ؟

قيل : إن يوسف عليه السلام قال لهما هذا القول ، لأنه كان يعلم أن
 أحدهما مشرك فدعاه بهذا القول إلى الإسلام ، وترك عبادة الآلهة والأوثان ؛
 وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۚ ﴾

ثم قال لهما : إنكم لا تعبدون من دون الله فى الواقع إلا أسماء سميتوها
 أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من دليل ولا حجة ، ولكنها اختلاق وافتراء
 منكم ومنهم ، واعلموا أن الحكم لله الواحد القهار ، الذى أمر أن لا تعبدوا
 أنتم وجميع خلقه إلا إياه ، وذلك هو الدين القيم الذى دعوتكما إليه ، لا عوجاج
 فيه ، والحق الذى لا شك فيه ، ولكن أكثر أهل الشرك بالله يجهلون ذلك ،
 فلا يعلمون حقيقته .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ

الدِّينُ النَّيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾

وبعد أن فرغ وانتهى من دعوتهما إلى دين الله ابتداءً يفسر لهما رؤياهما لما ألخا عليه فقال : أما أحدكما فيسقى ربه (أى سيده) خمرًا ، وهو الذى رأى أنه يعصر الخمر ، أى يعود إلى منزلته التى كان عليها عند الملك ، وأراد به الساقى صاحب الشراب

وأما الآخر ، وهو الذى رأى أن على رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، فيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وأراد به صاحب الطعام

فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب ونهزل ، ونجرب علمك ، فقال لهما : قضى الأمر الذى عنده تسألان ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن يجد الفرج من السجن والخلاص مما هو فيه من الضيق على يد الذى ظن أنه ناجٍ منهما وهو الساقى فقال له : اذكرنى عند سيدك ، وأخبره بمظلمتى وأنى محبوس بغير جرم ، ولكن الشيطان أنسى الساقى ذكر ذلك فأوحى الله إلى يوسف : ألتخذت من دونى وكيلًا ؟ لأطيلن حبسك

فلبث يوسف في السجن بضع سنين ، والمشهور أنه لبث بعد ذلك سبع سنين وتحقق تأويل المنام

وجاء عن الحسن قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث (يعني قوله : اذ كرنى عند ربك) ولكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

الفرج ليوسف من السجن

لما قرب الفرج من السجن ليوسف عليه السلام رأى ملك مصر - وهو الريان ابن الوليد - رؤيا عجيبة هالته وفزع لها

وذلك : أنه رأى سبع بقرات سمان ، وسبع بقرات عجاف ، قبيحة المنظر ، خرجت من النهر فأكلت البقرات الأولى السمينية ؛ ثم استيقظ من منامه ، ثم عاد إلى رقاذه فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة في ساق واحد ، وخلفها سبع سنابل يابسات قد عدت على السنابل الخضراء فأكلتها .

فلما أصبح الضباح جمع السحرة والكهنة وكل من له علم بتعبير

الرؤيا وتفسير الأحلام وسألهم عن تأويل هذا المنام فلم يجد عند أحد منهم جواباً ، وقالوا له : هذه أخلاط أحلام كاذبة لا حقيقة لها ، وما نحن بتأويل الأحلام الكاذبة بعالمين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ . قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾

فتذكر الساقى الذى نجا من القتل ، وهو أحد الغلامين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ، ما كان نسى من أمر يوسف ، وذكر حاجته للملك التى كان قالماله عند تعبير رؤياه وهى : اذكرنى عند ربك بعد حين ، وقال : أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسله الملك إلى يوسف فى السجن ليقص عليه رؤياه

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

فلما التقى الساقى بيوسف قال له : يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات تأكل الخضر لى أظفر منك بجواب ، فأرجع إلى القوم فأخبرهم بتفسير هذه الرؤيا ليعلموها

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

فأجابه يوسف بآويل هذا قائلًا : إن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات يكثر فيها الخصب والرخاء فتجود الأرض فيها بالغللات الوفرة ، ثم يأتى بعدها سبع سنين مجدة يحصل فيها الجذب والقحط وفطر الغلاء ، فتأتى على الخبز من السنين السبع التى تقدمتها ، ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد ؛ وإن على أهل مصر أن يقتصدوا فى سنى الخصب ، ويخزنوا ما فضل من القوت فى سنابله ، حتى إذا حلَّ الجذب والقحط وجدوا فى مخازنهم ما يسد الرمق ويمسك عنهم الضيق ، حتى يأتى الله بالخصب والغيث

فوصف البقرات السمان بسنى الخصب ، والبقرات العجاف بسنى الجذب والحل ، وكذلك السنبلات الخضرة والسنبلات اليابسات

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَّوْهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

فلما عاد الساقى إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف عليه السلام من تأويل رؤياه ، ووقع في قلب الملك أن الذى قاله يوسف مناسب ومتفق مع الرؤيا أمر بإحضار يوسف وقال : انتتوني بالذى عبر هذه الرؤيا لأجعله من المقر بين إلى .

فلما جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام أبى أن يخرج معه حتى يعرف حقيقة أمره بما كانوا قذفوه به من شأن امرأة العزيز ، وأراد ألا يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة ، مرفوع الرأس ، أبيض الصحيفة ، فقال للرسول : ارجع إلى سيدك فاسأله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن فإن الله عليم بكيدهن .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف ، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز وقال لهن : ما خطبكن ؟ أى ما كان شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ فأجبته وقلن : حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، وأنكرن أن يكن سمعن شيئاً يشينه وشهدن ببراءته .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

ولما رأت امرأة العزيز أن يوسف الذى زجت به فى السجن ظلماً وعدواناً قد أكرمه الله تعالى لعصمته وطهارته حتى صار من اهتمام الملك به أن يستدعيه ليستخلصه لنفسه ، أقرت واعترفت بما اقترفته وباحت بما كتمته عن زوجها ، فقالت : الآن حصحص الحق وظهر وانكشف ، وأنا التى راودته عن نفسه فاستعصم ، وإنه صادق فى دعواه .

﴿ قَالَتْ أُمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

فلما سمع يوسف هذا الاعتراف منها قال : ليعلم الملك أننى لم أخن سيدى فى زوجته بالغيب (أى لم ارتكب فعل الفاحشة فى حال غيبته عني) وأن الله لا يسدد كيد الخائنين ، وإنى ما فعلت ذلك تزكياً لنفسى وعجباً بها ، فإن النفس لأماراة بالسوء ، إلا النفوس التى يرحمها الله فيعصمها من ارتكاب المعصية .

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يوسف بحضرة الملك

لما تبين للملك طهارة يوسف عليه السلام ، وعرف أمانته وبراءته وكفايته وعلمه وعقله قال : انتوني به أستخلصه لنفسي (أى أجهله من خلصائى دون غيره) وحينئذ رأى يوسف أن ليس هناك مانعاً من الخروج ، فخرج مرفوع الرأس ، طاهر الذيل ، وجاء إلى الملك وكلّمه فسرّ الملك من كلامه ، وأعجبه عقله وحسن تعبيره للرؤيا ، وقال له : إنك لدينا ذو مكانة ، ومؤمن على كل شىء .

﴿ وَقَالَ أَمَلِكُ أُنْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

ثم سأله عن أى عمل يرضاه لنفسه ، ويكون فيه سروره ؟ فقال يوسف : اجعلنى على خزان الأرض ، فإنى حفيظ وأمين على ما يخرج منها من الغلات والخيرات ، عليم بوجوه تصرفها .
﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ومن فضل الله على يوسف ورحمته أنه مكّن له فى الأرض مكاناً علياً (وهى أرض مصر) يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الحبس والضيق ، كما أن الله يصيب برحمته من يشاء من خلقه ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فأطاع ربه ، وعمل بما أمره به ، وانتهى عما نهاه عنه ، وأن ثواب الله فى الآخرة

خير للذين صدقوا الله ورسوله مما أعطى الله يوسف في الدنيا من تمكينه له في أرض مصر وكانوا يتقون الله ويخافون عقابه .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْأَلَاءُ خِرَّةٍ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

زواج يوسف عليه السلام بامرأة العزيز

جاء في كتاب تاريخ الكامل لابن الأثير : أن الرّيان ملك مصر زوّج يوسف (راعيل أو زليخا) امرأة سيده العزيز (التي كانت مشغوفة بحبه) فلما دخل بها قال لها : أليس هذا خير مما كنت تريدين ؟

فقالت : أيها الصديق ، لا تلهني فإني كنت امرأة حسناء ، جميلة في ملك ودينا ، وكان صاحبي لا يعيل إلى النساء ، وكنت كلما أنظر في صورتك وحسن هيئتك ، تغلبني نفسي (الأمارة بالسوء) .

فلما بنى بها يوسف وجدها بكرًا عذراء ، ورزق منها بولدين : (افرام ومنسا) وقد باركهما جدّهما عليه السلام ودعا لهما ، وجعلهما صاحبي نصيبين كأولاده الصليبيين في الأرض المقدسة التي يملكها بنو إسرائيل وهي أرض فلسطين .

إخوة يوسف يتجرون (يمتارون)

لما اطمأن يوسف عليه السلام في ملكه ، وخرج من البلاء الذي كان فيه ، وخلت السنون الخصبية التي كان أمرهم بالاقتصاد فيها للسنين المجدة التي أخبرهم بها أنها حاصلة ، جهد الناس في كل وجه وخرجوا إلى أرض مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلد . وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد ساوى بينهم ، وكان لا يحمل للرجل إلا بغيراً واحداً ، ولا يحمل للرجل الواحد بميرين ، عدلاً بين الناس وتوسيعاً عليهم ، فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، ففرحهم وهم له منكرون ، لما أراد الله أن يبلغ يوسف عليه السلام ما أراد ، فلما نظر إليهم قال : أخبروني ما أمركم فإني أنكر شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أرض الشام . قال : فما الذي جاء بكم إلى هنا ؟ قالوا : جئنا نمتار طعاماً . قال : كذبتُم ، أنتم جواسيس (عيون) كم أنتم ؟ قالوا : عشرة . قال : أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم أمير ألف فأخبروني خبركم ؟

قالوا : إنا إخوة بنو رجل صديق ، وإنا كنا اثني عشر ، وكان أبونا يحب أحاً لنا ، وأنه ذهب معنا إلى البرية فهلك منا فيها ، وكان أخنا من أبنائنا

قال : فإلى مَنْ سَكَنَ أبوكم بعده ؟ قالوا : إلى أَخٍ لَنَا أَصْغَرَ مِنْهُ .
 قال : فكيف تَجْهَرُونَنِي أَنْ أَبَاكُمْ صَدِيقٌ ، وَهُوَ يَحِبُّ الصَّغِيرَ مِنْكُمْ دُونَ
 الْكَبِيرِ ؟ ائْتُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
 لَكُمْ عِنْدِي ، وَلَا تَقْرَبُوا بِلَادِي . قالوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .
 ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : ضَعُوا أَحَدَكُمْ رَهِينَةً حَتَّى تَرْجِعُوا ، فَوَضَعُوا (شَمْعُونَ) .
 وَلَمَّا حَمَلَ يُوسُفُ لِأَخُوتهِ جَاهِلَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ أَوْفَرَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بَعِيرَهُ
 وَقَالَ لَهُمْ : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْبَتِكُمْ لِأَحْمِلَ لَكُمْ بَعِيرًا آخَرَ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي
 أَوْفَى الْكَيْلِ لَكُمْ وَلَا أَجْنَسُهُ ؟

وَأَنَا خَيْرٌ مِنْ أَنْزِلَ ضَيْفًا عَلَى نَفْسِهِ

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ
 وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْبَتِكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
 أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
 كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ . قَالُوا سَتَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا
 لَفَاعِلُونَ ﴾

وقال لغلماناه : اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها ثمنًا للطعام في أوعيتهم فأنهم

يعودون بها إلينا لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم

﴿ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا
أُنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

إخوة يوسف عند أبيهم وطلبهم أخاهم (بنيامين)

فلما رجع إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم بجمالهم قالوا له : يا أبانا إن
عزيز مصر قد أكرمنا إكراماً زائداً ، وإنه ارتهن (شمعون) وقال اتقوني
بأخيكم الصغير الذي عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك ، فإن لم تأتوني به
فلا كيل لكم عندي ، ولا تقر بوا بلادي ، فأرسل معنا أخانا (بنيامين)
يكتل لنفسه كيل بعير آخر ، زيادةً على كيل أباعرنا ، وإن الحافظون له من أن
يناله مكروه في سفره .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعْ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

فقال لهم أبوهم يعقوب : هل آمنكم على أخيكم من أبيكم الذي تسألوني
أن أرسله معكم إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل ؟ قاله الله أرحم راحم
بخلقه ، يرحم ضعفي على كبر سني ووحدي بفقد ولدي ، فلا يضيعه ، ويحفظه
حتى يرده عليّ لرحمته بي ، فهو خير الحافظين .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ولما فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم (أى فضتهم) التى كانوا دفعوها ليموسف فى مقابل ما أخذوه من الطعام كما هى لم تمس ، فقالوا لأبيهم : يا أبانا ما نبغى ؟ (أى ماذا نريد بعد هذا ؟) هذه بضاعتنا ردت إلينا فإذا سمحت بأخيها (بنيامين) ليذهب معنا فإننا نغير (أى نشتري طعاماً لأهلنا) ونحفظ أخانا ، ونزدد على أحمالنا من الطعام حمل بغير يُسكال لنا ، وهذا شئ يسير عند الملك الذى طلب أخانا .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ .

فقال يعقوب لبنيه : أن أرسل أخاكم معكم إلى ملك مصر حتى أعطونى ميثاقاً وعهداً من الله بأنكم تأتوننى بأخيك إذا لم يصبكم أمر يذهب بكم جميعاً فيكون ذلك عذراً لكم عندى .

فلما أعطوه عهدهم على الوفاء بما اشترطه عليهم قال يعقوب : إن الله على ما نقول (أنا وأنتم) وكيل (أى شهيد علينا بالوفاء) .

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَمَّا تُنْزِلُنِي بِهِ ﴾ .

إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

فلما أرادوا الخروج من عند أبيهم إلى مصر ليمتاروا الطعام أوصاهم - بعد أن أذن لأخيهم في الرحيل معهم - وقال لهم : يا بني لا تدخلوا من باب واحد وأدخلوا من أبواب متفرقة ، وكانوا ذوى جمال وأبهة فخاف عليهم الحسد من أعين الناس لهيتهم ، ولأهم أبناء رجل واحد ، ثم قال لهم : لا أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذي قد يكون قدره عليكم من شيء صغير ولا كبير ، لأن القضاء والحكم لله دون سواه .

فلا راد لقضائه ، ولا دافع لقدره ، فعليه توكلت ، ووثقت به في حفظكم حتى يردكم إلى سالمين ، وعليه فليمتوكل المتوكلون .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

رجوعهم إلى مصر ومعهم بنيامين ودخولهم على يوسف

فدخلوا مصر كما أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ، وما كان ذلك ليمنع عنهم قضاء الله فيهم ، إنما هي حاجة في نفس يعقوب قضاها ، أي أنهم قضوا وطراً ليعقوب ، وأنه لذو علم لما علمه الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه (أى ضم إليه أخاه لأبيه وأمه) لأنه عرفه ، وأنزلهم منزلاً رحباً ؛ وأجرى عليهم الطعام والشراب وأكرم ضيافتهم ، وقال لأخيه : أنا أخوك فلا تحزن على ما كانوا يعملونه فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا ، ولا تعلمهم شيئاً مما قلته لك .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

حيلة يوسف في إبقاء أخيه (بنيامين) عنده

ولما حمل يوسف إبل إخوته ما حملها من الميرة وقضى حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل السقاية (الإناء الذى يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام) فى رحل أخيه (أى فى متاع أخيه) وهو لا يشعر ، فلما ارتحلوا مسافة قصيرة نادى مناد قائلاً : أيتها العير (أى القافلة التى فيها الأحمال) إنكم لسارقون قفوا ، وانتهى إليهم رسول يوسف ووكيله وأخذ يوبخهم ويقول لهم : ألم نكرم ضيافتكم ونوفكم كيلكم ونحسن منزلتكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم وأدخلناكم علينا فى بيوتنا وأنتم تسرقون ؟

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

قال إخوة يوسف : ما الذى تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك (الإناء الذى يشرب فيه) فمن جاء به له حمل بعير من الطعام ، وأنا الكفيل بالوفاء إليه

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

فقال إخوة يوسف : والله ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما نحن بسارقين

﴿ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾
وقال أصحاب يوسف لإخوته : ما جزاء من توجد فى متاعه سقاية الملك إن كنتم كاذبين ؟

قالوا : جزاء من توجد فى رحله سقاية الملك أن يؤخذ عبداً له فكذلك جزاء الظالمين

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْهُ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

ففتش الرسول أوعيتهم ورحلهم قبل وعاء أخيه (بنيامين) مبتدئاً بالكبير
ومنتهياً بالصغير ، فوجد السقاية في وعاء أخيه فاستخرجها منه ، فأخذ برقبته
وانصرف به إلى يوسف

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ
أَخِيهِ ﴾

ويقول الله تعالى ذكره : كذلك علمنا يوسف هذا التدبير الذي به
حصل على أخيه ، وما كان ليستطيع أن يأخذه على مقتضى شريعة ملك مصر
لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك وقضائه أن يسترق أحداً بالسرقة ، فلم يكن
ليوسف أخذ أخيه إلا أن يشاء الله بكيمده الذي كاده له ، حتى طابت أنفس
إخوته بحكمهم عليه بالتسليم

وقد رفع الله يوسف فوق درجة إخوته (وفوق كل عالم من هو
أعلم منه) ويعنى بذلك أن يوسف أعلم إخوته ، وأن فوق يوسف من هو
أعلم منه ، حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

فقالوا - وقد ملثوا غيظاً على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة تأنيباً له :

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

ويقصدون بذلك السرقة التي نسبوها ليوسف وهى : أنه رأى صنماً فى بيت بعض أقاربه من جهة أمه ، فأخذه وكسره وأتلفه ، واعتبروا ذلك سرقةً جهلاً بحقيقتها :

فأخفى يوسف هذه التهمة فى نفسه ولم يجاهرهم بها ، وقال فى نفسه أيضاً : أنتم شر منزلة إذ سرقتمونى من أبى ، والله أعلم بمبلغ صدقكم فيما تقولون
﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

ولما أراد يوسف عليه السلام أن يحبس أخاه (بنيامين) عنده ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه ، سألوه أن يطلقه ويعطوه واحداً منهم مكانه بدلاً منه ، وقالوا ليوسف : يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً متعلقاً به ، كلفاً بحبه ، فخذ أحداً منا بدلاً من (بنيامين) وأخل سبيله ، إنا نراك من المحسنين لنا إن فعلت ذلك

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

فقال يوسف لإخوته : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده

فَإِذَا أَخَذْنَا غَيْرَهُ نَسْكَونَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ .

وقال لهم : إذا أتيتم أباكم فأقرئوه السلام ، وقولوا له : إن ملك مصر
يدعوك أن تعيش حتى ترى ابنك (يوسف)

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا
لظَّالِمُونَ ﴾

فلما يئس إخوة (يوسف) من أخذ أخيه بطريق المبادلة ، وأن يحبسهم
إلى ما سأله ، خلا بعضهم ببعض يتفاوضون ويتشاورون ، ثم قالوا : ماذا
ترون ؟ قال كبيرهم في العقل والعلم ، لا في السن ، وهو (روبيل) إن أباكم
قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتأثنه به إلا أن يحاط بكم ، ومن قبل فعلتم
هذه الفعلة بتفريطكم في (يوسف) فلن أبرح الأرض التي أنا بها (وهي
مصر) ولا أفارقها حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين
(أى خير من حكم وعدل بين الناس)

﴿ فَلَمَّا اسْتَمْتَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي
يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ثم أشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم ، وإخباره بما كان من سرقة أخيه
(بنيامين) لصواع الملك ، وأنهم ما شهدوا عليه بالسرقه إلا بما علموا عن
مشاهدة ، إذ وجدوا الصواع في أمتعته ، ولم يكن لهم علم بما هو كائن لهم
في الغيب

﴿ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا
بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

وقولوا له : إن كنت مُتَّهِماً لنا ، لا تصدقنا على ما نقول من أن ابنك
سرق ، فاسأل القرية التي كنا فيها (وهي مصر) والقافلة التي أقبلنا فيها عن
خبر ابنك ، وحقيقة ما أخبرناك عنه من سرقة ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك
﴿ وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴾

رجوع إخوة (يوسف) إلى أبيهم بعد حبس (بنيامين)

فرجع إخوة (يوسف) إلى أبيهم وتخلف (روبيل) فأخبروه خبر
(بنيامين) على حقيقته فلم يدخل عليه هذا القول ولم يصدقهم ، وقال لهم
يعقوب عليه السلام : بل زينت لكم أنفسكم أمراً همتم به وأردتموه فصبري
على ما نالني من فقد ولدي صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية عسى الله أن

يَا تَبْنِي بِأَوْلَادِي جَمِيعًا (وهم يوسف وبنيامين ورو بيل وغيرهم) فيردهم إلى ،
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بَوَحْدَتِي ، وَبِقُدْرَتِهِمْ وَحَزْنِي عَلَيْهِمْ

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

ثم أعرض يعقوب عنهم وقال : يا حزنًا على يوسف ! إن الأسف عليه
لشديد ، وأخذ يبكي بكاءً حارًّا حتى ابيضَّت عيناه من الحزن وضعف بصره
من شدة البكاء والحزن ، وهو كاظم غيظه لا يتكلم

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ
فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

فلما رأى ذلك أولاده قالوا له : لا تزال تذكر يوسف ، ولا تفتر عن
حبه حتى تكون حرضًا (أي تكون مريضًا مشرفًا على الهلاك ، ويذيبك
الحزن عليه) أو تكون من الهالكين

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْ تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

فلما رأى يعقوب غلظتهم وجفوتهم وسوء لفظهم قال : لست أشكو
إليكم هي وحزني ، وإنما أشكو ذلك إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون
ثم قال لهم : يا بني اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه ، وخلفتم إخوتكم به

وتَحَسَّسُوا وَاتَّمَسُوا يَوْسُفَ ، وَتَعَرَّفُوا مِنْ خَبْرِهِ وَأَخِيهِ (بنيامين) وَلَا تَقْطَنُوا
مِنْ أَنَّ اللَّهَ يَذْهَبُ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ عَلَى يَوْسُفَ ، وَالنَّعْمَ عَلَى أَخِيهِ
بِفَرَجٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ (أى لا يقنط من فرجه ورحمته
ويقطع رجاءه منه) إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ، الَّذِينَ يَجْحَدُونَ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ ،
فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ
لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

تعرف يوسف بإخوته ، وعطفه عليهم ، واعترفهم بذنبهم

جاء إخوة يوسف إلى مصر كما أمرهم أبوهم ، وقصصوا يوسف في مقر
ملكه ، فلما دخلوا عليه قالوا : (يا أيها العزيز) - رجاء أن يرحمهم في شأن
أخيهم - (مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة من الجذب والقحط (وجئنا ببضاعة
مزجاة) أى قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به إلا أن يتجاوز لهم فيها (فأوف
لنا السكيل) أى أعطنا بها ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد والدرهم الجائزة
الوافية التى لا ترد (وتصدق علينا) أى لا تنقصنا من سعر طعامك لرداءة

بضاعتنا (إن الله يجزي المتصدقين) إن الله يثيب المتفضلين على أهل الحاجة بأموالهم .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فلما سمع يوسف من إخوته هذا الكلام رق قلبه وَحَنَّتْ عواطفه عليهم ، وباح لهم بما كان يكتُمهم من شأنه ، وقال لهم : هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما ، وصنعتم ما صنعتن ، وأنتم جاهلون بعاقبة ما تفعلون بيوسف ، وما إليه صائر أمره وأمركم ؟

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

فعند ذلك ذهبت سكرتهم ، وتيقظوا وعرفوا الحقيقة ، وقالوا : إنك لأنت (يوسف) فقال : نعم (أنا يوسف) وهذا أخى قد منَّ الله علينا بأن جمعنا بعد ما فرقتم بيننا .

فأكبر قول يوسف لهؤلاء الإخوة تحدياً بنعمة الله ، وما أعظم نصحه لهم بقوله : إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، أى إن الله لا يبطل ثواب إحسانه وجزاء طاعته إياه وصره على بلواه .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقُ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠﴾
عند ذلك لم يسعهم إلا الخضوع والامتثال ، والاعتراف له بأنه قد انتصر
عليهم انتصاراً باهراً ، وارتفع قدره ، ولذلك قالوا : تالله لقد فضلك الله علينا
بما أعطاك وحبأك ، وآترك علينا بالعلم والحلم والفضل ، وما كنا في فعلنا الذي
فعلناه بك وبأخيك إلا خاطئين .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .
فقال لهم : لا لوم عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، عفا الله عنكم وغفر
لكم ذنوبكم ، فهو أرحم الراحمين بمن تاب من ذنبه ، وأناب إلى طاعته
بالتوبة من معصيته .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴾ .

سؤال يوسف عن أبيه وتوقع الفرج بلقائه

ثم سألهم يوسف عن حال أبيه من بعده فقالوا له : قد هزل جسمه
وضعف بصره من شدة البكاء والحزن ؛ فأعطاهم قميصه وقال لهم :
اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يرتد بصيراً ، وجيئوني بأهلكم
جميعاً .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فلما خرجت القافلة ، وانفصلت عن أرض مصر ، متوجهة إلى (كنعان) وكانت نفس يعقوب مطمئنة ، ولم يتسرب إليها اليأس ، وكان يتوقع الفرج بقاء ابنه يوسف بعد طول بعباده وحزنه عليه ، هبت ريح ، فذهبت بريح قميص يوسف إلى يعقوب ، فقال لمن حوله من جماعته : إني لأشم ريح يوسف ، ولولا خوفي من أنكم تكذبوني وتسفهوني وتنسبوني إلى ضعف العقل لأخبرتكم بأنى أتوقع الفرج بقاءه ، وأنه قريب منا .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ نَقْفُدُونَ ﴾ .

فقال له أولاده : أيها الرجل ، تالله إنك من حب يوسف وذكره لفي خطئك القديم ، بعيد عن الصواب في اعتقادك أن يوسف باقٍ إلى اليوم .
﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

البشارة بقرب اجتماع يوسف بأبيه

ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب من عند ابنه (يوسف) وهو المبشر برسالة يوسف وقيل : هو (يهودا) فألقى القميص على وجهه فعاد

مبصراً بعينيه ، بعد ما كان قد أصيب بضعف البصر ، فقال لهم عند ذلك :
 ألم أقول لكم إني أعلم من الله أنه سيرد عليّ يوسف ويجمع بيني وبينه ،
 وأنتم لا تعلمون من ذلك ما كنت أعلمه ، لأن رؤيا يوسف كانت صادقة ؟
 ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
 لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فقالوا له : يا أبانا اطلب لنا من ربك أن يعفو عنا ، ويغفر لنا ذنوبنا التي
 أذنبناها في حقك وحق يوسف ، فلا يعاقبنا بها يوم القيامة ، إننا كنا في خطأ
 عظيم فيما فعلناه ، وقد اعترفنا بذنوبنا .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ .

فقال يعقوب لهم : سوف أستغفر لكم ربّي ، إنه هو الذي يغفر الذنوب
 جميعاً ، ويتوب على من تاب ، لأنه رحيم بالعباد .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

لقاء يوسف لأبيه وإخوته وتفسير رؤياه

استعد يعقوب عليه السلام هو وأولاده وجميع آله فسافروا إلى مصر :
 فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف فأوى إليه أبويه (أي يعقوب وزوجه

خالة يوسف) لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير ؛ وقابلهم جميعاً بالاحترام
الجزيل ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين مما كنتم فيه من
الجدب والقحط .

ورفع أبويه على العرش (أى على السرير فى أعلى مكان من مجلسه)
فخروا له بسجداً (أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر) سجدود تحية
لا سجدود عبادة .

وكانت تحيتهم بالانحناء حسب عادة قدماء المصريين فى ذلك الزمن وأخذ
يحدثهم بتاريخ حياته منذ فارقهم .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ
شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۝ ﴾ .

ثم قال لأبيه : يَأْتِ هَذَا تَأْوِيلَ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ (أى أن السجود
الذى سجدته أنت وأمى وإخوتى لى هو تأويل الرؤيا التى كنت رأيتها من
قبل) وهى رؤية الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر لى ساجدين ، قد حققها
ربى بسجودكم جميعاً .

(وقيل إن المدة التى كانت بين رؤيا يوسف عليه السلام وبين تأويلها
أربعون سنة) .

ثم قال : قد أحسن بي ربى إذ أخرجني من السجن ، وجاء بك من
البادية من بعد ما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي ، وهذا كله من لطف
الله بي وبكم ، إن ربى لطيف التدبير لما يشاء ، عليم بوجوه المصالح ، حكيم
يفعل كل شيء على أقصى وجوه الأحكام

﴿ وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا
وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ
أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

شكر يوسف لربه على ما أنعم به عليه

ثم إن يوسف عليه السلام بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ، وبسط
عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكنه في الأرض ، أخذ يشكر الله
تعالى معلناً نعمته عليه ، وما منحه من ملك وعلم قائلاً : يارب قد آتيتني
من ملك مصر ، وعلمتني تأويل الرؤيا ، يا فاطر السموات والأرض (أى
ياخالقها وبارئها) أنت ولي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء
بنصرك ، وتغذوني فيها بنعمتك ، وترحمني في الآخرة بفضلك ورحمتك ،

اقبضني إليك مسلماً ، وأنا مُسَلَّمٌ لك أمري ، وألحقني بالصلحين من آبائي
إبراهيم وإسحق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسَلِّمًا
وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

ثم توفاه الله تعالى ، وكان عمره وقتئذ عشرين ومائة سنة ، وقد أوصى قبل
وفاته أن يحمل من مصر ويدفن عند آبائه ، فحمله موسى لما خرج ببني إسرائيل
إلى الشام ودفنه بالقرب من (نابلس) وقيل : عند الخليل إبراهيم عليه
السلام ، والله تعالى أعلم

العبرة من قصة يوسف عليه السلام

إن من يقرأ سورة يوسف عليه السلام ، وقصته هذه بامعان الفكر ،
وتحكيم العقل ، وثاقب النظر ، يرى أنها عبرة العبر ، وعظة العظات ،
لأنها مورد غزير المائدة ، لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة
الطاهرة ، ويشرح الاستقامة ، وعفة النفس ، والصدق والأمانة ،
والشفقة ، والرحمة

هذا يوسف عليه السلام قد تغذى بلبان النبوة ، وتعهده أبوه بالأخلاق
الكريمة ، فنشأ نشأةً صالحةً ، وأحسَّ من صغره بمجد آبائه وأجداده ،
فسار على منهمجهم ، وتمسك بأدابهم وأخلاقهم ، فأنعم الله عليه بالعلم والحكمة ،
والعصمة من الوقوع في الدنيا والزايا .

لقد برهن عليه السلام على أنه ذو نفس كريمة أئيسة ، وروح طاهرة
وعزيمة قوية ، وأنه حقيقةً من أولى العصمة المؤمنين حقاً

لقد اعتمد على مولاه عند كل ضائقة فنجاه ، والتجأ إليه عند كل
مُلمة فأكرم مشواه ، كادله إخوته فأغرقوه والله أنقذه وأعلاه ، كادت له
أمرأة العزيز واتهمته بالخيانة ؛ ولكن الله أظهر براءته ، وتوعدته بالسجن
ووافقها زوجها تستراً على عرضه فسجن ؛ ولكن الله نصره ورفع شأنه

وكان عليه السلام في السجن داعياً إلى الله بأذنه ، معلناً أن دينه دين التوحيد ، هو الدين القيم ، وأخذ يحث الناس على عبادة الله فقام بالرسالة عليه السلام خير قيام

كان محافظاً على شرفه ، وكان عنده إباء وشم ، فلم يشأ أن يقال عنه : مجرم ، وأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن يثبت أنه بريء الساحة نقي الصحيفة ، فأرسل إلى الملك يبسط ظلامته ، ويطلب إليه إعادة التحقيق فيما نسب إليه ، فلما أجرى الملك التحقيق على وجهه الحقيقي وظهرت براءته رضی بالخروج مرفوع الرأس ، موفور الكرامة

كان يوسف عليه السلام ، متعلّياً بفضيلة الصبر ، وضرب للناس المثل الأعلى فيها ، فصبر على إيذاء إخوته له ، وتجريدهم إياه من ثوبه ، ولطمه ولكزه ، وإلقائه في الحبّ بقصد إهلاكه ، صبر على استرقاقه وبيعه يبيع الرقيق في بلاد غير بلاده ، وفي قوم يخالفونه لغةً وديناً وخلقاً ، بل صبر على أكثر من ذلك ، حيث اعتبروه شريراً خائناً ، إذ باعوه ملتهطوه بأجنس الأثمان . وشكر على نعمة الله حيث جعله أميناً على خزائن الملك ، فلم يسيء استعمال المال بصرفه على الشهوات ، بل شكر الله ولسيده ؛ وصبر عن شهوة الفرج ، وقد تهيأت له الأسباب المغرية عليها ، الدافعة إليها ، فاستعصم ، وجزع حتى سلم منها ، متوجّهاً بتاج العفة والصبر عن الشهوات ، وقاوم نفسه وقهرها لتمسكه بالدين ، وكرم النفس ، والوفاء ، وعدم خيانة الأمانة

كان عليه السلام عفواً حليماً ، لأنه عفا عن إخوته حينما أظهروا ندمهم
واعترفوا بذنبهم ، وطلب إليهم الغفران من ربه

كان عليه السلام متحلياً بفضيلة الشكر متحدثاً بنعم الله تعالى عليه
فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش ، وخرَّ له أبواه وإخوته سجداً سجود
تحية فقال : يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل (وهى رؤيتى أحد عشر كوكباً
والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وقد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى
إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البادية بعد أن نزع الشيطان بينى وبين
إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم

كل هذا الاعتراف منه بشكر الله على نعمه عليه

والخلاصة : أن هذه القصة الجميلة الجليلة عبرة لأولى الألباب ، وعظة
بالغة وهدى ورحمة لكل عبد أواب ، ولقد سماها الله (أحسن القصص)
وقال فى ختامها :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

١٢ - قصة أيوب (عليه السلام)

أيوب عليه السلام هو نبي من الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم ؛
وقد ذكر المؤرخون أنه رجل من ولد (عيص بن إسحق بن إبراهيم)
وجاء في الحديث عن وهب : أنه كان رجلاً من الروم قد اصطفاه الله
ونبأه وابتلاه في الغنى بكثرة المال والولد ، وبسط له في الدنيا فوسع عليه في
الرزق ، وكانت له أراض واسعة في الشام

وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحجر
مالاً لا يكون لرجل أفضل منه في العدة والكثرة ، وقد أعطاه الله أهلاً وولداً
من رجال ونساء

وكان برّاً تقيّاً رحيماً بالمساكين ، يطعم الفقراء ، ويعين الأرمال ،
ويكفل الأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكراً
لأنعم الله ، مؤدياً لحق الله في الغنى ؛ ولكن مع هذا كله قد ابتلاه الله
بفقد ماله ، وهلاك أولاده ، فصبر على ذلك الصبر الجميل ، ولم ينقطع
عن عبادة ربه وشكره ، ولذا لقب بالصديق ، وضرب به المثل في
الصبر ، وفوق ذلك قد ابتلاه الله في جسمه ببلاء عظيم بين الجلد
والعظم ، حتى ابتعد عنه الأهل والصديق ، ولم يبق له مال ولا ولد

ولا رفيق ، ولا أحد يقرب منه غير زوجته (رحمة بنت أفرايم أو منس بن يوسف وقيل : أليا بنت يعقوب) فإنها صبرت معه بصدق وإخلاص وقامت بخدمته ، فكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله معه وأيوب لا يفتر عن ذكر الله والحمد والثناء عليه ، والصبر على ما ابتلاه ، ولم يزد هذا البلاء إلا رغبةً وحباً في الله لصدق يقينه وإيمانه .

وقد لزمه المرض سبع سنين وهو لم يضجر ، ولم يغفل عن ذكر الله فعند ذلك نادى ربه وشكا إليه ما نزل به من الضيق ، وسأله الرحمة ، وذلك قوله تعالى :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
الأنبياء

فاستجاب الله دعاءه ، وكشف عنه ضره ، وأعاد له ضعف ما كان ذهب من ماله وولده ، وقد جعل الله ذلك اختباراً له ، وعبرةً لأهل البلاء ، وعزاءً للصابرين ، وتذكيراً للعابدين ، وليعلموا أن الله قد يتلى أوليائه ومن أحب من عباده في الدنيا ، بضروب من البلاء في نفسه وماله وأهله من غير هوان به ؛ ولكن اختباراً من الله له ليلبغ بصبره ، وحسن يقينه ، وإيمانه ، منزلته التي أعدها له الله تبارك وتعالى من الكرامة عنده في الدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ الأنبياء .

ولما استغاث أيوب من الشيطان الذي مسّه بالبلاء في جسده وعذبه وأحزنه بذهاب ماله وولده ، نادى ربه فاستجاب له وقال : اركض برجلك (أى حركها وارفعها) فلما ركض برجله نبتت عين ماء فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء ، وشرب منها فكان له فيها تمام الشفاء .

ووهبه الله ما فقدّه من أهله ومثله معه ، رحمةً من الله به ، وعبرة لآولى الألباب ليعتبروا ويتعظوا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ص

وقيل : قد حصل خلاف بين أيوب عليه السلام وزوجته فتكلمت بكلام أغضبته وكدره ، خلف إذا شفى وبرئ من مرضه ليضربها مائة جلدة ، ولما أراد أن يبرئ يمينه أمره الله أن يأخذ مائة عود من أصول السنبل ويجمعها حزمة واحدة ، ويضرب بها زوجته ضربة واحدة فلا يحث في يمينه .

ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمةً به وبها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وهى رخصة فى الحدود أكرمها الله بها وحده .

وقد أوحى الله إليه بذلك لما يعلمه عنه من الصبر على تحمل البلاء وعدم الخروج عن طاعة الله ، ولذا قال عنه : « نعم العبد إنه أواب » (أى مقبل على طاعتي) .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص .

وصار أيوب بعد ذلك فى أرغد عيش إلى أن توفاه الله .

وقيل إن عمره كان ٩٣ ثلاثاً وتسعين سنة .

وخلف أيوب ولداً اسمه (بشر) نبأه الله من بعده ، وكنّاه (ذا الكفل) وسيأتى الكلام على قصته .

١٣ - قصة ذى الكفل (عليه السلام)

ذو الكفل (عليه السلام) هو ابن سيدنا أيوب عليه السلام ، واسمه في الأصل بشرى ، وقد بعثه الله نبياً بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل كما تقدم .

وجاء ذكره في القرآن في سورة الأنبياء ، في قوله تعالى :

﴿وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء .

وجاء في تفسير الطبرى عند ذكر هذه الآية ما يأتى :

يعنى الله تعالى ذكره بإسماعيل (إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد) وإدريس (أخنوخ) وبذى الكفل (رجلاً من بعض الناس ، إما نبى ، وإما ملك من صالحى الملوك ، تكفل بعمل من الأعمال ، فقام به من بعده ، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به ، وجعله من الممدودين فى عباده مع من حمد صبره على طاعة الله وأدخله فى رحمته معهم) .

وجاء فى الأخبار والأحاديث عنه ، أن نبياً من الأنبياء قال :

مَنْ يَتَكْفَلْ لِي أَنْ يَصُومَ النَّهَارَ ، وَيَقُومَ اللَّيْلَ ، وَلَا يَغْضَبَ ؟ فقام شاب فقال : أنا . فقال : اجلس ، ثم عاد فقال : مَنْ يَتَكْفَلْ لِي أَنْ يَقُومَ اللَّيْلَ وَيَصُومَ النَّهَارَ وَلَا يَغْضَبَ ؟ فقام ذلك الشاب فقال : أنا : فقال : اجلس

ثم عاد فقال : مَنْ يتكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟
فقام ذلك الشاب ، فقال : أنا . فقال : تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب .
فمات ذلك النبي ، فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس
ولا يغضب

فجاء الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم ، يريد أن يقيـل
(أى ينام بعد الظهر) فضرب الباب ضرباً شديداً فقال : من هذا ؟
فقال : رجل له حاجة ، فأرسل معه رجلاً فقال : لا أرضى بهذا الرجل ،
فأرسل معه آخر ، فقال لا أرضى بهذا ، فخرج إليه وأخذ بيده وانطلق معه
حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب فسمى (ذا الكفل)
وجاء فى كتاب أخبار الدول ، وأثار الأول للقرمانى ، فى ذكر ذى الكفل
عليه السلام : ما يأتى :

اسمه بَشْرُ بن أيوب عليه السلام ، بعثه الله تعالى بعد أبيه رسولا إلى
أرض الروم فأمنوا به وصدقوه

ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا : يا بشر
إنا قوم نحب الحياة ونكره المات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله ورسوله ،
فلو سألت الله تعالى أن يطيل أعمارنا ، ولا يميننا إلا إذا شئنا لنعبد ونجاهد
أعداءه ، فقال بَشْرُ بن أيوب : لقد سألتونى أمراً عظيماً ، وكلفتمونى شططاً
جسيماً ، ثم قام وصلى ودعاه به وقال :

« إلهي أمرتني تبليغ الرسالة فبلغتها ؛ وأمرتني أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أني لا أملك إلا نفسي ، وإن قومي قد سألوني فيما أنت أعلم به مني ، فلا تؤاخذني بحريرة غيري »

فأوحى الله تعالى إليه : يا بشرُ إني سمعت مقالة قومك ، وإني قد أعطيتهم ما سألوني ، وطوّلت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلاً لهم بذلك ، فبلغهم بشرُ رسالة الله تعالى وأخبرهم بما أوحى إليه ، وتكفل لهم كما أمره الله تعالى ، ولذا سمي (ذا الكفل)

ثم إنهم توالدوا وتناسلوا وكثروا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنقصت عليهم معيشتهم ، وتأذوا بكثرتهم ، فسألوا بشرًا أن يدعوا الله تعالى أن يردهم إلى آجالهم ، فردهم إلى أعمارهم فماتوا . ولذلك كثرت الروم حتى يقال : إن الدنيا درهم خمسة أسداسها الروم ، وسُموا رومًا لأنهم نسبوا إلى جدّهم (روم ابن العيص بن إسحق)

وكان بشرٌ مقيمًا بالشام حتى مات وكان عمره ٧٥ خمسًا وسبعين سنة وقبره في قرية (كفل حارس) من أعمال (نابلس)

١٤ - قصة شعيب (عليه السلام)

قيل : إن شعيباً من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقيل : إنه لم يكن من ولد إبراهيم ، إنما هو من ولد بعض من آمن بإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى الشام ؛ ولكنه ابن بنت لوط .

وقد أرسله الله سبحانه وتعالى إلى أهل مدين ، وكانوا أهل كفر بالله ، وسوء معاملة للناس ، يبخسون الناس أشياءهم في المكايل والموازين ويفسدون أموالهم ، وكان الله قد وسع عليهم في الرزق ، وبسط لهم في العيش ، استدراجاً لهم منه مع كفرهم به ، فقال لهم شعيب : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فهو الذي خلقكم ، ويده نفعكم وضرركم ، ولقد جاءكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول ، وبصدق ما أدعوكم إليه ، فلا تنقصوا الكيل والميزان ، ولا تظلموا الناس حقوقهم ، ولا تفسدوا في الأرض (لا تعملوا في أرض الله بالمعصية) بعد أن قد أصلحها لكم ببعث الأنبياء فيكم ليأمروكم بالمعروف ، وينهوكم عن المنكر ، فإن ذلك خير لكم في دنياكم وأخراكم إن كنتم مؤمنين بقولي :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ كُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٠﴾ الأعراف .

وكانوا من قطاع الطريق على من يريد الإيمان ، يجلسون في الطريق يخوِّفون الناس ، ويخبرونهم أن شعيباً كذاب ، فيصدون الناس عن الإيمان به . فنهاهم شعيب عن ذلك وقال لهم : لا تقعّدوا بكل صراط توعدون ، وتردون عن طريق الله من آمن بالله وصدق به ووحدّه ، وتلتمسون لمن سلك سبيل الله وعمل بطاعته طريقاً معوجاً بعيداً عن الحق ، مائلاً إلى الزيغ والضلال .

وذكرهم شعيب بنعمة الله عليهم بأن كثّر جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم ، وأن رفعهم من الذلة والخسة ، ودعاهم إلى شكر الله الذي أنعم عليهم بذلك ، والإخلاص له في العبادة إتقاء لعقوبته بالطاعة إليه ، وحذراً من نقمته بترك المعصية ، ووجّه نظرهم إلى عاقبة المفسدين قائلاً لهم : انظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين خرجوا على ربهم ، وعصوا رسله من العذاب والنقم ، وكيف كانت عاقبة عصيانهم إياه ؟ ألم يهلك بعضهم غرقاً بالطوفان ، وبعضهم رجماً بالحجارة ، وبعضهم بالصيحة والصواعق المحرقة ؟ ونصح إليهم بالاعتبار بأحوالهم إذا لم يريدوا أن ينتهوا إلى مثل نهايتهم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَإِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف :

ثم قال لهم : إن كان جماعة منكم صدقوا بالذي أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه ، وظلم الناس وبخسهم في المكايل والموازين فاتبعوني على ذلك ؛ وجماعة أخرى لم يصدقوا بذلك ولم يتبعوني عليه ، فاصبروا حتى يحكم الله ، فهو خير من يفصل ويمدل بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ الأعراف .

مجادلة أهل مدين لشعيب ومحاботه لهم

لما قام شعيب بدعوة أهل مدين إلى الله وإلى توفية المكيال والميزان بالقسط ، وحفظ حقوق الناس وعدم أكلها بالباطل ، ونهاهم عن الفساد في الأرض قائلاً لهم : إني أراكم بخير ؛ وقد وسع الله عليكم ، ورزقكم وإني أخاف عليكم بمخالفتكم أمر الله أن ينزل بكم عذاب يحيط بكم ، وأن ما أبقاه الله لكم من المباحات خير لكم من المحظورات التي نهاكم عنها . قالوا له متهمين به : أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام وألا نتصرف في أموالنا على ما نشاء من كسر الدراهم وقطعها وبخس الناس في السكيل والوزن ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد الذي لا يحمله الغضب على أن يفعل ما لم يكن ليفعله في حالة الرضا .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنفَقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ شَحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿١٠٥﴾ هود .

فحاجهم شعيب وقال لهم : يا قوم أرايتم إن كنت على بيسان وبرهان
وحجة من ربى فيما أَدْعُوكُم إليه من عبادته والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام
وفيا أنهاكم عنه من إفساد المال ، ورزقنى منه رزقاً حسناً حلالاً طيباً ، وما أريد
أن أنهاكم عن أمرنم أفعل خلافه ، بل أفعل ما أمركم به ، وأنتهى عما أنهاكم
عنه ؛ لأنى لا أريد إلا إصلاحكم وصلاح أمركم ما استطعت ، حسب قدرتى
لثلاثين السك من الله عقوبةً شديدةً وأسأل الله أن يوفقنى لما فيه صلاحكم
وصلاح أمركم فإنه هو المعين لى على ذلك ، فقد فوضت أمرى إليه ، وجعلت
اعتمادى وتوكلى عليه .

﴿١٠٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ
رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
أُنِيبُ ﴿١٠٧﴾ هود .

وأخذ يكرر لهم احتجاجه ويقول : يا قوم لا يحمانكم عداوتى وبغضى
على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس
فى المكيال والميزان ، وترك الإنابة والتوبة ، فإنى أخشى عليكم أن يصيبكم
مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق ، أو قوم هود من الريح ، أو قوم صالح

من الرجفة ، وما قوم لوط ببعيدين عنكم ، فإن فيما آلوا إليه عبرة لكم ، فاعتبروا بهؤلاء ، واحذروا أن يصيبكم بشقاق ومعاداتي لكم مثل الذي أصابهم .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْزِيَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾
هود

ثم طلب منهم أن يستغفروا ربهم ، وأن يتوبوا إليه فإنه رحيم بعباده محب لهم .

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

هود

فأكثرُوا جداله ، وجهدوا جهدهم في إدحاض دعواه ، وقالوا له :

يا شعيب إننا لا نفهم ولا نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به ، وإننا لنراك ضعيفاً فينا ؛ ولولا أن عشيرتك عزيزة علينا لأنّها تجمعنا وإياها لحة النسب لرجمناك وقتلناك فأنت لست علينا بعظيم .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴾ هود .

فراجعهم شعيب وقال لهم : يا قوم ، أعشيرتي أعز عليكم من الله الذي أرسلني

إليكم ، وقد جعلتم أواصره منبوذة وراء ظهوركم ، لا تأتمرون بأمره ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق عظامته ، إن ربى محيط علمه بعملكم فلا يخفى عليه منه شئ ، وهو مجازيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ هود

واختتم احتجاجه بقوله : يا قوم اعملوا كل ما تستطيعون عمله ضدى ، وأنتم على غاية تمككنكم منه ، فإني عامل على الثبات ، ومصمم على الطلبات ، وهى الدعوة إلى الله ، وترك عبادة الأوثان ، وحسن معاملة الناس ، وعدم أكل حقوقهم بالباطل

وقصارى القول : أنكم سوف تعلمون أينما الجانى على نفسه والمسىء إليها ، والمصيب فى فعله الحسن إليها ، ومن منا أيها القوم الذى سيأتيه عذاب من الله يخزيه ويهينه ؟ ومن منا الكاذب ؟ فانتظروا العذاب إني معكم المنتظرين

﴿ وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ هود

وكان شعيب فى حاجته لهم ونصحه إياهم كخطيب مصقع حتى إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه :

ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه فيما يراد بهم . (كما رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن أبي سلامة)

تهديد أهل مدين لشعيب والمؤمنين معه بإخراجهم من القرية

لما أخرج شعيب قومه بدعائهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وحسن المعاملة والاستقامة ، اجتمع طائفة من الرجال الذين تكبروا عن الإيمان بالله ، واتباع رسوله شعيب لما حذرهم بأسه على خلافهم وكفرهم وقالوا له : يا شعيب لنخرجنك ومن اتبعك وصدقك وآمن بك وبما جئت به معك من قريتنا أو لترجمن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ الأعراف

فقال لهم شعيب : أخرجونا من قريتك وتصدوننا عن سبيل الله ولو كنا كارهين ذلك ؟

﴿ قَالَ أُولَؤُنَا كَارِهِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال شعيب لقومه ؛ حينما دعوه إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها وتوعده بطرده ومن تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك : نكون قد

اختلقنا على الله كذباً ، وقلنا ما ليس بحق ، إن نحن عدنا في ملتكم ورجعنا فيها بعد أن أئقنا الله منها ، بأن هداها إلى خطئها ، وصواب ما نحن عليه ولا يتسنى لنا أن نرجع فيها ، وندين بها ، ونترك ما نحن عليه من الحق إلا أن يشاء الله ، ويكون سبق لنا في علم الله أننا سنعود فيها ، فينفذ فينا قضاء الله وتسير علينا مشيئته ، فإن علم ربنا وسع كل شيء ، فأحاط به ولا يخفى عليه شيء لا في الأرض ولا في السماء ، وإلا فنحن غير عائدين في ملتكم وقد اعتمدنا في أمورنا كلها على الله

ثم لما يؤس من إذعان قومه له ، وانقطع رجاؤه منهم الطاعة والإقرار له بالرسالة وخاف على نفسه ، وعلى من تبعه من مؤمنى قومه ، دعا عليهم فقال : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، أى احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل الذى لا ظلم فيه ولا جور ، فأنت خير الفاتحين الحاكمين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف

فقال الجماعة الذين جحدوا آيات الله ، وكذبوا رسوله وتمادوا في

غيهم وطغيانهم من قومه للآخرين منهم :

لئن اتبعتم شعيباً فيما يقول ، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله ، وأقررتم بنبوته لتكونن إذا خاسرين مغبونين في فعلكم وترككم ملتكم وهالكين

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف

فلما كذبوه وتوعده بالرجم والطرد من بلادهم وعتوا عن أمر الله أخذتهم (الرجفة) الزلزلة المحركة لمذاب الله ، فأصبحوا في دارهم (جاثمين) راكعين على ركبهم ، وأهلكهم الله وأبادهم ، فصارت قريتهم خاوية منهم كأن لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها ؛ وكانوا الهالكين الخاسرين

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف

أما شعيب فقد نجاه الله والذين آمنوا معه برحمته ، فأدبر عنهم سخطاً حينما أتاهم عذاب الله ، وقال لهم لما أيقن بنزول نعمة الله بقومه الذين كذبوا وكفروا بآيات الله :

يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ، وأدبت إليكم ما بعثني به من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر ، وظلم الناس وأكل حقوقهم بالباطل ونصحت

لكم بطاعة الله ، ونهيتمكم عن معصيته ، وإني ليعزني عدم قبولكم نصحي ، وأتألم لعذابكم

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ الأعراف

ثم عاد فقال : كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم ؟

﴿ فَكَيْفَ آتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف

شعيب وأصحاب الأيكة

بعد أن أهلك الله أهل مدين لكفرهم به ، وعدم اتباع رسولهم ، ونجى شعيباً والذين آمنوا معه ، أرسله إلى أصحاب الأيكة (وهي غيضة تنبت ناعم الشجر الملتف بالقرب من مدين تسكنها طائفة من عباد الله)

وكان شعيب أجنبياً عنهم ، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين من تكذيب شعيب وعدم الاذعان لأمره إذ قال لهم : إني لكم من الله رسول أمين على وحيه ، فاتقوا عقاب الله على خلافكم أمره وأطيعوني ترشدوا ولست أسألكم على نصحي لكم من جزاء أو ثواب فما جزائي

وثوابي على ذلك إلا من رب العالمين ، فأوفوا الناس حقوقهم من السكيل
ولا تكونوا من الخسرين ؛ وزنوا (بالقسطاس) بالميزان المستقيم الذي
لا يبخس فيه الوزن على من وزتم له ، ولا تنقصوا الناس حقوقهم في السكيل
والوزن ، ولا تكثرُوا في الأرض الفساد ، واتقوا الله الذي خلقكم وخلق من
تقدمكم من الخلائق ، قال تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ ﴾ الشعراء

فقالوا له : إنما أنت يا شعيب مختل العقل بالسحر المتكرر ، ولست
ملكاً ، وما أنت إلا بشر مثلنا تأكل وتشرب ، وما نحسبك فيما تخبرنا
وتدعونا إليه إلا بمن يكذب فيما يقول ، وطلبوا منه برهاناً ودليلاً على ذلك
بأن قالوا :

إن كنت صادقاً حقاً فيما تقول بأنك رسول الله كما تزعم فأسقط علينا
(كسفاً) قطعاً من السماء

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ
لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
الشعراء

فأجابهم شعيب قائلاً : إن ربي أعلم بأعمالكم ، محيط بها ، لا يخفى
عليه شيء منها ، وهو مجازيكم عليها

﴿ قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الشعراء
فلما كذبوه أخذهم الله بعذاب « يَوْمِ الظُّلَّةِ » بأن سلط عليهم الحرَّ
سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم سحابةً فاستظلوا تحتها من شدة
الحرِّ المنبعث عليهم ، فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم وأهلكتهم وسمى هذا
اليوم (يَوْمِ الظُّلَّةِ) وكان عذاب يوم الظُّلَّةِ عذاباً عظيماً لهم
وكان في ذلك دليل وحجة لهم ، لو أنهم كانوا يرشدون ، وما كان
أكثرهم بمؤمنين

وإن الله هو العزيز في نعمته ممن انتقم منه من أعدائه ، الرحيم بمن تاب
من ، وأنانب إلى طاعته

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الشعراء

١٧ - داود (عليه السلام)

نسبه - كما جاء في الإنجيل - داود بن يسي ، بن عوييد ، بن يوعز ابن سلمون بن نجشون . بن عميناداب . بن آرام . بن حصرون . بن قارص . بن يهوذا . بن إسحق . بن إبراهيم عليه السلام

داود ملك قبل أن يكون نبياً

قد جعل الله داود ملكاً على بني إسرائيل بعد قتل ملكهم (طالوت) والأصل في تعيين (طالوت) ملكاً عليهم ، أنه كان قوم يقال لهم (العالقة) ، يسكنون بين مصر وفلسطين ، غزوا بني إسرائيل وأذاقوهم بأس الحرب ، وكان لهم ملك يقال له (جالوت) فطلب بنو إسرائيل من نبي لهم يقال له (صمويل أو شمويل) أن يعين لهم ملكاً يقودهم إلى قتال أعدائهم الذين أذلّوهم دهرًا طويلاً ، ويدافع عنهم ضد من يريد الإغارة عليهم وكان (صمويل) عالماً بعقلية بني إسرائيل وعاداتهم وما انطوت عليه أنفسهم فقال لهم : أخشى إن كتب عليكم القتال أن تتجنبوا ولا تقاتلوا وألا تقوا بما تعدون الله به من أنفسكم من الجهاد في سبيله ، فإنكم أهل

غدر ، وقلة وفاء بما تعدون . فقالوا لنبيهم : وأى شيء يمنعنا أن نقاتل في سبيل الله عدونا وعدو الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا بالقتل والغلبة ؟ فلما فرض عليهم قتال عدوهم ، والجهاد في سبيله ، جبنوا وأدبروا مولين عن القتال ، وضعوا ما سألوهم نبيهم من فرض الجهاد إلا قليلاً منهم فقد ثبت على الجهاد ، والله عليم بمن ظلم نفسه منهم ، وأخلف وعده وخالف أمر ربه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ أَرْبَعَةُ أَلْفَ مَلَكٍ نَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ البقرة .

وقال لهم نبيهم (صمويل) : إن الله قد أعطاكم ما سألتكم وبعث لكم (طالوت) ملكاً .

فلما قال لهم نبيهم ذلك : قالوا : أنى يكون (لطالوت) الملك علينا وهو من سبط (بنيامين بن يعقوب) وسبط بنيامين لا ملك فيهم ولا نبوة ؛ ونحن أحق بالملك منه ، لأننا من سبط (يهوذا بن يعقوب) ولم يؤت كثيراً من المال ؛ لأنه كان فقيراً ، وقيل : إنه كان سقاء أو دباغاً .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مِدْكَ قَالُوا أَلَيْسَ إِنَّهُ بِكُونٍ لَهُ أَلْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ البقرة :

فقال لهم نبيهم : إن الله اصطفاه عليكم ، واختاره لكم ، وبسط له في العلم والجسم ، وآتاه من العلم فضلاً كبيراً على ما أوتي غيره ، وأن الله يؤتي ملكه من يشاء ، فيضعه عنده ويخصه به ، ويمنحه من أحب من خلقه ، فلا تستكبروا يا معشر القوم من بنى إسرائيل ، أن يبعث الله (طالوت) ملكاً عليكم ، وإن لم يكن من أهل بيت المملكة ، فإن الملك ليس بميراث عن الآباء والأسلاف ؛ ولكنه بيد الله يُعطيهِ من يشاء من خلقه ، فلا تتخيروا على الله ، والله واسع فضله ، فينعم به على من أحب ، ويريد به من يشاء عليم بمن هو أهل للملكه .

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة .

فقالوا له : إئت لنا بآية تدل على ذلك إن كنت من الصادقين .

فقال لهم : إن آية ملكه أن يأتيكم (الثابوت) وهو الصندوق المحفوظ فيه التوراة الذي كان بنو إسرائيل إذا لقوا عدواً لهم قدموه أمامهم وزحفوا

معه ، فلا يقوم لهم معه عدد ، ولا يظهر عليهم أحد على صورة خارقة للعادة وقيل : إنه رأس إنسان على جسم سمكة محملاً على أيدي الملائكة فتى رأيتهموه سكن فؤادكم ، وأطمأن بما فيه من آثار الأنبياء مما ترك آل موسى وآل هارون . وإن ذلك لعلامة ودلالة أيها القوم على صدقي فيما أخبرتكم به إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة .

فحينئذ رأوا (التابوت) صدقوا عند ذلك نبينهم ، وأقروا بأن الله قد بعث (طالوت) ملكاً عليهم ، وأذعنوا له بذلك .

فلما خرج بهم (طالوت) بجنوده لقتال العدو من بيت المقدس ، وقيل : كان عددهم ٨٠ ثمانين ألف مقاتل ، ولم يتخلف من بنى إسرائيل عن الخروج معه إلا من كان ذا علة ، أو كبيراً لهزمه ، أو معذوراً لا طاقة له بالنهوض معه ، وقال لهم طالوت : إن الله امتحن طاعتكم وإخلاصكم (بنهر) تصادفونه (وكان الوقت حراً وعطشوا وشكوا إليه قلة المياه بينهم وبين عدوهم ، وسأله أن يدعو الله لهم أن يجري بينهم نهراً) .

قيل : إنه نهر بين (الأردن وفلسطين) فمن شرب من مائه فليس هو من أهل الله ، ولا من المؤمنين به ، ولا ببقائه ، ومن لم يشرب الماء من ذلك النهر ولم يذقه ، فهو من أهل ولايته وطاعته ، إلا من اغترف منه غرفة بيده ، فتلك مسموح بها لتسكين شدة الظم .

فشرب القوم على قدر يقينهم ، أما الكفار فجعلوا يشربون فلا يروون ، وأما المؤمنون فجعل الرجل يغترف غرفة بيده فترويه .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ البقرة .

فلما رأى (طالوت) ذلك أخذ الذين صدقوا واتبعوا أمره ، وترك الذين لم يصبروا على ابتلاء الله إياهم وعبر بهم النهر .

فلما قربوا من جيش (جالوت) ملك العالقة ، وأبصروا ما هم عليه من الكثرة واستكمال العدة قالوا : لا طاقة لنا اليوم بقتال هؤلاء فثبت الذين يعتقدون أنهم راجعون إلى ربهم أن استشهدوا في القتال وقالوا :

كم من جماعة قليلة غلبت جماعة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَتَهُ

كثيرةً بإذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ البقرة

ولما برزوا لجيش (جالوت) دعوا الله قائلين : ربنا أنزل علينا صبراً
من عندك ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزمهم
بإذن الله

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ البقرة

قتل جالوت بيد داود

وكان من حاضري الحرب (داود بن إيشي) وكان صغيراً يرعى الغنم
لا فضل فيه للحرب ، ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين مع
(طالوت) ليأتيه عنهم بما يطمئنه عليهم . فرأى (جالوت) وهو يطلب المبارزة
والناس قد خافته لما ملأ نفوسهم من هيئته ، وتيقن كل مبارز له أنه هالك
لا محالة

فسأل داود عما يكافأ به قاتل هذا العدو الجبار الفلسطيني ؟ فأجيب
بأن الملك يعطيه نصف ملكه ، ونصف كل شيء يملكه

فانطلق داود إلى طالوت وقال له : إنك قد جعلت لمن يقتل جالوت
نصف ملكك ، ونصف كل شيء تملكه أفلي ذلك إن قتلتني ؟ قال له : نعم

والناس يستهزئون بداوود وإخوته أشد من هنالك عليه ؛ فألبسه (طالوت)
درعاً وأمره أن يتقدم

فتقدم داود إلى (جالوت) وبعد كلام معه رماه بحجر فقتله

فقال داود لطالوت : أوف بما جعلت لي ؛ فأبى طالوت أن يعطيه ذلك
فانطلق داود فسكرن مدينة من مدائن بني إسرائيل حتى مات طالوت
فلما مات عمده بنو إسرائيل إلى داود فجاؤوا به وملكوه وأعطوه
خزائن (طالوت) وقالوا : لم يقتل (جالوت) إلا نبي . وكافأه الله بأن جعله
ملكاً على بني إسرائيل ، وأعطاه الحكمة ، وعلمه مما يشاء من صناعة
الدروع ، قال تعالى :

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا
يَشَاءُ ﴾ البقرة

داود نبي ، ومعجزاته ، ونعم الله عليه

لما ملك داود بني إسرائيل جعله الله نبياً وملكاً ، وكانت بلاد القدس
قاعدة ملكه ومقر سلطنته ، وأنزل عليه الزبور (وجميعه حكم ونصائح
ومواعظ وأدعية وأناشيد ، وليس فيه شيء من الأحكام الشرعية)
كما قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

الإسراء

وكان يقرأ الزبور بصوت جميل ، فإذا سمع صوته مريض برى وكانت
تجتمع عليه الإنس والجن والوحوش عند ما يقرأ بصوته الجميل ويسكن الريح
ويركد الماء ، وكان إذا سبّح سبّحت معه الجبال والطير أيضاً ، وكان إذا أمسك
الحديد يلين في يده ويصير كالطين المبلول ، يصرفه في يده كيف يشاء بغير
إدخال نار ولا ضرب بحديد .

وكان يصنع الدروع (وهو أول من صنعها) وصنع حلقاتها ونسجها من
الصفائح ، ومع هذا كله كان يعمل هو وأتباعه بطاعة الله ، وكان الله بصيراً
بما يعملون ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّعْلَهُ
الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبأ .

وكان شديد الاجتهاد ، كثير العبادة ، فكان يقوم الليل ويصوم نصف
النهار ، وكان مطيعاً لله ، يرجع عما يكرهه الله إلى ما يرضيه ، ولذا قد سخر
الله الجبال تسبّح معه من وقت العصر إلى الليل ووقت الضحى .

فكان إذا سبح سبحت معه الجبال ، وسخر له الطير يسبحن معه أيضاً
محشورة ومجموعة له ، وكانت جميعها مطيعة له ترجع إلى أوامره ، وقد حفظ
الله ملكه وحرسه ، فكان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف ، وأعطاه الله
النبوة والحكمة ، أى السنة والفصل فى الخصومات التى يختصم الناس فيها إليه
وإصابة القضاء والبيّنات ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ
يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ
وَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ ص .

قضاؤه وعدله

فمن القضايا التى نظرها وفصل فيها القضية الآتية وهى :

أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث أى زرع ،
والثانى صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : إن غنم هذا الرجل أكلت زرعى
فحكم داود على صاحب الغنم بأن يعطى لصاحب الزرع الغنم ، وكان ولده
سليمان عليه السلام جالسا بجواره ، وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة ، فقال
له أبوه : اقض أنت بينهما .

فأجاب سليمان أن يسلم لصاحب الزرع الغنم سنة كاملة ليعيش بنسلها
ولبنها وصوفها إلى أن يرجع زرعها كما كان فإذا تمت السنة يردها لصاحبها ،
ففنفذوا حكم ولده سليمان عليهما السلام ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ
وَكَنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾
الأنبياء

أما القضية الثانية فهي : أنه دخل عليه من سور غرفته في يوم خلوته
للعباداة والاحتجاب والحرس على الباب أناس ففرع منهم ، فقالوا له : لا تخف
نحن خصمان محتصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تطف في
الحكم واهدنا إلى العدل ، وشرحوا له القضية كما يأتي :

إن هذا أخى في الدين له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة (وهى
الأثني من الضأن) فقال ملكنى إياها لتكمل نعاجى مائة ، وغلبنى في الخطاب
بفصاحة لسانه وقوة بطشه .

فأجاب داود قائلاً : لقد ظلمك بطلب ضم نعجتك إلى نعاجه ، وإن
كثيراً من الخلطاء والشركاء والأصحاب ليبنى بعضهم على بعض إلا الذين
آمَنُوا وعملوا الصالحات ، وقليل وجودهم الآن ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ

فَفَرَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي
الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
الْخُلَطَاءِ لِيَبْغَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴿١٠٠﴾ ص .

الفتنة التي ابتلاه الله بها

لما جاء الخصمان ومن معهما في غير وقت القضاء أضمر داود عليه السلام
عقابهم ، لأنه ظن أنهم أهل بغى وشر وفساد وأذى ، ولكن لما علم عذرهم ،
وأنهم على حق ، وأنهم مضطرون لما فعلوا لأن الحجاب منعوهم من الدخول
عليه من الباب .

لما علم ذلك كله ظن أنه ابتلاء من الله سبحانه وتعالى ، ليزيده الله بذلك
إيماناً و يقيناً ، وصبراً واحتمالاً ، فيعظم له أجراً ، فاستغفر الله وأتاب إليه ،
وخرّ راكعاً مدةً طويلةً ، وهو يبكي على ما فرط منه ، إلى أن غفر الله له
ذنبه ، وجعله من المقربين إليه في درجة عالية ، وله حسن العاقبة في الآخرة ،
وذلك قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنْمًا فَتَنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ص

« وجاء في كتب الفقه أن سيدنا داود عليه السلام (أول من صلى صلاة الظهر) حيث تاب الله عليه وقت زوال الشمس ، فصلى أربع ركعات شكراً لله على قبول توبته »

تم قال له ناصحاً ومذكراً : يا داود إنا جعلناك خليفةً لمن قبلك من الأنبياء ، فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف ، ولا تتبع هواك فيضلك عن سبيل الحق ، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله ؛ لأن الذين يميلون عن سبيل الله ، وذلك الحق الذي شرعه لعباده وأمرهم بالعمل به ، ويجورون في الدنيا ، ويظلمون الناس ، لهم في الآخرة عذاب شديد بما نسوا أمر الله ، وبما تركوا القضاء بالعدل يوم الحساب ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ص

وفاة داود عليه السلام

وتوفي داود عليه السلام وعمره مائة سنة وستة أشهر ودفن في بيت المقدس ، وكانت مدة خلافته أربعين سنة

العبرة من قصة داود عليه السلام

أولاً - أن الله أنعم عليه واختصه بأعمال عجيبة لم يكن لتصدُّر من مثله ؛ لأنه كان غلاماً راعياً للغنم ، فقتل الله تعالى على يديه (جالوت) الجبار الذي تخافه الأبطال ، ولم يقاتله بسيف ولا رمح ، ولم ينزل إليه بدرع ولا ترس ، وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع ، فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد

ثانياً - أن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح ، وإحراز أسباب الفلاح ، مادام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى

ثالثاً - أن انتصار داود على (جالوت) لم يغير من طباع داود ، ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء ، بل لم يزد هذا الأمر إلا تواضعاً ، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر

رابعاً - أن طاعة الله تعالى وشكر نعمه مما يوجب المزيد ، لقوله تعالى :
﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فإن الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره
زاده من نعمه ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع المسرودة المنسوجة
لتحصن الناس من البأس

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ الأنبياء

وأنعم عليه بولده (سليمان) الذى ورثه ملكه وعلمه وحكمته ، لقوله تعالى :
﴿ وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص

بناء بيت المقدس

قيل : أصاب الناس فى زمن داود عليه السلام طاعون جارف
فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس . فلما وقف موضع الصخرة دعا ربه
فى كشف الطاعون عنهم ، فاستجاب له ورفع الطاعون ، فأتخذوا ذلك
الموضع مسجداً ، وكان الشروع فى بنائه لإحدى عشرة سنة مضت
من ملكه

وتوفى قبل أن يتم بناءه ، وأوصى إلى (سليمان) ابنه بإتمامه ، وقتل
القائد الذى قتل أخاه (إيشى بن داود) فلما توفى داود عليه السلام ودفنه
سليمان تقدم بإنفاذ أمره ، فقتل القائد ، واستتم بناء المسجد ببناء فاخراً ،
فلما فرغ اتخذوا ذلك اليوم عيداً عظيماً وقرب قرباناً فتقبله الله منه ، وكان
ابتدأه أولاً ببناء المدينة ، فلما فرغ منها ابتدأ بعمارة المسجد

١٨ - قصة سليمان (عليه السلام)

لما توفي داود عليه السلام ملك بعده ابنه (سليمان عليه السلام) على بني إسرائيل ، وكان عمره ثلاث عشرة سنة ، فسأل الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب له وجمع له بين الملك والنبوة كأبيه وأنعم عليه بنعم كثيرة :

١ - فقد منحه الله الذكاء ، وإصابة الحكم منذ صباه ، وتدل على ذلك قصة الحرث الذي تفشت فيه غم غير أهلة ، فقد وفق إلى الحكم الأصوب فيها ، وكان ذلك بحضور والده داود (وقد تقدمت في قصته) وهناك قصة أخرى تعزى إليه ، وهى مدونة فى كتب المطالعة للأطفال : خرجت امرأتان ومعهما صبيان ، فعدا الذئب على صبي إحداهما فاختصمتهما فى الصبي الباقي إلى داود عليه السلام فقصتا عليه القصة فحكم به للكبرى منهما

فاختصما إلى سليمان عليه السلام فقال : إئتوني بسكين أشق الغلام نصفين ، لكل منهما نصف ، فقالت الصغرى (وهى أم الغلام) أنشقه يارسول الله ؟ قال : نعم . قالت لا تفعل ؛ فنصيبى فيه لها ، وأشفقت على ولدها من القتل

فقال عليه السلام : خذيه فهو ابنك ، وقضى به لها .

فهذه القصة تدل على شدة ذكاء سليمان عليه السلام وفراسته ، وهو لم يكتسبها بكثرة التجربة ، وطول المدة ، بل حصلت بعناية ربانية وألطف إلهية ، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوى التجارب في كثير من الأسباب .

٢ - قد سخر له الريح الشديدة العاصفة تحمل بساطه ، وتجري بأمره إلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها ، وهي أرض الشام ، وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء ، وتعود به إلى منزله بالشام ، وكان الله عالماً بما أعطاه من الملك ، وبما سخره له من الريح فهو على كل شيء قدير ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وذلك قوله تعالى :

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ الأنبياء .

وكانت هذه الريح تسير وقت الزهاب مسيرة شهر ، ومثلها في وقت

الرجوع ، كما قال الله تعالى :

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَرَوَّاحًا شَهْرًا﴾ سبأ .

٣ - قد أخضع له من الشياطين من يغوصون في البحار ، ويستخرجون
له منها اللآلئ وكريم الأحجار ، ويعملون له أعمالاً من البنيان ، والتماثيل ،
والحاريب ، وكان الله لهم حفيظاً ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ الأنبياء .

٤ - وقد أسأل الله لسليمان (عين القطر) وهو النحاس المذاب .

٥ - وسخر له الجن فتطيعه وتنفذ أوامره ، ويعملون له ما يشاء بإذن ربه
من عظيم المباني وضخمها ، والعمارات ، والتماثيل ، والقصور الراسيات التي
لا تتحرك من أماكنها يصنع فيها الطعام ، والجفان التي كانت واسعة جداً
كالخياض ، بحيث أن من يعدل من الجن عن أمر ربه ويزيغ عن طاعة سليمان
فإن الله يذيقه عذاب السعير في الآخرة ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعملُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾
سبا

وقد ذكر الله آل داود بهذه النعمة ، وأمرهم بطاعته شكراً له على
ما أنعم به عليهم من تلك النعمة التي خصهم بها دون سائر خلقه ؛ وقليل من

عباد الله المخلصون في توجيهه ، والقيام بواجب شكره ، وفي ذلك قوله تعالى :
﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ سبأ
٦ - أكرمهم الله بالخييل الجياد (الصافنات) فكان يحبها ليس لأمر
الدنيا وحب النفس وإنما كان يحبها لأمر الله تعالى ليستعين بها على الشدائد
تقوية لدين الله وللغزو والجهاد في سبيل الله .

وقد جلس وقت العصر وأمر بإحضار الخيل لعرضها عليه ، ثم أمر عليه
السلام بتسميرها حتى غابت الشمس عن بصره وتوارت ، وقد نسي صلاة
العصر (النافلة لا الفرض) فقال نادماً متأثراً : إني أحببت وآثرت حب الخير
عن صلاة العصر (النافلة) وقدمت استعراض الخيل وأنا ناس بل قدمته من
غير قصد على الصلاة ، حتى توارت الشمس وغابت بالأفق عن العيون . ولما
أتم استعراضها ووجد أنها شغلته ، وتذكر أن صلاة العصر النافلة فاتته عن
وقتها أمر الجنود الراكبين عليها أن يردوها إليه فلما عادت أخذ يمسح سوقها
وأعناقها (كما يفعل الآن بعض الناس المولعين بحب الخيل) محبة منه لها
(كما جاء عن ابن عباس) وتشريفاً لها ، لكونها من أعظم الأعوان
لدفع العدو .

ويقول بعض المفسرين : أنه أخذ يضرب سوقها وعنقها بالسيف لغيظه
من فوات الصلاة بسببها ، ولا يعقل إن نبي الله يعذب حيواناً ويهلك مالا
بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها .

ولا ذنب لها باشتغاله كما قال الطبرى .

وكان عليه السلام يفعل ذلك تواضعاً منه ، حيث أنه يباشر أكثر الأمور بنفسه ، ولأنه كان أعلم الناس بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها (كأعظم طبيب بيطرى) وكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ليعلم ما فيها من مرض أو علة ؛ وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَاتَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالشُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ص

فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسیه

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ص

تفسير الآية السابقة

جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على مائة امرأة أتوسع وتسمعن كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ؛ فقال له صاحبه (الملك الذى يأتيه بالوحى) قل : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون »

وعلى هذا الحديث يكون تفسير الآية المذكورة الكريمة (وقد ذكرها فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح خليفة فى مجلة الإسلام بالعدد ١٩ من السنة الثانية) كما يأتى :

قل الله تعالى - بعد ما بين ما كان لسليمان عليه السلام من الملك والخبرة بالخليل ، وحب الغزو والرغبة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى وإعداد العدة لذلك :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِعَظَمِ الْمُلْكِ ، وَقُوَّةِ الْجِسْمِ ، وَكُلِّ الْإِيمَانِ ، حَتَّى وَثِقَ بَرَبِهِ كُلَّ الْوَثُوقِ ، وَجَعَلَ إِذَا طَلَبَ أَمْرًا أَوْ شَرَعَ فى شَيْءٍ يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ مَحْجَابٌ ، وَأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَاصِلٌ وَوَاقِعٌ (١١ - أول)

حفظاً له عليه السلام ، وإعلاء لدرجته ، وزيادة في إيمانه ، وتنبيهاً له على ألا يترك كل ما يكمله ، ولو كان مباحاً ، أو خلاف الأولى لم يجب قوله هذه المرة لتركه التفويض باللفظ وإن كان مفوضاً بالقلب

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أى شقاً نصف إنسان ، مع أنه طلب مائة أو تسعة وتسعين ، أو سبعين أو ستين ، أو أربعين ، فعلم عليه السلام أن الوثوق التام بالله تعالى من الإيمان ؛ والسكن الأولى والأجدر بالأنبياء هو التفويض التام باللفظ والقلب لله عز وجل في كل الأمور .

ثم إنه عليه السلام بعد ما عرف ذلك ﴿أَنَابَ﴾ إلى ربه وتاب أن يقول إلاً مفوضاً له عز وجل بالقلب واللسان معاً كما قال الله تعالى .

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ فَاْعِلْ ذٰلِكَ غَدًا اِلَّا اَنْ يَّشَاءَ اللّٰهُ﴾ الكهف

وبعد أن تاب وأناب دعا ربه طالباً للمغفرة والملك العظيم

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِيْ﴾ ما كان مني ﴿وَهَبْ لِي﴾ من لدنك

﴿مُلْكًا﴾ عظيماً أزيد مما معى أستطيع به إعلاء كلمتك والدعوة

إلى توحيدك ﴿لَا يَنْبَغِي﴾ أن يكون مثل هذا الملك ﴿لِأَحَدٍ﴾

من الأنبياء وغيرهم من بنى إسرائيل ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ من الإسرائيليين

﴿إِنَّكَ﴾ يامولاي ﴿أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ كثير العطاء ، لك من في الأرض

والسماء .

فأجاب الله دعاءه ، وسخر له الريح والشياطين مما لم يكن لأحد من بعده من بنى إسرائيل .

ملاحظة - طلب المغفرة لا يدل على وقوع الذنب ، بل هو لأن الإنسان لا ينفك عن حديث نفس ، وحدث خواطر ، فهو يطلب المغفرة ليكون على أتم صفاء ، وخلص قلب ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ، فهذا الاستغفار من باب الذكر والعبادة ، وليس لحدث ذنب ، قال الله تعالى :

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون .
وكل هذه النعم التي أعطاها الله له هي من عطاء ربه ، وهبها إليه وأمره أن يتصرف فيها كيف يشاء ، فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء بغير حساب عليه في ذلك ، لأنه قد نال عند ربه الزأني وحسن العاقبة .

٧ - إن الله تعالى علمه لغة الطير ، ومنحه من جميع النعم قسطاً وافراً ، وهذا هو فضل الله المبين يؤتیه من يشاء ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النمل :

٨ - وجمع سليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم يساقون ويتلاحقون حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادي النمل قالت نملة لإختها :

يا معشر النمل ادخلوا مساكنكم لا يهلككن سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم ، فلما سمعها سليمان عليه السلام تبسم ضاحكاً من قول النملة وقال : رب اجعلني بحيث أحتفظ بشكر نعمك التي تفضلت بها علي وعلى والدي ، وأن أعمل عملاً صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ النمل .

وتعرّف سليمان وفود الطير التي كانت تجتمع عنده ، فلما تفقدها لم يجد من بينها الهدد فقال : مالي لا أرى الهدد أهو حاضر ولست أراه لشيء يستره عني أم كان من الغائبين ؟

ووعده بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه عقاباً له ، وزجراً لأمثاله أو يأتيه بحجة بينة تظهر له عذره .

﴿ وَتَقَعْدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ
لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذَنْبَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ النمل

سليمان ومملكة سبأ (بلقيس)

لما جاء الُهدُود بعد أن غاب أمدًا غير بعيد ، سأله سليمان عليه السلام عن سبب غيبته وتخلفه عن الحضور ، فقال له : عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمْ وَجِئْتُكَ مِنْ (سَبَأ) بخبر يقين ؛ ثم قال الُهدُود أيضًا : يَأْنِي اللَّهُ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُ بَنِي سَبَأَ (وهى بلقيس بنت شراحيل) وقد آتاهَا اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي تَرْفِهِمْ ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ فِيهِ أَنْوَاعُ الزَّيْنَةِ ، وَالْجَوَاهِرِ الثَّمِينَةِ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا وَثَنِينَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ ، وَقَدْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ ، فَذَعَمَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَلَا يَسْلُكُونَهُ ؛ وَلَكِنْهُمْ فِي ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَتَرَدَّدُونَ ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل

فلما سمع سليمان كلام الّهْدُودِ أراد أن يختبره ليعلم إن كان صادقاً في خبره
أم كاذباً ؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى الملكة وقال له : اذهب بكتابي هذا فألقه
إليهم ، ثم تنفخ عنهم وانظر ماذا يقولون ؟

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي
هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

المل

فذهب الّهْدُودُ بكتاب سليمان عليه السلام فألقاه على سريره فأخذه ؛
ولما قرأته قالت لقومها : يامعشر القوم إني ألقى إلى كتاب كريم مكتوب
فيه « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فالقصد ألا تتكبروا على
وأتوني منقادين لله بالوحدانية والطاعة

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىَّ وَاتُؤْنِي مُسْلِمِينَ ﴾

المل

لم ترد الملكة أن تستبد بالإجابة ، فجمعت رجال دولتها وأهل
مشورتها من الأقيال وغيرهم ، وأعلمتهم بالكتاب ، وقالت لأشراف
قومها : يا أيها الملأ أشيروا عليّ في أمرى الذى قد حضرني من أمر

صاحب هذا الكتاب الذى ألقى إلى فإنى لا أقضى أمراً فى ذلك دون مشورتكم فيه .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ النمل .

فأعربوا أنهم لا شأن لهم بالسياسة ، وأنهم رجال طعان لا غير ، وقالوا : نحن ذوو القوة على القتال ، والبأس الشديد فى الحرب ، والأمر أيتها الملكة إليك فى القتال وفى تركه ، فانظري من رأى ما ترين ونحن طائعون لأمرك .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ النمل .

كانت الملكة عاقلة فنظرت فى الأمر بعين الروية والفتنة ، ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة ، فقالت لهم : إن الملوك إذا دخلوا قريةً عنوةً وغلبةً أفسدوها وخربوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلةً ، وذلك باستعبادهم الأحرار واسترقاقهم إياهم ، وكذلك يفعلون ، كما قال الله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ النمل .

ثم عرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى الصواب ، وقالت لهم :

إني مرسله إلى سليمان بهدية لنختبره بذلك ، ولنعرف إن كان هو ملكاً أم نبياً ؟ فإن يكن نبياً لم يقبل الهدية ، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه ؛ وإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف ، فلننظر ماذا يقول رسلي عند رجوعهم ؟ أقبول وانصراف عنا ، أم برد الهدية والثبات على مطالبتنا باتباعه على دينه ؟ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

النمل

فلما جاءت رسالتها إلى سليمان بالهدية لم يقبلها ، وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم ، وأنه في حالة حسنة ، وانساع ثروة ، أحسن مما فيه الملكة وقومها ، وقال لهم : إن الله آتاني من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل ، وإني لا أفرح بهديتكم التي أهديتموها إليّ ؛ بل أنتم تفرحون بالهدية التي تهدي إليكم ؛ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها ، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي ، لأن الله تعالى مكنتني منها وملكني فيها ما لم يملك أحداً .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ النمل .

ثم توعدهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها ،

وأن عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلةً صاغرين ، وقال لرسول الملكة :
ارجع إليهم ، فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم ، ولا طاقة لهم بها ، ولا قدرة
لهم على دفعهم عما أرادوا منهم ، ولنخرجن من أرسلكم من أرضكم أذلةً
وهم صاغرون إن لم يأتوني مسلمين طائعين مقرّين بوحدانية الله .

﴿ اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَهُمْ
مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ النمل .

فلما جاء الخبر مع الرسل إلى الملكة ، وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه ،
وأشفقت على قومها استقر رأيها على الذهاب إليه في جمع من رجال دولتها ،
وجاءت إلى (أورشليم) بيت المقدس بهدية عظيمة .

فلما علم سليمان بعزم ملكة سبأ على زيارته في عاصمة ملكه شيد لها
قصرًا عظيمًا فخماً لا عهد لأهل اليمن بروية مثله .

ولما قربت من ديار سليمان ، أراد سليمان أن يظهر لها من دلائل عظمته
ونعم الله تعالى عليه ما يبهرها ، وأن ترى بعينها ما لم تره في الأحلام بفعله عجيبة
ظاهرة ، وهى : أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح ،
فسأل جنوده عن رجل قوى يأتيه بذلك العرش ، وقال لهم : أيها المלא أيكم
يأتينى بعرش هذه الملكة قبل أن يأتونى طائعين مسلمين ؟ فقال عفريت من

الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوى أمين .

قال سليمان : أنا أريد أعجل من ذلك .

قال رجل من الإنس (عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب) أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك (أى قبل أن يرجع إليك البصر إذا فتحت العين) فدعا باسم الله الأعظم وهو عنده ، فاحتمل العرش احتمالاً لا حتى وضع بين يدي سليمان .

فلما رأى سليمان عرش ملكة سبأ مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي الذي أحضله عليّ ، وعطائه الذي جاد به عليّ ، ليختبرني ويمتحنني أشكر ذلك من فضله عليّ أم أكفر نعمته عليّ بترك الشكر له ؟ ويقول الله تعالى لعباده : من شكر نعمة الله عليه وفضله فإنما يشكر طلب نفع نفسه ، لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه ، وإنما دعاهم إلى شكرها للنفع لهم ، لا لاجتلاب نفع من شكرهم إياه ، ولا دفع ضرر عنه ، وأن من كفر نعمه وإحسانه إليه ، وفضله عليه ، فقد ظلم نفسه ، وبخسها حظها ، والله غني عن شكره لا حاجة به إليه ، لا يضره كفر من كفر به من خلقه ، كريم ومن كرمه أفضاله علي من يكفر نعمه .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ

وَأَتَى عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿النمل﴾

ولما جىء بعرش (بليقيس) صاحبة سبأ وقدمت هى عليه قال سليمان لجنده : غيروا لهذه المرأة سريرها ، بمعنى أنهم يزيدون وينقصون فيه ، لننظر أتهتدى وتعقل ، فتثبت أنه عرشها أم تكون من الذين لا يعقلون ؟ (أى لننظر إن كانت تعرفه أم لا ؟)

﴿ قَالَ نَسْكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل

فلما جاءت ورأت العرش قال لها سليمان : أهكذا عرشك ؟ فقالت : كأنه هو . فقال سليمان : وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته على ما يشاء ، وكنا مسلمين لله من قبلها

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ النمل

وكانت هذه المرأة كافرة من قوم كافرين ، وقد صدها عن الهداية للحق وعبادة الله كفرها بقضاء الله وقدره وعبادتها للشمس والقمر وكان

ذلك من دين قومها وآبائها فاتبعهم فيه

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ

كَافِرِينَ ﴾ النمل

ثم قال لها سليمان : ادخلي الصرح ليريها ملكاً أعز من ملكها وسلطاناً
أعظم من سلطانها (وقيل : إن هذا الصرح الذي أمر سليمان بعمله قد عملته
الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته ثم وضع فيه سريره
فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس)

فلما رآته حسبته لجة من الماء ، فكشفت عن ساقها لتخوض فيه لئلا
تبتل ثيابها بالماء ، وأخبرت بأن ما ظنته ماء إنما هو زجاج

فدعاها سليمان لعبادة الله ، وعابها في عبادتها الشمس من دون الله
فقالت : رب إني ظلمت نفسي ، وأسأمت مع سليمان لله رب العالمين ،

وأسأمت وحسن إسلامها

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْأَلُكَ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل

موت سليمان عليه السلام

كان سليمان عليه السلام يصلى فمات وهو قائم يصلى ، والجن يعملون ولا يعلمون بموته ، حتى أكلت الأرضة (وهى دابة الأرض) عصاه ، فلما خرَّ على الأرض ميتاً تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ (عصاه) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿ سبأ .

وفي هذا دليل كاف على أنه لا يعلم الغيب إلا الله وتكذيب لمن يدعى معرفة المغيبات من الدجالين والمنجمين كما قال تعالى :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ الجن ٢٦
وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ التوبة ٩٥

١٩ - قصة إيلياس (عليه السلام)

سيدنا إيلياس عليه السلام هو إيلياس بن يسي بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران قد أرسله الله نبياً ورسولاً إلى قومه من بني إسرائيل الذين كانوا يعبدون صنماً يقال له (بعل) لينصحبهم ، ويدعوهم إلى عبادة الله ، فقال لهم : أيها القوم ، ألا تتقون الله فتخافون وتحذرون عقوبته على عبادتكم صنماً وتدعون بعلاً رباً ، وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين الذي هو ربكم ورب آبائكم الأولين ، وليس الصنم الذي لا يخلق شيئاً ولا يضر ولا ينفع ؟ ﴿ وَإِنَّ إِيْلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

الصفات

وجعل إيلياس يدعوهم إلى عبادة الله ، وهم لا يسمعون له نصحاً ولا يصدقون له قولاً وكذبوه .

فلما رأى إيلياس أن بني إسرائيل قد كذبوه ولم يطيعوه ، وأبوا إلا الكفر والظلم دعا عليهم ، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين فهاكت الماشية والطيور والهوام والشجر ، وجهد الناس جهداً شديداً واستخفى .

إلياس خوفاً على نفسه من بني إسرائيل ، وكان حينما وُجِدَ وَجَدَ رزقه ، وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في دار أو بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا المكان فطابوه ، ولقى منهم أهل ذلك المنزل شراً ، ثم إنه أوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له : (اليسع بن أخطوب) به ضربه ، فأوته وأخفت أمره ، فدعا إلياس لابنها فعوفى من الضر الذي كان به واتبع اليسع إلياس فآمن به وصدقه ولزمه ، فكان يذهب معه حينما ذهب . وكان إلياس قد كبر وهو هرم ، وكان اليسع غلاماً شاباً (فيزعمون والله أعلم) أن الله أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكك كثيراً من الخلق ممن لم يعص سوى بني إسرائيل من البهائم والدواب والطيور والشجر بحبس المطر عن بني إسرائيل (فيزعمون والله أعلم) أن إلياس قال : رب دعني أنا الذي أدعوك لهم ، وأكون أنا الذي آتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم لعلمهم يرجعون وينزعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، قيل له : نعم . فجاء إلياس إلى بني إسرائيل فقال لهم : إنكم قد هلكتم جهداً ، وهلكت البهائم والدواب والطيور والهوام والشجر بخطاياكم ، وإنكم على باطل وغرور (أو كما قال لهم) فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك ، وتعلموا أن الله ساخط عليكم فيما أنتم عليه ، وأن الذي أدعوك إليه هو الحق ، فاخرجوا بأصنامكم هذه التي تعبدون وتزعمون أنها خير مما أدعوكم إليه ، فإن استجاب لكم فذلك كما تقولون ، وإن هي لم تفعل

علمتم أنكم على باطل فنزعم ، ودعوت الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء .
قالوا . أنصفت . فخرجوا بأوثانهم وما يتقربون به إلى الله من أصدانهم التي
لا ترضى فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ،
حتى عرفوا ما هم فيه من الضلالة والباطل

ثم قالوا لإلياس : يا إلياس ، إنا قد هلكنا فادع الله لنا . فدعا لهم إلياس
بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا ، فخرجت سحابة مثل الترس بإذن الله على
ظهر البحر وهم ينظرون ثم تراءى إليها السحاب ، ثم أرسل المطر فأغاثهم
فحييت بلادهم وفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء . فلم ينزعوا ولم يرجعوا
وأقاموا على أخبت ما كانوا عليه

فلما رأى ذلك إلياس من كفرهم دعا ربه أن يقبضه إليه فيريحه منهم ؛
فأذن له الله في مهاجرتهم ففعل ؛ وأوعد الله قومه بأنهم واقعون في عذاب الله ،
إلا عباده الخالصين الذين أخلصهم من العذاب

وقد أثنى الله على إلياس وأبقى له ذكراً حسناً في الآخرين من الأمم
من بعده ؛ لأنه كان من المؤمنين الخالصين المرسلين ، كما يجازى بذلك أهل
طاعته الخالصين في عبادته ، المحسنين في أفعالهم ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

الصفات

٢٠ - قصة اليسع (عليه السلام)

لما انقطع إلياس من بني إسرائيل بعث الله (اليسع بن أخطوب بن المعجوز) نبياً ورسولاً . وقد جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة الأنعام :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُودًا وَكَذَا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

فقام مقام إلياس في وعظ ونصح الناس ، ودعوتهم إلى عبادة الله واتباع الحق ، فأصلح من شأنهم ، وآمنوا به جميعاً ، واستقر معهم زمناً إلى أن مات . ثم إن بني إسرائيل من بعد وفاته تركوا العمل بأحكام التوراة وأخذوا التابوت منهم ، وصاروا يزدادون يوماً فيوماً في الكفر والطغيان فرفع الله تعالى عنهم النعمة والأمن والراحة ، وسلط عليهم أعداء ينازعونهم أرضهم وديارهم ، فاستولت عليهم الدولة (الأشورية) وكان قاعدة ملكها (نينوى عاصمة بابل) وفي هذا العصر ظهر يونس عليه السلام .

٢١ - قصته يونس (عليه السلام)

سيدنا يونس عليه السلام هو ابن (متى) وكان قبل بعثته رجلاً صالحاً يتعبد في جبل في قرية من قرى الموصل يقال لها (نينوى) ؛ وكان قومه يعبدون الأصنام ، فبعثه الله تعالى إليهم لينهاهم عن المنكر ، ويأمرهم بالمعروف ، ويصدهم عن الكفر ، ويرغبهم في توحيد الله .

قال الإمام علي كرم الله وجهه : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثاً وثلاثين سنة فلم يؤمن به إلا رجلان أحدهما (روبييل) وكان عالماً حكيماً والآخر (تنوخ) وكان عابداً زاهداً .

وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : لما يؤس يونس من إيمان قومه دعا عليهم فأوحى الله إليه ، ما أسرع ما دعوت على قومك ، ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى ، فإن أجابوك وإلا فإني مرسل عليهم العذاب ؛ فرجع ودعاهم سبعاً وثلاثين ليلة فلم يجيبوه ، فقام فيهم خطيباً وقال : إني محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا ، فحافوا وقالوا : إنا لم نجرب عليه كذباً .

فلما كانت ليلة الأربعين خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ولما أصبحوا تغشاهم العذاب ، فظهرت سحب سوداء في السماء ، وثار دخان كثيف ، وهبطل السحب بدخانها حتى غشيت مدينتهم ، وأيقنوا بالهلاك والعذاب ، فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه ، فقذف الله في قلوبهم التوبة ، وألهمهم الرجوع إليه عز وجل ، فخرجوا إلى العراء (الخلاء) بأنفسهم ونساءهم وأبنائهم ودوابهم ، وأظهروا الإيمان والتوبة لله تعالى ، وأخلصوا له النية ، وعلت أصواتهم بالدعاء ، وضجوا بالبكاء ، وتضرعوا إلى الله تعالى ، وقالوا : آمنا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلهم .

وقد مدحهم الله وقال فيهم : إنهم كانوا مثلاً حسناً ، لأنهم صدقوا النية ، وتابوا توبة نصوحاً ، وآمنوا قبل نزول العذاب ، فحوله الله عنهم ، وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ومتعمهم الله بالنعم والخيرات إلى حين من الدهر .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يونس

فلما رجعوا إلى الذنوب ، وعادوا إلى السيئات ، ونقضوا التوبة ، رفع الله عنهم الخير وأنزل بهم القحط والمقت .

ولما خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، مكث ينتظر نزول العذاب بهم فلم ينزل ، ولم يعلم أنهم قد تابوا ، وتاب الله عليهم . فخشى أن يرجع إليهم لئلا يقتلوه ، فإن من عادتهم قتل من كذب ، ولم تكن له بينة ، وقد أوعدهم وحذرهم العذاب ولم يقع ، فظن أنهم قد يرمونه بالكذب ويقتلونه ، وانطلق ملتجئاً إلى ربه ، مغاضباً قومه الذين يئس من إيمانهم حتى أتى (بحر الروم) .

ولما أتى البحر وجد قوماً يركبون سفينةً فركب معهم ودفع الأجر فأصاب السفينة ريح كادت تفرقها ، فقال الملاحون : إن فيها عبداً آبقاً (لأن من عادة السفينة إذا ركب فيها آبق لا تسير حتى يخرج منها) فاقترعوا وقالوا : من تخرج القرعة عليه فهو الآبق (الهارب) .

ولما اقترعوا وقعت القرعة على يونس عليه السلام فقال : أنا الآبق ، فلم يقبلوا منه ، وقالوا : كيف ذلك ؟ إنا نرجو بك الخير والنجاة .

واقترعوا ثانية وثالثة والقرعة تخرج على يونس عليه السلام ، فزج نفسه في الماء فابتلعته الحوت ولم يقتله ؛ بل بقي حياً في بطنه ، وهو عليه السلام قد لام نفسه من عدم الصبر حتى يأمره الله بالهجرة أو غيرها .

وقد مكث عليه السلام في بطن الحوت ثلاثة أيام حتى أدركه الغم وأصابه
الهم ، ونزل به المرض ، فنادى ربه في الظلمات : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة
البحر ، وظلمة الليل قائلاً :

(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) لأنفسهم بترك الصبر
حتى توحى إليّ بما أتبعه ، وأقوم على تنفيذه .

فأجاب الله دعاءه ونجاه من الغم الذي كان فيه ، وكذلك ينجي الله
المؤمنين به ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَذَا النُّونِ (أى صاحب الحوت) إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ
نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾
الأنبياء

فلما استجاب له ربه أوحى إلى الحوت فلقذه على جانب نهر
(الدجلة) ولولا أنه كان عليه السلام من المسبحين الذين يذكرون الله
لبقى في بطن الحوت حياً أو ميتاً إلى يوم القيامة ، ولكن الله جلت
قدرته ، ونفذت إرادته ، جعل الحوت يقذفه إلى وجه الأرض الخالية على
جانب نهر (الدجلة) وهو سقيم ، خائر القوى ، ضعيف البدن ، نحيف الجسم

مما حصل له ، وأُنبِت عليه شجرة من (اليقطين) ليستظل بها رحمةً من الله به وقال أغلب المفسرين هي (شجرة القرع) فكان لا يتناول منها ورقةً إلَّا أروته لبنًا ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِطِينَ ﴾ الصافات .

وجاء في كتاب الفقه : أن سيدنا يونس عليه السلام حين أخرجه الله من بطن الحوت ، وقت غياب الشفق وظهور النجوم ، صلى أربع ركعات شكرًا لله لنجاته ، « فهو أول من صلى صلاة العشاء » .

ثم أمره الله تعالى أن يأتي قومه ، فصعد بأمر ربه ، فلقى راعيًا فسأله عن قوم يونس ، وعن حالهم وكيف هم ؟ فأخبره أنهم بخير ، وأنهم يرجون أن يرجع إليهم رسولهم ، فقال له : أنا يونس . فذهب فرحًا وأخبر قومه فأسرعوا إليه ، وانكبوا على رجليه يقبلونها ، ودخل معهم (نينوى) فوجدهم قد تابوا وأنابوا ، وكانوا يتمنون رجوعه ، فقرحوا به فرحًا شديدًا فمكث فيهم ، وكانوا مائة ألف فأكثر ، فأمنوا بيونس عليه السلام .

وبما جاء به ، واتبعوه في كل ما أمرهم به ونهاهم عنه ، وهذا إيمان
جديد غير إيمانهم حين رأوا العذاب ، فمتعهم الله بالنعيم والخيرات إلى أجلهم
المسمى فيمن ماتوا على الإيمان ، أو إلى أن عصوا ربهم وخالفوا نبيهم فيمن
جعلوا وأنكروا

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

الصفات

وفي هذا إشارة إلى أن من يؤمن بالله حق الإيمان ويتقنه ويتبع رسله
ويصدق بأوامرهم يمتعهم الله في الحياة الدنيا متاعاً حسناً ويرزقه من حيث
لا يحتسب ويفوز برضا ربه وحسن لقائه في الدار الآخرة

٢٢ - قصة زكريا (عليه السلام)

زكريا عليه السلام ابن (برخيا) وهو من ذرية سليمان عليه السلام ، وكان الحبر الكبير في بني إسرائيل ، وهو الذي يقرب القربان في بيت المقدس ، ويقلو عليهم التوراة ، وكان متزوجاً (إشع) أخت (حنة) زوجة (عمران بن ماثان) أحد كبار بني إسرائيل . وكانت (حنة) قد حرمت الولد حتى يئست ، فتضرعت إلى الله تعالى أن يرزقها ولداً ، وقالت : يارب إني جعلت لك نذراً ، أن لك الذي في بطني محرراً لعبادتك ، وحبسته لخدمتك وخدمة قدسك ، فتقبل مني ما نذرت لك يارب ، إنك أنت السميع لما أقول ، العليم بما في نفسي ، لا يخفى عليك سرّ أمرى وعلا نيته وذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ آل عمران

ثم توفي زوجها (عمران بن ماثان) وهي حامل . فلما وضعت (حنة) قالت : رب إني وضعت الذي نذرتك إليك أنثى - والله أعلم بما وضعت - ثم قالت - اعتذاراً إلى ربها مما كانت نذرت في حملها فخرته لخدمته ربها - : وليس الذكر يامولاي كالأنثى ؛ لأن الذكر أقوى على الخدمة

وأن الأثني لا تصلح لدخول القدس، والقيام بخدمة الكنيسة، لما يعترها من الحيض والنفاس، وإني سميتها (مريم)

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ آل عمران

ثم عودتها بالله من الشيطان وقالت : إني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرحيم ، فاستجاب الله لها فأعادها الله وذريتها من الشيطان الرحيم ، فلا يجعل له عليها وعليهم سبيلاً

﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ آل عمران
ثم أخذتها أمها (حنة) وحملتها إلى المسجد ، ووضعها عند الأحبار أبناء (هارون) وقالت لهم : دونكم هذه المولودة التي نذرتها ، فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وتقبلها الله قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، فقال لهم : أنا أحق بها منكم ؛ لأنها بنت خالتي وخالتها (إيشاع) عندي ، فقالوا : نعم ، ولسكننا نقترع عليها ، فأتقوا أقلامهم في نهر جاري (قيل : انه نهر الأردن)

فلما ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة ارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فأخذها زكريا وكفلها وضمها إلى خالتها ،

وربها أحسن تربية حتى كبرت وبلغت مبلغ النساء ، وبنى لها غرفة (محراباً) في المسجد ، فاعتكفت وصارت تتعبد فيه ، ولم يكن يدخل عليها أحد غير زكريا عليه السلام

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

آل عمران

فكان كلما دخل عليها زكريا في حجرتها (أى في المحراب) وجد عندها فاكهةً وطعاماً ، فكان يسألها عن مصدره فتقول : هو من عند الله ، وإن الله يرزق من يشاء من خلقه بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده

﴿ كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران

فلما رأى زكريا عليه السلام ما رأى عند مريم من رزق الله الذى رزقها وفضله الذى آتاها من غير واسطة أحد من الآدميين فى ذلك لها أكبر هذه الكرامة ، وكان قد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة ، ولم يرزق بولد وامراته (إشاع) كانت عاقراً ، ويئس من الذرية ، فدعا ربه أن يرزقه منها ذرية طيبة مع الحال التى هما بها كما رزقه (مريم)

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران

ثم نادى ربه نداء خفياً لا علنياً ؛ لأنه لا يريد ظهوراً ولا رياء فقال :
يا رب لقد وهن عظمى وضعف ، وانتشر الشيب في رأسي ، ولم أكن بدعائك
يا ربى شقيماً ؛ لأنك لم تخيب دعائى إذ دعوتك ، وإنى خفت بنى عمى ،
وعصبتى من بعدى ، أن يرثونى بعد حياتى ، فلا يحسنون خلافتى ، وإن
امرأتى عاقراً لا تلد ، فامنحنى يا إلهى من فضلك ولياً بلى أمرى من صلبى
فيخلفنى ويرثنى من بعد وفاتى ، ويرث من آل يعقوب النبوة والعلم ، (لأن
زكريا كان من ولد يعقوب) واجعله يارب مرضياً ترضاه أنت ، ويرضاه
عبادك ديناً وخلقاً ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا
قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهْنَ الْعِظَمِ مَنِىْ وَأَشْتَعَلَ الرُّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ وَرَائِىْ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا
فَهَبْ لِّى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ
رَضِيًّا ﴾ مريم

فاستجاب له ربه ، فقال له : يا زكريا إنا نبشرك بهبهتنا لك غلاماً اسمه
(يحيى) ولم نجعل له شبيهاً ، ولم يسم باسمه أحد من قبل

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ
سَمِيًّا﴾ مريم

قال زكريا لما بشره الله بيحيى : رب من أين يكون لى غلام وامراتى
عاقرة لا تحمل ، وقد بلغت من الكبر سنأ لا يرجى معه الحصول على ولد ؟
﴿قَالَ رَبِّ أُنِّى يَكُونُ لى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ
مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ مريم

فقال الله لزكريا مجيبأ له : الأمر كذلك ، وهو على هين وسهل ؛ لأنى
قد خلقتك من قبل ولم تك شيئأ مذكورأ ، وجعلتك بشراً سوياً ، فكذلك
أخلق لك الولد الذى بشرتك به من زوجتك العاقر مع تقدم سنك ، ووهن
عظمك ، واشتعال رأسك بالشيب

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ
تَكُ شَيْئًا﴾ مريم

فقال زكريا : يارب اجعل لى علامة أستدل بها على ما بشرتنى به
ملائكتك من هذا الغلام عن أمرك ورسالتك ليطمئن إلى ذلك قلبى
﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لى آيَةً﴾ مريم

فأجابه الله سبحانه وتعالى وقال له : علامتك لذلك ، ودليلك عليه ،
الآ تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح الجسم لا علة بك من مرض
ولا خرس يمنعك عن الكلام

﴿ قَالَ آتِيكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ مريم
فخرج زكريا على قومه من مصلاه حين حبس لسانه عن كلام الناس
(آية من الله على تحقيق وعده) وأشار إليهم بالتسبيح والحمد ، والشكر لله
في البكور والمساء

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴾ مريم

ثم لما عاد إلى المحراب : (وكانت امرأته إيشاع قد حملت) فنادته
الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب : يا زكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى ،
يؤمن (بعيسى بن مريم) ويكون سيد القوم حليماً تقياً ، ممتنعاً عن الشهوات ،
ومن أنبيائه الصالحين

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ
بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾
آل عمران

ثم وضعته فكان من عباد الله الصالحين ، ومنحه الله الحكم والنبوة

٢٣ - قصته يحيى عليه السلام

لما ولد زكريا عليه السلام يحيى قال الله له : يا يحيى خذ الكتاب (كتاب الله الذى أنزله على موسى وهو التوراة) بقوة وجد ، واحكم بما فيه وقد أعطاه الله منذ صباه أى قبل بلوغ سن الرجال الفهم لكتاب الله ، والحكم به وذلك رحمة من الله به ، ومحبة له

وقد طهره الله من الذنوب ، وجعله تقياً يتقى الله ويخافه ، مؤدياً فرائضه مجتنباً محارمه ، مسارعاً فى طاعته ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ مريم

وقد منحه الله العطف على أبيه ، ولذا كان برّاً بهما ؛ مسارعاً فى طاعتهما ومحبتهما ، غير عاقٍ لهما ، ولم يسكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه ، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذللاً ، يأتمر بما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه ، لا يعصى ربه ، ولا والديه ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ مريم .

ولذا حيّاه الله ، ووعدته بالسلام والأمان ، من أن يناله الشيطان من

السوء بما يقال به بنى آدم فى يوم ولادته ، كما أنه وعده بالأمان من فتنة القبر يوم يموت ، والأمان من عذاب يوم القيامة ومن أن يفرعه شيء مما يفرع الخلق يوم الفزع الأكبر .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم .
وقيل : إن سيدنا يحيى ولد قبل المسيح بثلاث سنين .

قتل يحيى وزكريا

قيل : كان فى عصر يحيى ملك له زوجة عجوز ، وكان معها ابنة من غيره ، فأراد الملك ويقال له : (هردس) أن يتزوجها فاستفتى يحيى عليه السلام فى ذلك . فأجابه بأنها لا تحمل له ، فعضب الملك على يحيى وقتله ، ولما قتل يحيى وسمع أبوه زكريا بقتله فرّ هارباً فدخل بستاناً عند بيت المقدس فأرسل الملك فى طلبه وقتله . وقد مات كل منهما شهيداً .

ويروى أن يحيى عليه السلام سيد الشهداء يوم القيامة ، وقائدهم إلى الجنة ؛
وقيل : إنه مدفون ببيت المقدس ، وقيل بمدينة فلسطين ، والله تعالى أعلم .

انتهى بعون الله الجزء الأول ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى ويشمل

(أولى العزم من الرسل) والله الموفق مآ

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله الحكيم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٦	(١٨) قصة سليمان عليه السلام	٣	مقدمة الطبعة الأولى
١٧٤	(١٩) » إلياس »	٦	مقدمة الطبعة الثانية
١٧٧	(٢٠) » اليسع »	٨	مقدمة الطبعة الثالثة
١٧٨	(٢١) » يونس »	٩	كلمة إجمالية عن الرسل والأنبياء
١٨٤	(٢٢) » زكريا »		صلوات الله عليهم أجمعين
١٩٠	(٢٣) » يحيى »	١٣	(١) قصة آدم عليه السلام

تتبع

	أما قصة نوح عليه السلام رقم (٣)
	وقصة إبراهيم عليه السلام » (٦)
» موسى » (١٥)	
» هرون » (١٦)	
» عيسى » (٢٤)	
» محمد » (٢٥)	

تجميعها مذكورة في الجزء الثاني الخاص
بأولى العزم من الرسل عليهم السلام
في المبدأ والختام

٢٥	(٢) » إدريس »
٢٨	(٤) » هود »
٤١	(٥) » صالح »
٤٨	(٧) » لوط »
٥٢	(٨) » إسماعيل »
٦٥	(٩) » إسحق »
٦٩	(١٠) » يعقوب »
٧٣	(١١) » يوسف »
١٢٢	(١٢) » أيوب »
١٢٦	(١٣) » ذى الكفل »
١٢٩	(١٤) » شعيب »
١٤٢	(١٧) » داود »

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

استخرج القصص

لواضعه

السيد

على فكرى

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الثانى

من قصص الأنبياء

يشمل أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

[الطبعة الثالثة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الخفاء النجف العباسية

ميسى البابى الجنبى وبشركة

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »

[قرآن کریم]

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ؛ فأحمد الله أولاً على نفاذ الطبعة الأولى من كتابي هذا
﴿ أحسن القصص الجزء الثاني ﴾ مما يدل على قبوله واستحسانه من جميع
الطبقات حتى من حضرات العلماء أنفسهم الذين نظروه وقدروه حق قدره ،
وطلبوا منه نسخاً لطلابهم . ونخص بالذكر منهم فضيلة أستاذنا العالم الكبير
الشيخ محمد الحسيني الطواهرى ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الشافعى الطواهرى
فقد طلبا منه عدداً وافراً ووزعاه بين أهليهم وعشيرتهم ، وحشوا تلاميذهم على
اقتنائه ومطالعته لحسن أسلوبه وسهولة عبارته

وهذا ولا شك يقابل منهما بالشكر والثناء ، وخالص الدعاء لهما بطول

البقاء ، وبالتوفيق والمعونة فى خدمة العلم ونصرة الدين

ثانياً — أشكر الله شكراً جزيلاً على انتشاره ليس فقط في مصر بل في الأقطار العربية والسورية والمشرق الأقصى أيضاً.

ومن داعى غبطتى وسرورى أنه ترجم إلى لغة (الأندونيسيا) حيث طلب إلى الأستاذ مرزوق عمر افندى المعلم بالمدرسة المحمدية (غورنتارت أندونيسيا) فى خطابه الرقم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٨ يقول فيه :

« هذا الكتاب محتاج جداً للأمة (يقصد أمة الملايو) ولكن مع الأسف لغته اللغة العربية ، ولهذا أطلب من حضرتكم الترخيص لى بترجمته إلى لغة الأندونيسيا لزيادة النشر والانتفاع بهذا الكتاب فى سائر الأقطار وأرجو أن ترسلوا لى جواباً ، وشكراً لكم ، ونسأل الله لنا ولكم العافية وعلى الله توكلنا والسلام »

وقد أرسلت إليه الرد فى ١٨ / ١١ / ١٩٣٨ بالترخيص له بالترجمة شاكراً ممتناً ويكفى هذا دليلاً على أهمية الكتاب ونفعه لبنى الإسلام ، ولا داعى للاطنباب فى هذا الباب .

وختاماً أرجو الله أن يستمر فى قبوله وانتشاره حتى يعم نفعه أبناء الأمة

الإسلامية إنه السميع الحبيب ؟

١٩٤٥ / ١ / ١٢

على فكرى

الأمين الأول ورئيس المغيرين

لدار الكتب المصرية

سابقاً

مقدمة الطبعة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه نستعين)

الحمد لله الذي أرسل أنبياءه ورسله لهداية الخلق إلى طريق الحق والسير على الصراط المستقيم ، والصلاة والسلام على أولى العزم من الرسل الذي خصهم الله بالثبات والصبر على الشدائد والمكاره وقوة العزيمة وقال في حقهم :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »

فالواجب على كل مسلم الاقتداء بهم في العمل بأوامر ربهم وحسن عبادته واجتناب ما نهى عنه كما أوحى به إليهم في كتابه العزيز أما بعد فقد نفذت والله الحمد الطبعة الثانية من هذا الجزء الثاني من قصص الأنبياء الشامل لأولى العزم من الرسل وهم :

نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين .

ونقدمه اليوم للطبعة الثالثة مبتهلين إلى الله أن يزيد في قبوله وانتشاره
ليزداد معرفة الناس بأنبيائهم ورسولهم فيزدادوا إيماناً بهم (وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ) ويزداد نفعهم بالعمل بأوامر ربهم وسنة رسوله

نسألك اللهم أن تقوى إيماننا وأن تنور قلوبنا بنور الإيمان والإسلام كما أننا
نسألك حسن الختام إنك أنت السميع المجيب

السيد

على فكرى

العباسية في ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٦٩ ١٠ يناير سنة ١٩٥٠

٣ - قصة سيدنا نوح عليه السلام

أرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه ، لينذرهم ويخوفهم عاقبة تماديهم في الباطل ، ويأمرهم بترك عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وهي حجارة يصنعونها بأيديهم ، وأخذ يبين لهم أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولا يليق بهم أن يعبدوها ويدلوا أنفسهم لها ، وهم عقلاء مفكرون ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوح

وقال لهم : اعبدوا الله وخافوه وأطيعوه يغفر لكم ذنوبكم ، كما قال

تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْفِيكُمْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ نوح

ويُبيِّن لكم إلى أقصى ما قدره لكم من بقاء في هذا العالم ، كما قال تعالى :
﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نوح

وأخذ يدعوهم ليلاً ونهاراً وهم يفرون منه وكان كلما يفتح لهم يفرون منه ، ويعرضون عنه ، ويضعون

أصابهم في آذانهم لئلا يسمعوا ، ويغطون وجوههم بثيابهم كراهة النظر إليه وأصروا على كفرهم ، وتكبروا عن سماع نصيحته ، وذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأُصْغَوْا لِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾
نوح

وقال : لقد حاولت إقناعهم على وجوه شتى فدعوتهم جهاراً بغير تحفظ ، ثم أعلنت لهم ، وأسرت إليهم القول إسراراً ، كما قال تعالى حكاية عنه :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَفْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾
نوح

وقلت لهم : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، وتوبوا إليه ، فإنه غفور رحيم ، يقبل توبة من تاب وأناب إليه ، كما قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾
نوح

ولأنه يرسل المطر عليكم هطالاً ليسقي به زرعكم ونباتكم ، ويمدكم بالأموال والبنين ، ويجعل لكم أنهاراً وبساتين ، فما لكم لا ترعون طاعته وتعظيمه وتوقيره ؟ يثبت ذلك قوله تعالى :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١﴾
نوح

وقد خلقكم نطفةً ثم علقهً ثم مضغةً ثم عظاماً ثم لحماً فتبارك الله أحسن الخالقين لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ أى طوراً بعد طور من مادة صماء إلى بشر سوى

ثم ذكرهم بعظمة قدرة الله ، وشديد بطشه وقوته ، فقال لهم : انظروا كيف خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض ، وجعل فيهن قرراً وشمساً للإنارة الكون وحياته ؟ لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾
نوح

ثم ذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم من تراب الأرض ، ثم يعيدهم فيها ، ثم يخرجهم منها ، لقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِلِخْرَاجًا ﴾
نوح

ثم بين لهم عظمة الخالق جلّت قدرته ، وقال لهم : هو الذى جعل لكم الأرض مبسوطةً تمشون وتمرحون فيها ، وتتقلبون عليها ، ليخترقوا منها طرقاً واسعة متفرقة ، لقوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾
 أى طرقاً واسعة
 نوح

وكان نوح عليه السلام يدعوهم لطاعة الله وعبادته ، ويذكرهم بكل هذا
 فى مجالسهم وبيوتهم وهم يعصونه ، ولم يفدهم نصحه ، فقال فى دعائه : رب
 إنهم عصوفى واتبعوا رؤسائهم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، ومكروا
 مكراً عظيماً ، وعكفوا على عبادة أصنامهم الموروثة عن آبائهم ، وهى المذكورة
 فى قوله تعالى :

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا
 خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا
 وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾
 نوح

ولقد أضلت هذه الأصنام كثيراً من الناس فلم تزد الظالمين إلى ضلالاً
 حتى استحقوا من الله أشد العقوبات فى الحياة الآخرة لقوله تعالى :

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾
 نوح
 ومن أجل خطيئاتهم هذه أغرقهم الله بالطوفان ، فأدخلوا ناراً ولم تغن
 عنهم الأصنام التى كانوا يعبدونها من عذاب الله شيئاً .

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ أَنْصَارًا﴾
 نوح

ثم قال نوح داعياً ربه : لا تترك على الأرض من الكافرين الضالين
أحداً

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾
أى واحداً

فإنك إن تركهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كثير الكفران
والجحود مثلهم

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ نوح
ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالرحمة
والغفران قائلاً :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ نوح

ثم دعا على الظالمين بالهلاك قائلاً :

﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ أى هلاكاً ودماراً - نوح
واستمر نوح على هذه الحال ألف سنة إلا خمسين عاماً لقوله تعالى :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ العنكبوت

ثم أوحى الله إلى نوح لما حق على قومه القول ، وأظلمهم أمر الله ، أنه أن لن
يؤمن يا نوح بالله وحده ، ويتبعك على ما تدعوه إليه من قومك ، إلا لمن قد

آمن ، فصدّق بذلك واتبعك ، فلا تحزن بما كانوا يفعلون ، ولا تأسف على ضياع مجهودك الطويل ، فهو عند الله محفوظ ، لأن الله لا يضيع أجر العاملين .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ هود

فإني مهلكهم ، ومنقذك منهم ، ومن اتبعك .

ثم أمره أن يصنع الفلك ، وهو السفينة تحت رعايته وبوحى منه ، ولا يشفع في الذين ظلموا أنفسهم من قومه ، فإنهم محكوم عليهم بالفرق بالطوفان

﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ هود

فأخذ نوح يصنع السفينة كما أمره الله ، وكلّ امرء عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه هزواً ويقولون له : أتحولت نجاراً بعد النبوة وتعمل السفينة في البر ؟ فيقول لهم نوح : إن تسخروا منا ، أي إن تهزءوا بنا اليوم ، فإننا نهزأ بكم في الآخرة . كما تهزءون بنا في الدنيا ، سوف تعلمون أيها القوم إذا جاء أمر الله بالهلاك من يأتيه عذاب يخزيه ويهينه ، ويحل به عذاب دائم لا انقطاع له ؟

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكَلَّمَ مَرَّةً عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ هود

ولما أتم نوح صنع السفينة ، وجاء أمر الله الذي وعده أن يجيء قومه من الطوفان الذي يفرقهم ، فتنجرت ينابيع الأرض وأمطرت السماء مدراراً . وفار التنور ، أى القدر الساخن المملوء بالماء الذى جعل الله فورانه بالماء آية يجيء العذاب لهلاك قوم نوح .

ثم قال الله لنوح : احمل فى السفينة من كل زوجين اثنين ، يعنى ذكرًا وأنثى ، واحمل أهلك أيضاً فى الفلك ما عدا الذى قلت إني مهلكه مع من أهلك من قومك ، وكذا احمل من آمن ، وهم عدد قليل .

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هود

فحملهم نوح فى السفينة ، وقال لهم : اركبوا فيها على بركة الله ، فإنها ستجرى باسم الله ، وترسو باسم الله ، فباسم الله يكون مجراها ومرساها فإن ربي غافر الذنب ، وقابل التوب ، رحيم فلا يعذب بعد التوبة من تاب إليه .

﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

هود

وصارت السفينة تجري بهم ، أى بنوح ومن معه فيها ، فى موج كالجبال ، وقد تخلف ولده (يام) وكان فى معزل عن والده فلم يركب السفينة ، فنادى نوح ابنه قائلاً له : يا بنى اركب معنا فلك ولا تكن مع الكافرين .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَى أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾

هود

فأجابه قائلاً : سأوى إلى جبل يعصمنى وأتحصن به من الماء فيمنعنى من الغرق .

﴿ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾

هود

فقال نوح لابنه : لا مانع اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله ، ولا نجاة من عذابه ، فإنه هو الذى يمنع من يشاء من خلقه ، ويعصم من يشاء ، وحال بين نوح وابنه موج الماء فغرق ، فكان ممن أهلكه الله بالغرق من قوم نوح عليه السلام .

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

هود

ثم قال الله تعالى للأرض ، بعد ما نفذ أمره فى هلاك قوم نوح بما

أهلكهم به من الغرق : يا أرض اشربي ماءك ، ويا سماء كفي عن المطر
وأمسكي ، فشربت الأرض الماء وجفت ، ومضى أمر الله بهلاك قوم نوح ،
واستوت السفينة ورست على جبل بناحية الموصل أو الجزيرة يقال له
(الجودي) وقيل : أبعده الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح ،
وكان جزاؤهم الغرق عقوبةً من الله لهم في الدنيا ، ثم مصيرهم إلى النار
في الآخرة .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود

ثم نادى نوح ربه فقال : يا رب إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق
والهلاك وأهلي أيضاً ، وقد غرق ابني ، وابني من أهلي ، وإن وعدك الحق
الذي لا خلف له ، وأنت أحكم الحاكمين ، فاحكم لي بأن تنجي لي بما وعدتني به ،
من أن تنجي لي أهلي وترجع إليّ ابني .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود

فقال الله لنوح : يا نوح إن الذي أغرقته الذي تذكر أنه من أهلك
ليس هو من أهلك الذي وعدتك أن أنجيهم ؛ لأنه كان لدينك مخالفاً ، وبى
كافراً ، وكان عمله هذا عملاً غير صالح .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هود
والآن وقد أخبرتك عن سؤالك سبب هلاك ابنك الذي أهلكته
فلا تسألني بعدها عما قد طويت علمه عنك من أسباب أفعالي وليس لك
به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين ، أي تبلغ الجهالة بك الظن
ألا أفي لك بوعده وعدتك به حتى تسألني ما ليس لك به علم .
﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فقال نوح عليه السلام ، مستغفراً من زلته مسأله التي سألهما ربه في
أبنه : يا رب إني أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم مما
قد أحطت بعلمه وحدك منفرداً عن خلقك ، فاغفر لي زلتي فيما سألتك
في ابني ، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك أكن
من الخاسرين .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ
لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود

ثم قال الله لنوح : أنزل من الفلك إلى الأرض بسلام مني أنت ومن
معك وبركات (خيرات) وزيادات في الرزق والنسل عليك ، وعلى أمم من
معك ، وأمم ستمتهم في الحياة الدنيا ، ثم يمسهم منا عذاب أليم .

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ
مَعَكَ وَأُمَمٌ سُمَّتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هود
وكان هبوط نوح من السفينة يوم عاشوراء .

روى ابن جرير الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : في أول
يوم رجب ركب نوح في السفينة فصام هو وجميع من معه ، وجرت بهم
السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك إلى المحرم فرست السفينة على الجودي
(يوم عاشوراء) فصام نوح ، وأمر جميع من معه فصاموا شكراً لله ، ولما هبط
نوح ومن كان معه في السفينة قسم الأرض ثلاثاً على بنيهِ الثلاثة : سام ،
وحام ، ويافت ، لكل منهم ثلثها ، قال تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى
نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ الصافات

وقد قيل : إن نوحاً عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة ، وقد انتشر نسله
عليه السلام من عهده إلى وقتنا هذا ، ولذا سُمِّيَ (أبا البشر الثاني) بعد آدم
عليه السلام

صفات سيدنا نوح عليه السلام

سُمِّيَ نوحاً لِكثرة نوحه على نفسه ، وكان أول نبي من أنبياء الشريعة المطهرة ، وأول داع إلى الله تعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبه قومه لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه .

وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً ، وقيل أكبر الأنبياء ، وشيخ المرسلين .

وجعل معجزته في نفسه ؛ لأنه عمر ألف سنة ، ولم ينقص له سن ، ولم تنقص له قوة ، ولم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ .

وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، ولم يلق نبي من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء مثل ما لاقى نوح عليه السلام ، فلذلك قال الله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ النجم
وجُمِلَ ثاني المصطفى في الميثاق والوحي قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ الأحزاب
وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ

بَعْدِهِ ﴾ النساء

وهو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد — صلى الله عليه وسلم .

وأول من أعطاه الله علم الفلك وصنعتة وحفظه بما فيه ، وأجراه فوق الماء وسمّاه شكوراً فقال تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ الإسراء
ولقد أكرمته الله بالسلامة والبركة فقال تعالى :

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ هود

وجعل الله ذريته هم الباقين في الأرض بعد مهلك قومه ، وترك له ذكراً جميلاً فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه به ؛ لأنه من عباد الله المؤمنين به .
وقال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصافات

وهو عليه السلام معصوم ، ولم يصدر منه ما يخالف العصمة .

أما دعاء ربه نجاة ابنه من الغرق ، فكان ذلك منه للاستعاذة وطلب المغفرة ؛ ولا ذنب ولا معصية ، لأنه معصوم ؛ أما قول الله تعالى له :

﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فهو من باب التحذير فقط ، لا نسبة الجهل إليه ، وإنه أتى ذنباً بسؤاله
ربه نجاة ابنه شفقة عليه ؛ لأن استعاذة الأنبياء ، وطلبهم الغفران ، ودعائهم
كل ذلك من قبل إظهار العبودية لمالك الملك الكبير المتعال .

دعاء نوح على الكفار

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَبَّاراً إِنَّكَ
إِنْ تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . رَبِّ اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدْ
الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ (أى هلاكاً) نوح

١٦ - قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

سيدنا إبراهيم ، هو خليل الله عليه الصلاة والسلام ابن (آزر) ويتصل نسبه (بسام) بن نوح عليه السلام ، وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها ممن يعبدها ؛ أما إبراهيم عليه السلام فقد أنار الله بصيرته وهده إلى الرشـد ، فلم أن الأصنام لا تبهر شيئاً ، ولا تسمع نداء ، ولا تجيب دعاء ، ولا تضر ولا تنفع ، وأنها مثل الخشب الذى تصنع منه ، وأن أباه هو الذى يصنعها ، ورأى أن أهله وقومه يعبدونها من دون الله ، فشرع فى أن ينهـم عن عبادتها ، ويستـهـزئ بهـم ، وأن يقيم عليهم الحجـة فى توحيد الله وعبادته ودعا أباه إلى دين الله :

فقال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم على عبادتها مواظبون ؟
قالوا : وجدنا آباءنا يعبدونها فخذونا حذوهم فى عبادتها .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الأنبياء

فاستبعدوا أن يبلغ الامر بإبراهيم أن يحكم عليهم بضلالهم وضلال آبائهم ،
فقالوا له : أتقول ذلك جدًّا أم هزلًا ؟ قال : بل جئتكم بالحق لا اللعب ،
ربكم رب السموات والأرض الذى خلقهن ، وأنا على ذلكن من الشاهدين ،
فإياه فاعبدوا لا هذه التماثيل

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ . قَالَ
بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ
مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الأنبياء

فأقسم إبراهيم بالله قائلًا : لا والله لا كسرن أصنامكم بعد أن تذهبوا
إلى عيدكم . فدخل إلى هيكلهم فحطم آلهتهم قطعًا ، عدا أكبرها حجمًا ، فقد
تركه حتى إذا رجعوا إليه بالسؤال عن فعل ذلك ؛ وقالوا : من فعل هذا
بآلهتنا إنه لمن الظالمين ؟ ردَّهم إلى سؤال آلهتهم لتجيب إن كانت تملك
الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ نَ أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ
فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِذْ لَا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مِنْ فَسَلْ هَذَا
بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ الأنبياء

وأراد إبراهيم بهذه الطريقة أن يفهم القوم مركز آلهتهم ويقم

لهم الحجة عملياً على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها أو
تكسبهم خيراً إذا عبدوها ؛ لأن البرهان العملي أوقع في النفس من غيره
ثم قالوا لإبراهيم : أنت صنعتَ هذا بالهتينا يا إبراهيم ؟ قال : لا . بل
فعله كبيرهم هذا ، وأشار إلى الصنم الأكبر الذي تركه سليماً ، وقال : فاسألوهم
إن كانوا ينطقون ؟

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْمَنَ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فلما سمعوا هذا القول من إبراهيم عليه السلام رجعوا إلى صوابهم ونظر
بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم معشر القوم لظالمون لهذا الرجل في مسألتكم
إياه ، وعرفوا أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ، ولا تدفع ولا تبطش ، ولا تتكلم
فتخبر من صنع هذا بها ، فنكسوا رؤوسهم اعترافاً بإقامه الحجة عليهم من
إبراهيم ، ثم عادوا فانقلبوا إلى المجادلة بالباطل وقالوا له : هل علمت أن هؤلاء
الأصنام لا ينطقون ؟

قال تعالى : ﴿ فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ
نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فقال لهم إبراهيم : أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟

وهأنتم أولاً قد علمتم أنها لم تمنع نفسها من أرادها بسوء ، ولم تقدر أن تنطق
 إن سئلت عن يمسها بسوء فتخبر به . قبحاً لكم وللآلهة التي تعبدونها
 من دون الله ! فهلا تعقلون ذلك ، وتتركون عبادتها وتعبدون الله الذي فطر
 السموات والأرض والذي بيده النفع والضر ؟

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا
 وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ لِكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
 الأنبياء

فلما عجزوا عن مجادلته في الحق ، ولم تصادف موعظته منهم قلوباً
 واعية ، وأذنًا صاغيةً ، عمدوا إلى اتخاذ سلاح القوى الجبار الذي لاحق معه
 إزاء الحق الضعيف ، فقال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم بالنار ، وانصروا
 ألهتكم إن كنتم ناصريها حقاً . فأوقدوا ناراً عظيمةً وألقوه فيها
 قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 قَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء

فنجاه الله منها وقال : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، فلم تصبه
 بسوء بإذن الله ولم تؤثر فيه مطلقاً ، فلما رأى قوم إبراهيم هذه المعجزة آمن به
 بعضهم ، وأصرّ الباقون على كفرهم وعنادهم :
 وأرادوا به كيداً فأهلكهم الله وجعلهم من الأخسرين الهالكين .

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ الأنبياء

ونجى الله إبراهيم ولوطاً من أعدائهما (النمرود وقومه) فنقلهما من أرض العراق إلى أرض الشام ، وهى الأرض المباركة التى بارك الله فيها للعالمين ، فنزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة ، وبينهما مسيرة ليلة .

قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء

١ — مجادلة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه

إن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام ، ينفحتونها ويسمونها بأسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما ، فأراد إبراهيم أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة تعبد من دون الله . وإنما الإله الذى يعبد هو الذى خلق السموات والأرض ويده ملكوت كل ما فيها ، فقال إبراهيم لأبيه (آزر) : يا أبتِ أتتخذ الأصنام آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، بعيدين عن الحق .

وقد أراه الله ملكوت السموات والأرض ، أى عجائبهما وبدائعهما
وأسرار الربوبية فيهما ، ليستدل بهما على وجود بارئهما ، ويكون من أصحاب
اليقين ..

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي
أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمَوْقِنِينَ ﴾ الأنعام

فلما ستره الليل بظلامه رأى كوكباً ، وكان قومه يعبدون الكواكب ،
فأراد أن يرشداهم إلى الله من طريق الحسِّ والنظر والاستدلال ، فقال :
هذا ربى . فلما غاب . قال لا أحب الغائبين ، فما بالك بعبادتهم ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا
أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ الأنعام

فلما طلع القمر قال : هذا ربى . فلما غاب ، قال : لئن لم يهتدى ربى إليه
لأكونن من الضالين ، أى من القوم الذين أخطأوا الحق فلم يصيبوا الهدى
وعبدوا غير الله .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن
لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ الأنعام

ولما رأى الشمس طالعة قال : هذا الطالع ربى . هذا أكبر من الكواكب والقمر ، فلما غابت الشمس قال إبراهيم لقومه : يا قوم : إني برىء مما تشركون ، أى من عبادة الأصنام ، والكواكب والقمر ، والشمس

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴾

الأنعام

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام الحق وعرفه شهد شهادة الحق ، وقال لقومه : يا قوم إني برىء مما تشركون مع الله الذى خلقنى وخلقكم فى عبادته من ألهتكم وأصنامكم (وإني وجهت وجهى) فى عبادتى إلى الله الذى خلق السموات والأرض الدائم الذى يبقى ولا يفنى ، ويحيى ويميت (حنيفاً) أى مستقيماً مخلصاً ، وما أنا من المشركين ، الذين أشركوا فى عبادة الله غيره ، فليست ممن يدين بدينكم ، ويتبع ملتكم أيها المشركون

قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام

فجادله قومه ، وخاصموه فى توحيد الله ، وبراءته من الأصنام ، بقولهم : إن آلهتهم التى يعبدونها خير من إلهه . فقال لهم إبراهيم : أتجادلوننى فى توحيد

الله ، وإخلاص العمل له دون ماسواه ، وقد وفقني ربي وهداني إلى معرفة وحدانيته ، وبصرني طريق الحق ، طريق الهدى والرشاد ، حتى أيقنت ألا شيء يستحق أن يعبد سواه ، ولا أخاف من آلهتكم التي تدعونها من دونه أن ينالني منها شيء في نفسي من سوء ومكروه ؛ لأنها لا تنفع ولا تضر إلا أن يشاء الله ؛ ولكنني أخاف الله الذي وسع كل شيء علماً ، فلا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء أفلا تتذكرون وتعتبرون أيها الجاهلة فتمقلوا خطأ ، ما أنتم مقيمون عليه من عبادتكم صورة مصورة ، وخشبة منحوتة ، لا تقدر على ضر ولا نفع ، ولا تفقه ولا تعقل شيئاً

قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

ثم قال لهم : وكيف أخاف وأرهب أصنامكم وهم لا يضررون ولا ينفعون ؟ ولو كانت تنفع أو تضر لدفعت عن نفسي كسري إياها ، وضربي لها بالقأس

وكيف أنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم ؟ وهو القادر على نفعكم وضركم فيما ارتكبتموه من الجريمة الشنعاء ، وهي أنكم أشركتم

بالله ما لم ينزل به عليكم حجةً ناهضةً وبرهاناً ، ولم يجعل لكم به عذراً ، فأى الفريقين منا أحق بأن تكون نفسه آمنة مطمئنة إن كنتم تعلمون صدق ما أقول ، وحقيقة ما أحتج به عليكم .

قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام

وكان فصل القضاء من الله بين إبراهيم ، خليله عليه السلام ، وبين من حاجه من قومه من أهل الشرك بالله قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ الأنعام

أى الذين أخلصوا لله كإخلاص إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وتوحيده ، ولم يخلطوا بإيمانهم بشرك ، أولئك لهم الأمن الصحيح وهم مهتدون .

وكان قول إبراهيم عليه السلام لمخاصميهِ من قومه المشركين : أى الفريقين منا أحق بالأمن والطمأنينة ؟ الذى يعبد رباً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة ، أم الذى يعبد أرباباً كثيرة ؟ هو حجة من الله منحها إياه على قومه فرفع بها درجته عليهم ، وشرفه بها فى الدنيا والآخرة ، فجعله من عباده الصالحين ،

فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُخَفِّضُ مَنْ يَشَاءُ ، حَكِيمٌ فِي رَفْعِهِ وَخَفِضِهِ ، عَلِيمٌ بِحَالِ مَنْ يَرْفَعُهُ أَوْ يَخَفِّضُهُ وَاسْتِعْدَادَهُ لَهُ .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام

٢ — محاوراة إبراهيم لأبيه ، ونصحه له بعبادة الله

وترك عبادة الأوثان

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر في كتاب الله إبراهيم خليل الرحمن ، فاقصص على هؤلاء المشركين قصصه وقصص أبيه (إنه كان صديقاً) أى من أهل الصدق في حديثه ، وأخباره ، ومواعيده لا يكذب .

(وكان نبياً) قد نبأه الله وأوحى إليه ؛ واذكره إذ قال لأبيه : يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ؟ أى كيف تصنع بعبادة الوثن الذي لا يضر ولا ينفع ؟

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ مريم

ثم قال له : يا أبتِ إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتكَ ، فاتَّبِعْنِي واقبل نصيحتي أهدك الطريق السويَّ المستقيم ، الذي لا تضل فيه إن لزمته ، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه .

قال تعالى ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا أَمَّيْتُكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ مريم

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ عَاصِيًا لِلَّهِ

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ مريم

يا أبتِ إني أعلم أنك إن مُتَّ على عبادة الشيطان يمسك عذاب من الله فتكون موالياً للشيطان ، ويتبرأ الله منك فتهلك .

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ مريم

فقال أبو إبراهيم لابنه ، حينما دعاه إلى عبادة الله ، وترك عبادة الشيطان والبراءة من الأوثان والأصنام : أرغب أنت يا إبراهيم عن عبادة آلهتي وكارهة لها ؟ لأن لم تنته عن ذكرها بسوء لأقذفتك بالكلام المؤلم ، وبالسب والقول القبيح ، واهجرني ملياً ، أي ابعد من عقوبتي حيناً من الدهر .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ
تَذِقْهُ لَأَزْجُجَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ مريم

فقال إبراهيم مودعاً أباه ، بعد أن توعده على نصيحته إياه : سلام
عليك يا أبتِ ، وسأستغفر لك ربى ، إني عهدته لطيفاً بى ، يحيب دعائى إذا
دعوته ، وإنى لمتهجنبك وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام ،
داعياً ربى بإخلاص العبادة له ، وإفراده بالربوبية ، عسى ألا أكون
بدعاء ربى شقيماً ، خائباً مثلكم فى دعاء آلهتكم ، فإنه يحيب دعائى ويعطينى
ما أسأله ، قال تعالى :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بى حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى
شَقِيًّا ﴾ مريم

ولما تجنب إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من الأوثان ، آنس
الله وحشته من فراقهم ، وأبدله بهم من هو خير منهم ، وأكرم على الله ،
فوهب له ابنه إسحق ، وابن ابنه يعقوب ، وجعلهم كلهم أى إبراهيم وإسحق
ويعقوب أنبياء ، ووهب لهم من رحمته الحكمة والصلاح وجعل لهم أحداثنة
عالية بين الناس على توالى الزمان :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أُعْتَزِلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ
لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٣٣﴾ مريم

فيتضح من ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان حليماً ، رقيق القلب
عطوفاً ، رءوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه ، وأنه كما باعد والده بينه وبينه
تلطف هو في المقاربة ، وترفق في دعوته وهدايته وتحذيره ؛ ولكن كل
ذلك لم يند لغلبة الشقاء عليه

٣ - تبرؤ إبراهيم من أبيه لكفره بالله

كان إبراهيم عليه السلام قد ظفر بوعد من أبيه أنه سيؤمن به ، فلهذا
استغفر الله له ؛ ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه ، ولا يزال
عبداً لله ففبرأ إبراهيم من أبيه وترك الدعاء والاستغفار له ، فكان إبراهيم
بدعاء ربه شاكراً له ، وخليماً عن سبه وناله بالمكروه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ ﴾ التوبة

٤ — مجادلة إبراهيم لقومه وقوله : إني سقيم

كان إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام يسير على منهاجه وملتقه ، إذ جاء ربه بقلب سليم من الشرك ، مخلص له التوحيد ، وقال لأبيه وقومه : أي شيء تعبدون ؟ ألا تعقلون أن ماتعبدونه من دون الله هو كذب وباطل ؟ فما ظنكم رب العالمين ؟ ماذا يصنع بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَنْفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الصافات

ولما كان قومه يشغلون بالنجيم ، نظر نظرة في النجوم ليوضحهم أنه يتعرف ما يصير إليه حالهم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال : (إني سقيم) أي مطعون مصاب بالطاعون

وكان قومه يهربون من الطاعون فهربوا منه ، وتركوه في بيت آلهتهم مخافة أن يعديهم ، فمال إلى آلهتهم وقال : ألا تأكلون ؟ فلما لم يرها تأكل ، قال لها : مالكم لا تأكلون ؟ فلم يرها تنطق ، فقال لها : مالكم لا تنطقون ، مستهزئاً بها .

قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الشُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَمِيعٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾

الصفات

فقال عليها وضربها بيده اليمنى ' بفأس ليكسرهما ، فرجع إليه قومه يسرعون ، فقال لهم : أيها الحق : أتعبدون ما تنتهون به بأيديكم وأدواتكم من الأصنام ؟ والله خلقكم والذي تعملونه من الأصنام ، وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا يستعملونها في نحت الأصنام

قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ قَالَ أَعْبُدُونِ مَا تَعْبُدُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

الصفات

فتآمروا عليه وقالوا : ابنوا لإبراهيم بنيانا - قيل : إنه بقوله بنيانا يشبه التنوير (القرن) ثم نقلوا إليه الخطب وأوقدوا فيه ، وألقوه في النار وأرادوا حرقه ؛ ولكن الله (حافظه من كل سوء) أهلكتهم ، وجعلهم الأشفلين الأذلين ، ورد كيدهم في نحورهم

ولما نجاه الله قال لهم : إني ذاهب حيث أمرني ربي (إلى أرض الشام) لآتجرد ، وأفرغ فيه أعبادته ، إنه سيهديني ويعينني على ذلك

قال تعالى : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٢٦﴾
الصفات

مجادلة أخرى لإبراهيم مع أبيه وقومه

ومن أنباء إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه وقومه : أى شيء تعبدون ؟ فقالوا : نعبد أصناماً فنبقى مواظبين على عبادتها وخدمتها . فقال لهم : هل هؤلاء الآلهة تسمع دعاءكم إذ تدعونهم ؟ أو تنفعكم هذه الأصنام فيرزقونكم شيئاً على عبادتكم لها ؟ أو يضررونكم فيعاقبونكم على ترككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم أو يهلكوكم ويهلكوا أولادكم ؟ قالوا : هـكذا وجدنا من قبل آبائنا يعبدونها ، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها ، فنحن نفعل ذلك اقتداء بهم ؛ واتباعاً لما هجهم وخطهم

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ الشعراء

فقال لهم إبراهيم : أفرأيت أيها القوم ما كنتم تعبدونه من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم أعدائي ، وأنا برئ من عبادتهم ، ولا أعبد

سوى رب العالمين ، الذى خلقنى ويهدينى بفضله ، ويسددنى للرشاد ،
والذى هو يطعمنى ويسقئنى ، ويهينى لى مقومات الحياة من طعام
وشراب ، ويرزقنى الأرزاق ، وهو الذى يشفينى إذا مرضت ، وإذا اعتل
جسمى فهو يبرئه ويعافيه ، وهو الذى سيميتنى عند انقضاء أجلى ، ثم
يحيينى للحساب والثواب ، وهو الذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين
(يوم القيامة)

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَأَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي
يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾
الشعراء

وهذا الكلام من إبراهيم احتجاج على قومه أنه لا تكون العبادة
إلا لمن يفعل كل هذه الأفعال ، لا لمن لا قدرة له على ذلك ، ولا يرجى منه
نفع ولا ضرر .

ثم بعد هذا الاحتجاج تضرع إلى ربه وسأله أن يهب له كمالاً فى العلم
والعمل ليستعد به للقيام بأعباء الرسالة ، وأن يلحقه بالصالحين من رسله ،
وأن يجعل له فى الناس ذكراً جميلاً ، وثناءً حسناً باقياً ، وأن يجعله من ورثة
جنة النعيم

قال تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي
إِسَانًا صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ الشعراء

ثم طلب الصفح والمغفرة لأبيه لأنه كان من المشركين الضالين . كما أنه
طلب لنفسه أن لا يخذله ولا يذله يوم البعث والنشور ، أى يوم يبعث الناس
من قبورهم لموقف القيامة (هذا اليوم المشهود) الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون
للدفاع عن العقاب من الله والنجاة منه إلا من أتى الله وقلبه سليم من الشرك
مخلص له فى العبادة

قال تعالى : ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
الشعراء

رحلة ابراهيم إلى فلسطين ثم إلى مصر

لما تبرأ إبراهيم من أبيه ، ولم يطلب له المقام بين أهله وقومه ، ذهب أولاً
إلى (أور السكلدانيين) ثم إلى (حاران) ورحل بعد ذلك إلى (فلسطين) ومعه
زوجه السيدة (سارة) وابن أخيه (لوط) ومع لوط زوجته ، وهم الذين آمنوا
بإبراهيم كما قال تعالى :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ العنكبوت

وسكن في تلك الأنحاء ، وكانت أرض (الكنعانيين) ؛ ولكنه لم يطل به
المقام فانتقل إلى مصر ، وذلك في عهد ملوك الرعاة (وهم العماليق)
ولما سمع فرعون مصر بأن السيدة (سارة) زوجة إبراهيم الخليل الطاهرة
المصونة من أجمال النساء ، أرسل إلى إبراهيم عليه السلام . فلما جاء قال :
ما هذه المرأة منك ؟ فيخاف إبراهيم أن يصرأى أن يقتله ليتزوج منها
فقال له : هي أختي (يريد أخته في الإسلام) فأتى سارة وقال : ياسارة ليس
على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وأن هذا الجبار سألني عنك
فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبي . فأرسل إليها ؛ فلما دخلت عليه ذهب يتناولها
بيده ، فأخذ ووقف يده ، فقال : ادعى الله لي ولا أضرك . فدعت الله فأطلق
يده . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لي ولا أضرك ،
فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجابها فقال : إنكم لم تأتونني بإنسان إنما أنتموني
بشيطان صرغني مرتين ، فوهب لها (هاجر) لخدمتها .

وكانت (هاجر) بنت ملك من ملوك القبط ، فأنت (سارة) إبراهيم
عليه السلام وهو قائم يصلي ، فأشار بيده إليها ما شأنك ؟ فقالت سارة : رد الله
كيد الكافر أو الفاجر في نحره ، ولم يظفر مني بشيء .

وكانت (سارة) زوج إبراهيم عليه السلام عاقراً لاتلد ، وتأملت إذ لم تجد لإبراهيم ولداً ، وهى قد شاخت ولايرجى لها أن تكون أمّاً ، فاتفقت معه على أن يتزوج من (هاجر) فدخل بها وأنت منه بغلام (هو اسماعيل عليه السلام) ثم رزقت سارة بأسحق عليه السلام كاسبق فى قصتهما فى الجزء الأول

بيان الثلاث كذبات التى نسبت لإبراهيم عليه السلام

لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات (وهى ليست من الكذب الحقيقى ؛ بل فى صورة الكذب وكلها فى الله تعالى)

الأولى : قوله لقومه : إنى سقيم . أراد به سقم النفس مما رآه من ضلالتهم

الثانية : قوله لهم حينما سألوه عن كسر الأصنام : بل فعله كبيرهم ، أى كبير الأصنام ، قال ذلك على سبيل التهمك والاستهزاء والتبكيك وهذا لا يعد كذباً حقيقياً

الثالثة : قوله لفرعون الجبار حينما سأله عن (سارة) زوجته : هى أختى ويريد أخته فى الدين وليس هذا كذباً ؛ وهذه الثلاث كذبات واردة فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه

والنتيجة أن إبراهيم عليه السلام ماقال كذباً ؛ لأنه نبي معصوم ، صادق في قوله وفعله ، مؤيد بقول الله تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ مريم

حاجة إبراهيم للملك

لما كان قوم إبراهيم يعبدون ملوكهم مع آلهتهم أحب ملوكهم « النمرود » أن يرجع إبراهيم عن شريعته الجديدة ، المخالفة لشريعة قومه ، وأن يعبد آلهته فقال له :

يا إبراهيم من ربك الذي بعثك ، وتدعو إلى عبادته ، وتذكر عظمته وقدرته ؟

قال إبراهيم عليه السلام : ربي الذي يُحيي ويميت
قال النمرود : أنا كذلك أحيي وأميت ، إنى أستبقي من أريد وأقتل
من أريد

فقال له إبراهيم : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب

فخبر النمرود ولم يجر جواباً ، ولزمته الحجة ، والله لا يهدي أهل الكفر إلى حجة يُدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاصمة والمحااجة

قال تعالى : ﴿ اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِي حَاجَّ اِبْرٰهِيْمَ فِي رَبِّهٖ اَنْ اَتَاَهُ اللّٰهُ الْمَلَكَ اِذْ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ اَنَا اَحْيٰى وَمُيْتٌ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ فَاِنَّ اللّٰهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴾ البقرة

إبراهيم والملائكة وتبشيرهم بإسحق

إن إبراهيم عليه السلام كان يحب إكرام الضيف ، فدخل عليه ضيوف من (الملائكة) فظلمهم آدميين ، فخيَّاهم بالسلام كما حيَّوه ، فقدم إليهم طعاماً ، مجلَّاسميناً ، بعد أن ذبحه وسواه في النار وجاء به إليهم ، فأمسكوا عن أكله ، ولما رأهم لم يأكلوا منه ، ولم تمتد إليه أيديهم ، ارتاب في شأنهم وأوجس منهم خيفةً فخطبهم في ذلك فعلم أنهم ملائكة ، وهذا روعه وبشروه بغلام عليم ، وهو (إسحق عليه السلام)

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ اِبْرٰهِيْمَ الْمَكْرَمِيْنَ اِذْ دَخَلُوْا عَلَيْهِ فَقَالُوْا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُوْنَ فَرَاغَ اِلَى اَهْلِهٖ فَجَاء بِعَجَلٍ سَمِيْنَ فَقَرَّبَهُ اِلَيْهِمْ قَالَ اَلَا تَاْكُلُوْنَ فَاَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوْا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوْهُ بِغُلَامٍ عَلِيْمٍ ﴾ الذاريات

فَأَقْبَلَتْ إِمْرَأَتَهُ (سارة) فِي صِيَاحٍ ، وَلَطَمَتْ وَجْهَهَا مَتَعِجِبَةً وَقَالَتْ :
كَيْفَ أُلِدَ وَأَنَا امْرَأَةٌ عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَا تَلِدُ ؟ فَقَالُوا لَهَا . كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ وَقَدَرُ
إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (أى فى شدة الكرب)
فَصَكَتْ (لظمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ
هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ الذاريات

ثم التفت إليهم إبراهيم وقال لهم : ما شأنكم الذى جئتم له أيها
المرسلون ؟

قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لنسقط عليهم حجارة من طين ، معلة
عند ربك للمتجاوزين حدود الله فى التمدى ، الكافرين به من قوم لوط ،
فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، أى من قرية (سدوم) وهى القرية التى
يسكنها قوم لوط فى مكان (البحر الميت) المعروف (ببحر لوط)

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات

وقد خاف إبراهيم من العذاب النازل أن يمس ابن أخيه لوطاً فقال لهم :

إن فيها لوطاً ؛ فقالوا له : نحن أعلم بمن فيها ، وأنه وأهله من الناجين
وقد أخبر إبراهيم ، بأن وقوع العذاب بقوم لوط أمر محتم لا تقبل فيه
شفاعة ، ولا يفيد عنه جدال

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ
يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ اغْرُضْ
عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

هود

سؤال إبراهيم لربه رؤية إحياء الموتى

لما كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً بالله وبالبعث والنشور ، وأن الله يحيي
الموتى ويحشرهم ليوم لا ريب فيه ، ليجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء
بإساءته ، أراد أن يزداد يقيناً وإيماناً ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ،
فقال له : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، من غير شك في الله
تعالى ولا في قدرته

فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيذبجها ، ويفرق أجزاءها على
الجبال ، ثم يدعوها ، فإنه سيجدها آتية إليه ، فحينئذ يكون قد رأى الميت قد
عاد حياً . فأخذ أربعة من الطير فذبجها ، وفرق أجزاءها على الجبال ، ثم دعاها
فعدت إليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعاماً

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثُمُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لَيُطْمَنِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْمُوكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمْ أَنَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة

وعُدَّت هذه من المعجزات التي منحها الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام وأكرمه بها

إبراهيم أسوة حسنة للمؤمنين

يقول الله تعالى للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به والذين معه من أنبياء الله .

إذ قالوا لقومهم : إنا بُراء منكم ، ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد ، لقد أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله ، وجحدنا عبادتكم ومما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً ، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله وعبادتكم ماسواه ، ولا صلح بيننا حتى تؤمنوا بالله وحده

لقد كانت لكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه من

الأنبياء في كل هذه الأمور، إلا في أمر واحد، وهو قول إبراهيم لأبيه (لأستغفرن لك) لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرأوا من أعداء الله المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرأوا من عبادة ماسواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء

وقوله لأبيه: وما أملك لك من الله من شيء، أى لا يمكننى أن أدفع عنك من الله من عقوبة عاقبك بها على كفرك به، ولا أغنى عنك شيئاً ولقد قال إبراهيم والأنبياء الذين معه صلوات الله عليهم: ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، ورجعنا بالتوبة مما تكره الى ما تحب وترضى، وإليك مصيرنا ومرجعنا، يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا يوم القيامة في الموقف العظيم

وقولهم أيضاً: ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا بك وعبدوا غيرك بأن تسلطهم علينا فيروا أنهم على حق وإننا على باطل، فتجعلنا بذلك فتنةً لهم، واغفر لنا دنوبنا بعفوك ياربنا، إنك أنت العزيز الحكيم.

لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوةً حسنةً في إبراهيم والذين معه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثواب الله، والنجاة في اليوم الآخر، فمن يتول عما أمره الله به وأعرض عنه وأدبر

مستكبراً ، ووالى أعداء الله ، وألقى إليهم بالمودة ، فإن الله غنى عن إيمانه به ،
وطاعته إياه ، وعن جميع خلقه ، وهو الحميد الذى له الحمد والثناء

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا
بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ
إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ
فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَقُولُ فَإِنَّ
اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ المتحفة

العبرة فى قصة إبراهيم عليه السلام

١ — أنه كان مؤمناً بالله حق الإيمان ، وكان جريئاً فى الحق ، ولذا لم
تأخذه فى الله لومة لائم ، وقام بتكسير الأصنام وجعلها قطعاً ، وترك كبيراً لهم
وجعله وسيلةً لحاجتهم حتى أفهمهم ، ولما ضاقوا به ذرعاً أقوه فى النار
وهو لم يعبأ بهم ، ولم يخف منهم ، وكانت النار عليه برداً وسلاماً (وهذا
من المعجزات التى أوحى الله إليه بها)

٢ — أنه لم يدخر وسعاً في ابتكار أساليب الدعاية إلى الحق وتوحيد الله ، فتارة يلجأ إلى النوم ، علّه يجد فيها أدلة إقناع ، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد جهر بأمره قائلاً : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام

٣ — أنه كان يجادل الملك (المروذ) ويحاجه غير هيّاب ولا وجل ، حتى أزمه الحجة والبرهان الخزي

٤ — أنه تبرأ من والده لـ كفره ؛ ومع ذلك كان رقيق القلب ، واسع الصدر ، طويل البال ، متواضعاً لأبيه حينما قال له أبوه :

﴿ اِنَّ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرْ نِي مَلِيًّا ﴾ مريم
فأجابه بقوله : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ مريم

وقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِي يَا أَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الشعراء
(وُسْمَى إبراهيم) ومعناه : الأب الرحيم

٥ — أنه كان كريماً لضيوفه ، بدليل أنه ذبح لثلاثة أضياف عجلاً سمياً حفاوة بهم ، مع أنه كان يكفيهم الشيء القليل وهو أول من أضاف الضيف

٦ — إنه كان محباً للاستطلاع ، والوقوف على حقائق الأمور ، والوقوف على دقائق صنع الله تعالى ، ولذلك طلب من الله أن يريه إحياء الموتى ليطن قلبه

٧ — إنه كان قائماً على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر ربه فيما أحب وأكره ، بدون تبرم أو تذمر ، متحلياً بالتقوى والطاعة ، والشكر والصبر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة
ولذا اصطفاه الله في الدنيا وجعله في الآخرة من الصالحين ، فهو أبو الأنبياء وتاج الأصفياء

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ البقرة

٨ — وأما صبره على المكاره ، واتباعه أمر ربه ، فيتجلى في تقديمه ولده (إسماعيل) عليه السلام ليذبحه بيده ويقر به قرباناً لله تعالى ؛ وسبق ذكر هذه المسألة في قصة (إسماعيل) عليه السلام في الجزء الأول

١٥ - قصة موسى الكليم عليه السلام

١٦ - وقصة هرون عليه السلام

(لارتباطها بها)

موسى عليه السلام هو ابن عمران ، بن قاهت . بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، وقد أرسله الله لهداية فرعون وقومه حينما طغى وبنى وادعى الألوهية ، وعبداه الناس خوفاً منه ، وكان يقول لهم : أنا ربكم الأعلى . ذلك أنه لما علا فرعون فى الأرض ، وبنى ، وجعل أهلها فرقاً أخذ يذبح أبناء طائفة منهم ، ويستحي نساءهم . ويعذب طائفة ثانية ، ويستعبد طائفة ثالثة ؛ لأنه كان من المفسدين ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْـَـفِدِينَ ﴾

القصص

والسبب الذى حمله على ذلك ، أنه رأى فى المنام ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت إلى بيوت مصر فأحرقتها وأحرق القبط ، وترك بنى اسرائيل ؛ فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن تأويل رؤياه ، فقالوا له يخرج من هذا البلد الذى جاء منه بنو اسرائيل (أى بيت المقدس)

رجل يكون على يديه هلاك مصر وملوكها ، فأمر في بني إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلا لأبجوه ، ولا تولد لهم جارية إلا تركت ؛ وقال للقمبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم ، واجعلوا بني إسرائيل يقومون بتلك الأعمال القذرة ، فجعلوا بني إسرائيل في أعمال غلمانهم ، وأدخلوا غلمانهم

ولكن الله جنبت قدرته أراد أن يحبط عمل فرعون ويذله ، ويجعل الذين استضعفهم وهم بنو إسرائيل ولاية وملوكاً ، ويجعلهم الوارثين لآل فرعون ، يرثون الملك من بعد ملكهم ، ويمكن لهم في الأرض بالشام ومصر

ويُرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يتوقعونه من هلاكهم وخراب منازلهم ودورهم ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَسِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ القصص

ولادة موسى وإرضاعه

وفي هذا العهد ولد موسى^١ بن عمران عليه السلام ، فأوحى الله إلى أمه أن ترضعه ، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليم

(في النيل) وبشرها ألا تخاف ولا تحزن لفراقه ، فإن الله سيبرئها ،
ويجعله رسولا من عنده إلى هذا الطاغية لهلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم
فيه من البلاء على يديه ، لقوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ
وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

القصص

فدعت أم موسى نجاراً فصنع له تابوتاً ، وجعل مفتاح التابوت من داخله ،
ووضعت فيه وألقته في اليم كما أمرها الله ، فالتقطه آل فرعون وأخذوه ،
وأدخلوه بيت فرعون ظناً منهم أن فيه مالا

فلما فتحتة (آسية) امرأة فرعون وجدت به صبياً ، فلما نظرت إليه
أخذتها الشفقة والرحمة فأحبته وسمته موسى ، لأنه وجد بين الماء والشجر ،
والماء بلغتهم (المو) و (سا) الشجر ، فسمى بصفة المكان الذي وجد فيه
(موسى) .

ولما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه ، فلم تزل (آسية) تكلمه حتى
تركه لها ، وقال : إنى أخاف أن يكون هذا الصبي من بني إسرائيل ، وأن
يكون هذا على يديه هلاكنا ، ويكون عدواً لنا في ديننا ، وحزناً علينا بما
ينالنا منه من المكروه ، ولذا قال الله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ القصص

أى أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وكافرين بربهم فلذلك
كان لهم موسى عدوًّا وحزنًا

وقالت امرأة فرعون له : هذا قرة عين لى ولك يا فرعون ، فلا تقتله
عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ، وهم لا يشعرون ، أنه سيكون سبب هلاكهم ،
وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص

وأصبح قلب أم موسى فارغًا من كل شيء إلا من همم موسى خوفًا على
ابنها من وقوعه فى يد فرعون فيذبحه ، وأنها كادت تبدي خوفها عليه وتقول
يا ابناه لولا أن الله عصمها ، وثبت قلبها وأسكت لسانها ، لتسكون من المؤمنين
بوعده الله المؤمنين به ، لقوله تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا
عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ القصص

وقالت أم موسى لأختها (مريم) حين ألقته فى البحر ، اقتنى أثره ،
وتتبعى خبره ، عن بعد ، بحيث لا يشعرون بك أنك أخته

لَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص

ولما امتنع موسى عن الرضاعة من ثدى المراضع التي أحضرت إليه ،
ورأت أخته إعراضه وامتناعه عن الرضاعة منهم ، قالت : هل أدلكم على
أهل بيت يكفلونه لكم ، ويشفقون عليه ، ويقومون بخدمته ، ويكونون له
من الناصحين في أمر تدبيره وترتيبه ؟

فلما قالت لهم ذلك أخذوها وقالوا : إنك قد عرفت أهل هذا الغلام
فدلينا على أهله . فقالت : ما أعرفهم ، وإما أردت أن يكونوا ناصحين
وحرصاً على مسرة الملك ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ القصص

فأمروها ، فأحضرت أمها ، فلما حملته أقبل على ثديها بشغف ورغبة
فبذلك ، تحقق وعد الله لأمه وأرجعه إليها لتقرّ عينها به ، وتسمر ولا
تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، وإن كان أكثر الناس لا يصدقون ذلك
وذلك قوله تعالى :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَإِنَّهُنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ القصص

تربية موسى في بيت فرعون

بعد أن أتمت أم موسى 'رضاعه أتت به إلى بيت فرعون ، فأكرمته (آسية) امرأة فرعون وفرحت به ، وأبقتة عندها ، فتربى كما كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد المرعية في تلك الأيام ، حتى بلغ أشده ، فكان يركب سراكب فرعون ، ويلبس كفرعون ، وكان يدعى أنه (موسى بن فرعون)

ولما بلغ موسى غاية نموه ، واشتد ساعده وقواه ، واستوى جسمًا وعقلًا وتم خلقه واستحكم ، وبلغ أربعين سنة (وقال بعضهم ثلاثين سنة) آتاه الله الحكمة ، وطرق الحكم ، والعلوم الدينية ، والسياسية ، وكذلك يجزى الله المحسنين من عباده كما جازى موسى على طاعته وإحسانه ، لقوله تعالى :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ القصص

خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسبيله

لما خرج موسى من مصر حتى دخل (منف) وقت الظهيرة ، والناس

قائلون أى (نأتمون وقت القيلولة) لا يتوقعون حضوره فى هذا الوقت وهم فى غفلة عنه ، وكانت الأسواق مقفلة ، والطرق خاليةً وجد رجلين يتقاتلان : أحدهما إسرائيلي من أهل دينه يقال له (السامرى) والآخر قببطى مصرى من آل فرعون يقال له (فاتون) لأن القببطى أراد تسخير الإسرائيلى فى حمل حطب إلى مخبزه ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى ، فجاء إلى المصرى وكرهه وكرهه كانت القاضية عليه ، وهو لا يريد قتله ؛ ولكن هكذا أراد الله فواراه التراب ودفنسه ، ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل الإسرائيلى الذى نصره موسى ، وندم موسى على ما فعل وقال فى نفسه : هذا الفعل من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين للإنسان ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَمَاعَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

ودعا موسى ربه مستغفراً أن يتوب عليه ، وقال : رب إني ظلمت نفسى بقتل النفس التى لم تأمرنى بقتلها ، فاعفُ عن ذنبى واستره على ولا تؤاخذنى به فتعاقبنى عليه . فعفا الله لموسى عن ذنبه ولم يعاقبه به ، لأنه

غفور يغفر الذنب لمن تاب وأناب إليه ، رحيم بالناس لا يعاقبهم على ذنوبهم
بعد توبتهم ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ ﴾ القصص

ثم تضرع موسى إلى الله وقال : يا ربِّ بإنعامك علىَّ بعفوك عن قتل
النفس التي قتلتها فلن أكون بعد اليوم معيناً للمجرمين ، ولا أعين ظالماً على
فجوره وظلمه ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

القصص

ففي اليوم الثاني خرج موسى إلى المدينة ، وهو خائف من القصاص به ،
مترقب الأخبار عن أمره ، وأمر القتل الذي قتله ، فرأى الإسرائيلي الذي
استنصره بالأمس على الفرعوني يقاتله فرعوني آخر ، فلما رآه الإسرائيلي
استصرخه ، واستغاث به ثانية ، فقال له موسى : إنك أيها الرجل لضال ظالم
مبين ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

فظن الإسرائيلي أن موسى 'غير ناصره' ، ثم دفعته الحمية على عدوه القبطي

وأراد أن يبطش به ؛ لأنه أغلظ له الكلام ، فنهأ موسى فقال له : يا موسى
أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ما تريد إلا أن تكون جباراً في
الأرض من الجبابرة السفاكين للدماء ، وما تريد أن تكون من المصلحين ،
لقله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ
تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ
وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ ﴾ القصص

فانطلق القبطى الذى كان يقاتل الإسرائيلى إلى قومه ، فأخبرهم بما سمعه
من الإسرائيلى ، وقال : إن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس .

فلما علم فرعون بخبره أرسل الذبابحين لقتل موسى ، فأخذوا الطريق
الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم ، وكان رجل من شعيمة موسى من أقصى
المدينة فأسرع واختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى وأخبره أن الجماعة
يأترون على قتله ، ونصح له أن ينجو بنفسه ، ويغادر مصر حتى لا تمتد إليه
أيديهم بسوء ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ
بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ القصص

فقبل موسى هذه النصيحة الغالية ، وخرج من مصر (مدينة فرعون)

خائفاً يتربص أن يلحقه القوم فيقتلوه ، فتضرع إلى ربه قائلاً : رب نجني من القوم الظالمين ؛ لقوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

القصص

ولما توجه لتقاء مدين ماضياً إليها ، فراراً من الذباحين ، متوكلاً على رب العالمين ، شاخصاً عن مدينة فرعون ، خارجاً عن سلطانه قال في نفسه : عسى ربى أن يهدينى ويبين لى قصد السبيل إلى (مدين) لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

القصص

دخول موسى أرض (مدين) ونزوله بها

(مدين) هى البلاد التى اختارها موسى وقصدها للنزول بها ، وهى على مسيرة ثمان ليال من مصر ، وهى شرق شبه جزيرة سيناء ، وخليج العقبة ، وشمال الحجاز ، وجنوب فلسطين وتنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام .

فما وصل إليها إلا بعد تعب شديد وجوع ، ولم يكن له طعام سوى ورق

الشجر، وقيل : إنه خرج من مصر حافياً فما وصل إلى (مدين) حتى وقع
خف قدمه من كثرة السير الحثيث المتواصل . فلما ورد ماء (مدين) وجد
جماعة من الناس يسقون مواشيهم وغنمهم ، ووجد دون هؤلاء امرأتين تجلسان
موشيهما عن الناس حتى يفرغوا من سقى مواشيهم ، فقال موسى لهما ، لما رأى
من ضعفهما ، وغلبة الناس على الماء دونهما : ما شأنكما ؟ لماذا لا تسقيان
مواشيكما مع مواشى الناس ؟ فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم ؛
لأننا لا نقدر على مزاحمتهم ، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على الجبىء ، ولا يمكنه
أن يباشر أمر الرعى والسقى ، فذبح نلتظر الناس حتى إذا فرغوا سقينا ثم
انصرفنا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ
مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ
الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ القصص

فرق موسى لهما ، وأظهر العطف عليهما ، وأخذ دلوها وتقدم إلى السقاء
بفضل قوته وجهده ، فزاحم القوم على الماء حتى أخرجهم عنه ، ثم سقى لهما
ماشيتهما ، ثم رجع إلى الشجرة التي كان جالسا تحتها واستظل بظلها وقال :
يا ربِّ إني إلى ربِّك وعطفك محتاج ، فقير إلى ما تنزله على من خير ، قال
ذلك ؛ لأنه كان في تعب ، وفي شدة الجوع ، ولم يكن معه طعام .

وذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَآ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي
لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ القصص

ورجعت المرأتان إلى أبيهما قبل الناس ، فقال أبوها : ما عجلكما ؟ قالتا :
وجدنا رجلاً صالحاً فرحمنا وسقى لنا . فقال لإحداهما : (وهى التى تزوجته فيما
بعد) اذهبي فادعيه ، فجاءته وهى تمشى على استحياء ، ومستترة بكم قيصها ،
وواضحة يدها على وجهها ، وقالت له فى تواضع وأدب : إن أبى يدعوك ليعطيك
أجر ما سقيت لنا . فأجاب الدعوة وسارت أمامه ، وهو خلفها ، فهبت الريح
فكشفت عن ساقها ، فغضَّ بصره ، وقال لها : إمشى خلفى ، وإذا أنا
أخطأت السير فارمى حصاة تدلنى على الطريق ، فأنا من أبناء يعقوب
لا ننظر إلى النساء الأجنبية ، فسارا كما قال ، حتى دخلا على أبيهما ،
فسأله أبوها عن خبره ، فقصَّ عليه خبره كله ، فقال له : لا تخف قد نجوت
من القوم الظالمين ، بفضل الله ورحمته ، وأخبرت أباهما بقوله : إننا لا ننظر
إلى النساء الأجنبية ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص

زواج موسى بإحدى الإبتنين

قالت إحداهما لأبيها (وهي التي ذهبت إلى موسى وجاءت به) : يا أبت استأجره ليرعى ماشيتك ، إن خير من استأجرت الرجل القوي الأمين ، الذي لا تخاف خيائنه فيما تأمنه عليه منها ، ويقوم بخدمتها خير قيام ، وهذان الشرطان اللذان يجب توافرها في العامل

قالت ذلك عن مشاهدة وعلم ، حيث رأت قوته في مزاحمة الناس وسقى ماشيتهما ، وأمانته في غض الطرف عن النظر إليها حينما كشفت الريح عن ساقيهما ، وحينما قال لها : كوني خلفي وأنا أمامك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ القصص

فسر أبوها من موسى عليه السلام ، وازداد حباً فيه ، وقال له : إني أريد أن أزوجه إحدى ابنتي هاتين على أن تعمل عندي ، وتقوم على شئون بيتي ثمان سنين ، فإن أتممتها عشراً فن عندك ، تفضلاً من غير إلزام ولا قهر في هاتين السنتين ؛ بل هو تبرع منك إن شئت أقمتهما ، وإن شئت تركتهما ، وما أريد أن أرهقك ، وأشق عليك ، وأحملك ما لا طاقة لك به باشتراط الثماني سنوات عشراً ، فإنك ستجدني إن شاء الله من الصالحين في حسن المعاملة ، ولين الجانب والوفاء ، بما قلت وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ إِنْ أُرِيدُ أَنْ انْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي
ثَمَانِي حَبَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ القصص

قال موسى عليه السلام : هذا عهد وشرط بيني وبينك ، أن أقضى
أى الأجلين ثمان سنين أو عشرًا ، فلا عدوان علىّ بالزماى بآتمام العشر
فتطالبني بأكثر منه ، والله علىّ شهيد ، وحفيظ على ما نقول ، وفي ذلك يقول
الله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ
وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ القصص

ومن هذا الوقت صار موسى صهرًا لذلك الشيخ ، وراعيًا لغنمه ، بعد أن
تربى على العز والنعم في بيت فرعون ، مفضلًا هذه الحياة الخسنة البريئة
الشريفة عن حياة الكفر والظلم

وذكر أكثر المفسرين أن إسم ابنة الشيخ التى صارت زوجًا لموسى
(صفورا)

وقال أغلب المفسرين : إن هذا الشيخ هو (شعيب عليه السلام)
بدليل أن رسالته فى مدين كانت قبل أن يخرج موسى من مصر ، وأهلك الله
الظالمين منهم ؛ وبقى شعيب ومن آمن معه حتى وصل موسى عليه السلام

مدين فوجد شعبياً شيخاً كبيراً ، وبعضهم يقول : أن صاحب موسى هو
(يثرون) أو (يثري) والله أعلم

خروج موسى من مدين إلى مصر بأهله

وما لاقاه من الشدة ومبدأ الرسالة

لما أتم موسى عليه السلام تسع سنين قائماً بشئون بيت شعيب عليه السلام
وهب له شعيب نتاج السنة العاشرة من الغنم ، يريد بذلك مبرة موسى
ومعاونته وصلة ابنته (صفورا) امرأة موسى ، فكان نتاج هذه السنة عظيماً ،
وعلم شعيب أنه رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله وولديه (إبنى
صفورا)

فلما أتم السنة العاشرة استأذن موسى شعبياً في الانصراف من مدين
والذهاب إلى مصر ، فأعطاه عصاً ذات شعبتين في رأسها ، ومحجن في طرفها
وسلم إليه الأغنام وسار موسى بأهله منفصلاً عن أرض مدين ، متجنباً طريق
المدن والعمران ، لئلا يعلم به الناس ، فيصل خبره إلى فرعون ، وكان أكبرهم
أن يدرك أخاه هارون ويخرجه من مصر .

وبينا موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضلّ الطريق وكان في الشتاء

هو في ليلة باردة وأراد أن يورى نارا ، فقدح زنده فلم يأت بنار ، فاشتد به الأمر
وأخذ يبحث عن نار ، ويتسمع لعله يجد إنساناً يدلّه ، حتى رأى ضوء نار
من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا هنا إني رأيت نارا ، وسأذهب لعلّي آتيكم
بقبس منها تسدفثون به ، أو أجِد من يهدينا إلى مكانها ، وذلك
بقوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ طه
فلما قرب موسى من النار ، وجد النار في شجرة عليق ، وأن النار لا تطفأ ،
والعليقة لا تشتعل ، ولم يجد أحداً من الناس يسأله عن الطريق .

وبينا هو على هذا الحال إذ سمع صوتاً من وسط النار يناديه (نداء وحى
لا نداء كلام) إني أنا ربك ، وأمره بخلع نعليه ؛ لأنه بالوادي المقدس طوى ،
حتى تمس قدماه تلك الأرض المقدسة المباركة الطاهرة ، وليكون على أكمل
هيئات التواضع بين يدي ربه ، فخلع نعليه ورمى بهما بعيداً ، وهو في أشد
حالات الخوف والوجل والهيبة من ربه .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾ طه

وقيل : إن هذه الليلة هي الليلة المباركة التي أراد الله بموسى كرامته

وابتداءه فيها بنبوته ورسالته وكلامه ، بدليل أنه قال له : إنا اخترناك فاجتنبناك
 لرسالتنا إلى من نرسلك إليه ، فاستمع لوحينا الذى نوحيه إليك واجعل أذنك
 واعية له ، واعمل به إننى أنا الله المعبود الذى لا تصلح العبادة إلا له فلا تعبد
 غيرى ، وأخلص العبادة لى دون سوى ، وأقم الصلاة لتذكرنى فيها ، ولا تغفل
 عن ذكرى .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه

ثم قال له : إن الساعة التى يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف
 القيامة آتية لا شك فيها ، وإنى أخفيها عن الناس فلا أذكرها لهم ، لئلا يطلع
 عليها أحد غيرى ، ولكى تجزى كل نفس بما تعمل من خير أو شر وطاعة
 ومعصية ، فلا يردنك يا موسى عن التأهب والاستعداد لتلك الساعة من
 لا يؤمن بها ، ولا يصدق بالبعث والنشور بعد الممات ، ولا يرجو ثواباً ولا
 يخاف عقاباً ، وقد اتبع هواه وخالف أمر ربه ونهيه ، وإلا فتقع مثله فى الردى
 فتهلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنِ السَّاعَةُ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ
 فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ طه

معجزتا العصا واليد

ثم سأله سبحانه وتعالى مع علمه بما في يده ، ما هذه التي في يمينك يا موسى ؟

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۚ طه

فقال موسى مجيباً لربه : هي عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى وأضرب بها الشجر اليابس ، فيسقط فترعاه الغنم ، ولى فيها حاجات ومنافع أخرى ، فأحمل عليها الزاد والسقاء والكساء فأستظل بها من حر الشمس .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَاى أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۚ طه

وأراد الله أن يعرفه قدرته على ما يشاء ، وعظم سلطانه ، فقال له : يا موسى ألق عصاك التى بيمينك .

فامتثل أمره وألقاها على الأرض ، فجعلها الله حية تسعى وتمشى بعد أن كانت خشبةً يابسةً لا تتحرك من تلقاء نفسها .

فلما رآها موسى تهتز كأنها جان أو شيطان تولاه الفزع والخوف وولى مدبراً ولم يرجع ؛ فناداه الله : أقبل يا موسى ، لا تخف ، سنعيدها إلى حالتها وهيئتها الأولى التى كانت عليها ، ونردها عصا كما كانت .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَمِعِهَا سَيرَ تَهَا الْأُولَى ﴾ طه
ثم قال له : ضع يدك تحت إبطك تخرج بيضاء من غير سوء ، لا مرض ولا برص فيها .

﴿ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ طه
فكان ذلك علامة ودلالة أخرى غير الآية التي رآها موسى من قبل ، وهي تحويل العصا الخشبية إلى حية تسمى ؛ بل هي من الأدلة الكبرى على قدرة الله وعظيم سلطانه .

« وكانت العصا واليد معجزتين من معجزات الله لموسى عليه السلام »

عودة موسى إلى مصر ، ودعوته لفرعون إلى توحيد الله
وإبلاغ رسالته

ثم أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون ، حيث طغى وتجاوز حده ،
وتمرد على ربه ليدعوه إلى توحيد الله وطاعته .

﴿ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ طه

فتضرع موسى إلى ربه وقال : يا رب اشرح لي صدري لأعني ما تودعه

من وحيك فيه ، وأجترى به على مخاطبة فرعون ، وسهل على القيام بما
تكلفني به من الرسالة ، وتحملني من الطاعة ، وأطلق لسانى بالمنطق السكافى ،
والبيان الشافى ، وفك عنى العقدة التى أمسكت بلسانى حتى يفقهوا ويفهموا
قولى وكلامى لهم ، واجعل لى عوناً وسنداً من أهل بيتى (أخى هارون)
أشدد به أزرى ، وأقوى به ظهري ، وأشركه معى فى مهمتى ورسالتى إلى
فرعون ، فنسبح بحمدك ، ونعظمك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، فإنك بصير
بنا ، لا يخفى عليك شىء من أفعالنا .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ
لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ
أَازِرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ
كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ طه

فأجاب الله سؤاله ، وأخذ يذكر له مَن الله عليه

فقال الله تعالى لموسى عليه السلام : قد أعطيت ما سألت ربك
يا موسى ، من شرح صدرك ، وتيسيره أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل
أخيك هارون وزيراً لك ، ليشد أزرک ، ويشترك فى الرسالة معك ، ولقد
مَننا عليك بمنة أخرى ، وهى المنَّة التى أوحينا فيها إلى أمك حينما ولدتك
فى العام الذى كان فرعون يقتل فيه كل مولود ذكر من قومك بأن

تضعه في التابوت خوفاً عليك ، وبأن تقذفك في البحر ، حتى إذا ما وصلت إلى الساحل أخذك فرعون ، وهو عدوى وعدوك ، وألقيت عليك محبةً مني فحببتك إلى عبادي .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّاْ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾

طه

وكانت أختك تمشي تتبعك تحت رعايتي ، وبراى منى لتقول لهم : هل أدلكم على من يرضعه ويكفله، ويقوم بشؤونه ويربيه ؟ ثم رددناك إلى أمك ، بعد ما صرت في أيدي آل فرعون ، كما تقرر عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والفرق في اليم ، ولكيلا تحزن عليك من الخوف عليك من فرعون أن يقتلك ، وقد نجيناك من الغم بقتلك النفس التي قتلت (وهو قتله القبطي حينما استعاث به الإسرائيلي) إذ أرادوا أن يقتلوك ، فخلصناك منهم حتى هربت إلى أهل (مدين) فلم يصلوا إلى قتلك ، وابتليناك ابتلاءً ، فخرجت خائفاً إلى أهل (مدين) فلبثت فيهم عدة سنين ثم جئت في الوقت الذي أردنا أن نرسلك فيه إلى فرعون رسولاً على قدر الرسالة والنموة .

﴿ وَلَمُصْنَعِ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْتُمُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَلَّمَتْ نَفْسًا فَفَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ۝ طه ١٠١ ﴾

ويذكره الله بنعمته عليه ويقول : لقد أنعمت عليك يا موسى بكل هذه النعم ، ومننت عليك بهذه المنن ، حباً مني لك ؛ لأنني اخترتك واصطفيتك للإبلاغ رسالتي ، والقيام بأمرى ونهبي ، فاذهب أنت وأخوك هارون بآياتي وحججتي إلى فرعون إنه تمرد في ضلاله وغيبه ، فأبلغاه رسالتي ؛ ولا تضعفا أمامه ، ولا تغفلا عن أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتهما ؛ وقولا له قولاً ليناً كريماً ، لعله يتذكر ويراجع نفسه ، ويخشى الله فيرتدع عن طغيانه

﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۚ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۚ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيْمًا ۖ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝ طه ١٠٢ ﴾

فقال موسى وهارون (بعد أن سمعا أمر ربهما من طريق الوحي) : إننا نخاف فرعون إذا نحن دعواناه إلى ما أمرتنا أن يعجل علينا بالعقوبة ويسرف ويفرط فيها ، وأن يزداد في طغيانه .

﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا﴾ طه

فقال الله لهما : لا تخافا فرعون إنني معكما أعيذكما عليه ، وأبصر وأسمع ما يجري بينكما وبينه ، فأعلم محاورتكما له ، وأرى ما تفعلانه معه ويفعله معكم فلا يخفى على شيء من ذلك ، فاذهبما إليه وقولا له : إنا رسولا ربك أرسلنا إليك لنبلغك أمره ، بأن ترسل معنا بني إسرائيل ، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة السيئة ، وقد جنناك بمعجزة من ربك على أنه أرسلنا إليك بذلك ، فإن أنت لم تصدقنا فيما نقول فنحن مستعدون لأن نظهرها لك ، ونطالعك عليها ، والسلامة لمن اتبع هدى الله وبيانه

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ طه

تذكير فرعون لموسى بتربيته وفضله عليه

لما دخل موسى على فرعون ذكره فرعون أنه ربي في بيته وليداً ولبت فيهم سنين من عمره ، وهذا يوجب عليه المحافظة على المودة والحرص على عبادة فرعون ، ثم ذكره بفعلته التي فعلها من قتل الرجل القبطي وهربه على أثرها

فرد موسى^١ على هذه المسألة وقال له : إني فعلتها حينما كنت صغيراً ، من الضالين لا أدرك ما أفعل ، ففررت منكم لَمَّا خِفْتُمْ ؛ وقد وهب لي الله حكماً وجعلني من المرسلين ، وفي ذلك قول الله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء

محاجة موسى لفرعون

لما فرغ موسى^١ مما قال ، وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا الله في البرية ، ولما كان فرعون رجلاً عاتياً متألفاً ، تدب الأمة المصرية بعبادته ، وقد فاجأه موسى بأمر لا يقره ولا يرضاه ، وهو محاولة إنزاله من عرش الربوبية ، أخذ فرعون يحاور موسى ويحاجه ، فسأل موسى ما رب العالمين ؟ فأجابه : رب السموات والأرض وما بينهما ، خالق كل ذلك ومبتدعه ، فالتفت فرعون إلى من حوله من أشرف قومه ، مظهراً العجب ، قائلاً لهم : ألا تستمعون ؟ أسأله عن موصوف ، فيجيب بوصف

فاستمر موسى في كلامه قائلاً : ربكم ورب آبائكم الأولين ؛ أى حينما لم يكن فرعون موجوداً ولا معبوداً

فقال فرعون لملكه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لجنون ، لأنه جاءنا بشىء لا نعرفه ولا نقره .

فاستمر موسى في قوله : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۚ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾

الشعراء

فلما علم موسى وهارون عدم قبول فرعون الإقلاع عن غيه ، وتمادي به في ضلاله ، وادعائه الربوبية ، وأنه مكذب لهما لا محالة ، قال له :

إنا قد أوحى إلينا أن عذاب الله واقع على من كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته وإجابة رسوله ، وتولى وأدبر معرضاً عما جئنا به من الحق

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ طه
ثم عاد فرعون فقال لها مخاطباً موسى : فمن ربكما يا موسى ؟ فأجابه :
ربنا الذي أعطى كل شيء في الوجود ما يناسبه من الصورة والشكل ، ثم
هداه لطرق معيشتة ، ووسائل بقائه

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ
ثُمَّ هَدَى ﴾ طه

فقال فرعون لموسى . فما شأن الأمم الخالية من قبلنا التي تقربنا
تقول ، ولم تصدق بما تدعو إليه ، ولم تخلص له العبادة ، ولكنها عبدت
الأصنام والأوثان من دونه ؟ إن كان الآن على ما تصف من أن الأشياء
كلها خلقها ، وأنها في نعمه تتقلب ، وفي مننه تتصرف

فأجابه موسى فقال : لا علم لي بأمرها ، وبما كان سبب ضلال من
ضل منها فذهب عن دين الله ، لا يخطيء ربي في تدييره وأفعاله ، فإن كان
عذب تلك القرون الماضية وعجل هلاكها فنعم ما فعل ، وإن كان آخر
عقابها إلى يوم القيامة فالحق ما فعل ، هو أعلم بما يفعل ، لا يخطيء في فعله
أبداً ، ولا ينسى فعل ما فعله حكمةً وصواباً

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ طه

ثم ذكر له قدرة الله ، وعظيم سلطانه ، وجليل أعماله قائلاً له : إن الله جعل لكم الأرض بساطاً وفراشاً ، وفتح فيها طرقاً وسبلاً للسعى فيها ، وأنزل لكم من السماء مطراً لتحيا به الأرض ، ويخرج منها أزواجاً شتى من النبات ، وألواناً تأكلون منها ، وترعون أنعامكم ومواشيكم ، وكل ذلك آيات وحجج تدل على وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، وتلك آيات لأولى الفكر والاعتبار ، وأهل التدبر والاعتاظ

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْزَعُوا أُنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ طه

ثم قال له زيادة في الاحتجاج وتبغيضاً له في الدنيا ، وتذكيراً له بعقاب الآخرة :

إن الأرض منبتنا الذي أنبتنا الله منه ، وفيها معاد الناس الذي يعودون إليه بعد فناء حياتهم ؛ ومنها يخرجون مرة أخرى للحساب ولجساسة كل إنسان بما صنع

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ طه

ومع هذه الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، الدالة على حقيقة ما أرسل

الله به رسوليہ (موسیٰ و ہارون) کذب فرعون و ابی أن یقبل من موسیٰ و ہارون ما جاء به من عند ربہما من الحق ، عتوا و استکباراً ، و فی ذلك یقول الله تعالیٰ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ طه﴾

كما أن قومہ استکبروا عن قبول دعوتہ لما جاءہم بالحق وقالوا : إن هذا لسكرمبین ؛ لأنہم كانوا قومًا مجرمین ، قال الله تعالیٰ :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ یونس﴾

طلب فرعون المبارزة من موسیٰ مع السحرة

و انتصار موسیٰ علیہم

ثم قال فرعون لموسیٰ : أجبثنا لتخرجنا من منازلنا و دورنا بسحرك هذا الذي جبثنا به ؟ فلنا تینك بسحر مثله ، فاجعل بیننا و بینك موعداً لا نتعداه ، لنجیء بسحر مثل الذي جبثت به ، فننظر أینا یغلب صاحبه ؟ لانتخلف ذلك الموعد ، نحن و لا أنت ، بمكان متوسط و معتدل بیننا و بینك

﴿قَالَ أَجِثْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ فَلْنَأْتِيَنَّكَ

بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
سُوءٍ ﴿ طه

فقال موسى لفرعون حين سأله أن يضرب له موعداً للاجتماع : موعدكم
يوم العيد (وهو يوم عيد كان فرعون يخرج له ، وكانوا يتزينون فيه بعد
انبساط الشمس ليشهدوا من الغالب ومن المغلوب ؟)

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ طه

فلما سمع فرعون هذا الجواب أدير معرضاً عما أتاه به من الحق ، وجمع
كيدته ومكره ، أى جمع سحرته ثم أعطاهم تعليماته ، وجاء معهم فى الموعد
الذى حدده موسى

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ طه

فقال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : الويل لكم ! لا تختلقوا على
الله كذباً ، ولا تتقولوا عليه ، فيسحقكم بعذاب ، ويستأصلكم بهلاك فيبيدكم ،
وقد خاب من افترى على الله الكذب ، فلم يظفر بحاجته التى طلبها ورجا
إدراكها

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ طه

فتنازع السحرة في أمر موسى ، فقال بعضهم : هذا ساحر ، وقال البعض الآخر : ليس بساحر ، وقرروا فيما بينهم أنهم يتبعونه إن غلبهم وأسروا هذه النية في أنفسهم ، وأعلنوا الناس بأن موسى وأخاه هرون ساحران ، يريدان إخراجكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بذهبكم الذي هو أعدل المذاهب

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْيَقِكُمْ الْمُنَى ﴾ طه

فقال لهم موسى : اجمعوا أمركم ، وأحكموا كيدهم ، ثم احضروا صفاً واحداً ، فقد ظفر اليوم من غلب صاحبه وقهره ، وعلا على خصمه

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى ﴾ طه
فأجمعت السحرة كيدهم ، ثم أتوا صفاً وقالوا لموسى : يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ؟ قل لهم : بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ، فإذا هي في نظره تشبه حيات قد ملأت الوادي ، يركب بعضها بعضاً ، يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فاخطفوا بسحرهم بصر موسى وفرعون ، ثم أبصار الناس

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ

أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿١٠﴾

طه

فلما رأى موسى ذلك هاله أمر تلك الحيات ، وأوجس وأضمر في نفسه خوفاً ، فأوحى الله إليه بقوله : لا تخف ، إنك أنت الأعلى على هؤلاء السحرة ، وعلى فرعون وجنوده ، والقاهر لهم ، وأمره أن يلقى عصاه بقوله : فألق ما في يمينك (العصاة) تبتلع حبالهم وعصيهم التي سحروها حتى خيل إليك أنها تمشى ، فإن الذى صنعوه كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث كان وأنى وجد ، ولا يظفر بسحره من أين أتى

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ طه

انتصار موسى ، واعتراف السحرة به وبأخيه هارون

وتهديد فرعون لهم

فلما ألقى موسى عصاه صارت ثعباناً كبيراً ابتلع كل أعمالهم وحبالهم وعصيهم ؛ وبذلك كان الفوز والنصر له ؛ ووقع الحق وبطل سحر السحرة ، ودهش آل فرعون والملا من قومه ، وعلم السحرة أن السحر لا يفعل ذلك

وإنما هي القوى الإلهية صنعت ذلك ، فخرّوا لله سجداً ، وقالوا : آمنا برب
هارون وموسى ؛ لو كان هذا سحراً ما غلبنا ، قال تعالى :

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الشعراء

ولما رأى فرعون الغلبة والنصرة لموسى أسف أسفاً شديداً وتكدر وقال
للسحرة : أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أسمح لكم ؟
إنه لرئيسكم الذي علمكم السحر ، فلا قطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى
من خلاف ، ولأصلبنكم على جذوع النخل ، ولتعلمن أيها السحرة من منى
أشد عذاباً وأدوم إبلاماً لكم أنا أم موسى ؟

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُوداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ
لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا تَقْطَعْنَ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ
آيُنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى ﴾ طه

فقال السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به : لن نؤثرك فنتبعك ،
ونسكذب من أجلك موسى على ما جاءنا به من الآيات البينات ، والحجج
والأدلة القاطعة ، الدالة على حقيقة مادعانا إليه ، ولا نختارك إلهاً من دون الله
الذى فطرنا وخلقنا ، فافعل ماأنت فاعل بنا بما تهددنا به من أنواع التعذيب ،
فلا نبأى به مادمننا على الحق ، واعلم بأن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم ،

وليس لك سلطان علينا ، إلا فيها تتحكم فينا كيف تشاء ، ولا سلطان لك بعدها

ونحن قد آمنا بربنا ، وأقررنا بتوحيد الله ، وصدقنا بوعده ووعدته وآمنا بما جاء به موسى ، ليغفر لنا ربنا خطايانا ويعفو عن ذنوبنا فيسترها علينا ، وما أكرهتنا عليه من السحر فإن الله خير ثواباً وأبقى عقاباً

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه

تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر

رأى فرعون الآيات فلم يصدق بها ، وتمادى على كفره ، وأصرَّ على عناده وطغيانه ، معرضاً عن تلك الآيات التي أتى بها موسى ، وأغراه قومه بقولهم له : أنترك موسى وقومه يفسدون في الأرض بالامتناع عن الأعمال التي سخروا فيها ، ويتركون فرعون وآلهته لا يعبدونها ولا يعبدون فرعون ؟

فسكَّن فرعون روع القوم ، واعدَّ إياهم بأن سيقتل أبناء قوم موسى ويستحي نساءهم ، معتزلاً بما له عليهم من القهر ، والغلبة ، والسلطان

ولما أتبع القول بالعمل ضجَّ بنو إسرائيل وقاموا بالشكوى إلى موسى بما حاق بهم ، من الظلم والجور ، فأوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل بهم ، وأن يستعينوا بالله على احتماله ، ووعدهم حسن العاقبة

فلم يخفف ذلك من لوعتهم ، ولم يكف كف من دموعهم ، وقالوا له :
« أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا »

فأخذ يهدىء من روعهم ، ويخفف من أحزانهم ، ويمنيهم هلاك عدوهم ، وإخراجهم من الضيق إلى السعة ، وأنهم سيكونون خلفاء في الأرض التي وعدوا بها ؛ وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرَكَ وَالْأَهْلِكَ قَالَ سَتَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

الأعراف

إيمان طائفة من بني إسرائيل بموسى ونصحه لهم

بعد هذه المعجزة الربانية ، والموقعة السحرية ، التي انتصر فيها الحق على الباطل ، ولم يؤمن بموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا طائفة من شبان بني إسرائيل ، على خوف من فرعون وأشراف قومه ، أن يعذبهم فرعون ؛ لأنه متغلب عليهم في الأرض ، ومن المسرفين في الكبر والجبروت ، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَقَهُهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾
يونس

فقال موسى لهم : يا قوم ، إن كنتم آمنتم حق الإيمان فثقوا بالله واعتمدوا عليه ، إن كنتم مسلمين ، ومذعنين له بالطاعة ، وتوكلوا عليه ، فإن يخذل من توكل عليه

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾
يونس

فقالوا : على الله توكلنا ، وبه نثقنا ، وإليه فوضنا أمرنا ، ثم دعوا الله

وقالوا :

ربنا لا تجعلنا موضع عذاب للقوم الظالمين ، فيردونا عن الإيمان بالله
ورسوله ، وخلصنا من أيدي القوم الكافرين (قوم فرعون) .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا
مِنْ رِّحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يونس

وحى الله إلى موسى وأخيه باتخاذ بيوتهما بمصر مساجد

فأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذوا لقومهما بمصر بيوتاً وأن
يجعلوا بيوتهم مساجد يؤدون فيها الصلاة المفروضة عليهم في أوقاتها ، وأن يبشرا
المؤمنين بالفوز في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا
بِئُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس

وقال موسى لربه : ربنا إنك منحت فرعون وكبراء قومه وأشرفهم
زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأمواً لا من أعيان الذهب والفضة في الحياة
الدنيا ليضلوا عبادك عن صراطك المستقيم عقوبةً منك لهم .

ثم دعا ربه قائلاً : ربنا اطمس على أموالهم واحمقها ، واطبع على قلوبهم
لكيلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (الفرق) جزاء لهم على تجبرهم في
الأرض ، وتمردهم على رسلك

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يونس

فأجاب الله دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم ، وأمرها
بالاستقامة والثبات على أمرهما من دعاء فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته ،
إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرها أنه أجابهما فيه ؛ وأن لا يسلكا سبل
الجهالة في استعجال العذاب للمكذابين .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يونس

الدليل على نبوة موسى

وقال الله لموسى : هذان (العصاة واليد) برهانان من ربك إلى فرعون
وأشراف قومه حجة عليهم ، ودلالة على حقيقة نبوتك يا موسى إنهم كانوا
قوماً كافرين .

﴿ قَدْ آتَيْنَاكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴾ القصص

فقال موسى : رب إنى قتلت من قوم فرعون نفساً فأخاف أن آتيهم
فيقتلوننى ، ولا يمكننى أن أقیم الحجة عليهم ؛ لأن فى لسانى عقدة لا أبین معها

ما أريد من الكلام ، وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، وأحسن بياناً ،
فأرسله معي عوناً يبين لهم ما أخطبهم به ، فإنى أخاف أنهم لا يصدقون قولى
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ
هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾
القصص

فقال الله لموسى : سنشد عضدك بأخيك ، ونعينك ونقويك ، ونجعل لكما
حجة دامغة ، وسلطاناً عليهم ، فلا يصلون إليكما . اذهبا بآياتنا إليهم فأتيا
ومن اتبعكما الغالبون .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾
القصص

فلما جاء موسى إلى فرعون وقومه بآيات واضحة ، قالوا لموسى : إن
الذى جئتنا به ما هو إلا سحر افتريقه من قبلك ، وما سمعنا بهذا ، أى بادعاء
النبوة ، فى أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى
وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾
القصص

فقال موسى لفرعون : ربى أعلم بمن منا الحق من المبطل ، وأعلم بمن جاء
بالحدى من عنده ، ومن تكون له حسن العاقبة بعد هذه الحياة الدنيا فى الدار
الآخرة ، إنه لا يفلح الظالمون .

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ
عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ القصص

فرعون يدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح ليصعد به السماء

وقال فرعون لأشراف قومه وساداتهم، يا أيها القوم استأعرف لكم إلهاً
غيري فتعبدوه ، وأظنكم لا تصدقون قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم
وله إلهاً غيري ، ومعبوداً سواي . ثم أمر (هامان) بأن يوقد على الطين ليعمل
له الآجر (الطوب) ، ويبني له قصرًا عاليًا يصعد فيه إلى السماء حتى ينالها
ويقول : انظر إلى إله موسى الذي يعبد ويدعو إلى عبادته وإني لأظنه فيما
يقول من الكاذبين .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي
يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص

ولهذا استكبر فرعون وجنوده في أرض مصر عن تصديق موسى واتباعه
إلى توحيد الله بغير الحق إذ ادعى الألوهية ، ورفع نفسه إلى مستوى ليس
لأحد من العالمين أن يطلبه ، وظن هو وجنوده أنهم بعد مماتهم لا يبعثون
ولا يرجعون إلى الله ، فأخذهم الله أخذًا عزيزًا ، وألقاهم جميعًا في البحر
فأغرقهم ، وكان ذلك عاقبة الظالمين .

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَنظُرُهُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ القصص

الاختبار بموسى لقتله ، ودفاع مؤمن عنه

انتصاراً لدين الله ونجاتهما من فرعون وقومه

أراد فرعون أن يبطش بموسى ، وتآمر هو وقومه على قتله حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم ، أو فساد فى أرضهم ، فاستعاذ موسى بالله من شر هذا المتكبر الظالم الذى لا يؤمن بالله ولا بيوم الحساب .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ غافر

ولما كان الحق لا يعدم نصيراً ، قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه بموسى ورب موسى إلى ذلك الحين ، ودافع عن موسى دفاعاً مشكوراً ، وأبلى فى ذلك بلاءً حسناً ، وبين لهم أنه لا ينبغي أن يقتلوا رجلاً يقول : ربى الله ؛ إذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه ، ولو فرض أنه كاذب فيما يقول ، ما نالهم ضرر من كذبه ، ولا يحملون

شيئاً من إثمه ؛ وإذا كان صادقاً أصابهم بعض الوعيد الذي توعدهم به ، وقد عارضه فرعون فيما رأى ، ووجه أقواله إلى الملأ من قومه ينتصر بهم على معارضته قائلاً :

ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

فعاد الرجل المؤمن من آل فرعون إلى الكلام محذراً قومه بأس الله تعالى ، وذكّرهم ما حصل للأمم السابقة ، أمم عاد ، وثمود ، وقوم نوح ، وغيرهم ، ممن انتقم الله منهم جزاءً وفاقاً بما صنعت أيديهم ، وذكّرهم أيضاً بأن الدعوة التي جاء بها موسى اليوم ليست جديدة ، فقد جاء إلى آبائهم وإليهم ضمناً ، (يوسف عليه السلام) بالبينات فلم ينل تصديقهم إياه ، حتى إذا مات قالوا : لن يبعث الله من بعده رسولاً ، وأبان لهم أن ذلك مما طبع الله على قلوبهم ، وإمساكه تعالى عن هدايتهم ، هداية موصلة بالفعل إلى المقصود ، وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازي على كل شيء ، وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي
الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا
مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ
الْقِنَادِ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ
بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ
اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَقَوْمُ إِنَّمَا
هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٩١﴾ غافر

تمادى قوم فرعون في غيهم

ورغمًا من هذه النصيحة الثمينة ، وهذا الدفاع المجيد تمادى قومه في غيهم ، وجاهدوا أن يردوه إلى دين قومه ، فلامهم على أنه يريد لهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم ، فهو يدعوهم إلى الإيمان ، وهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار ، ولا شك أن الآلهة التي يدعونه إلى عبادتها لا تنفع في الدنيا ، ولا تشفع في الآخرة ، وأن المرجع والمصير إلى الله تعالى ، وأنه سيأتى عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم ، وأنه قد فوض أمره إلى الله . ولقد هموا بقتله كما هموا بموسى ، فوقفهم الله سوء عملهم ، وكانت عاقبته السعادة والفخر ، وعاقبة آل فرعون النار والدمار .

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

فَسَمْعُكُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٠﴾ غافر

فرعون يستخف بموسى ، ويباهى بملكه وشروته

كبر على فرعون أن يلجى دعوة موسى ، ويتبع دينه ، لما رأى له من
عزة السلطان ، ووافر الثروة التي تدرها عليه خيرات مصر بسبب نيلها
الفياض ، وماله من الفروع التي تبعث فيها الحياة ؛ وغلبت عليه نفسه التي
لا ترى الخير والعز إلا في كثرة المال ، ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله
من يشاء فأخذ ينادى في قومه قائلاً لهم : أليس لي ملك مصر وهذه
الأنهار تجري من تحتي ؟ بل أنا خير من موسى هذا الضعيف الحقير
العيى الذى لا يكاد يظهر الكلام ، فهلا ألقى عليه أساور من ذهب (وكان
من عادتهم أن يلبس ملوكهم أساور) أو جاء معه الملائكة يعينونه
ويصدقونه ؟

فكانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه ، وإطاعتهم إياه
ميلاً منهم عن الحق وزيفاً عن طريق الهدى ، لأنهم ألفوا الانقياد له وكانوا

من القوم الظالمين الفاسقين

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّنْ هَٰؤُلَاءِ
الَّذِينَ يُتَجَرَّبُونَ مِنِّي أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ
مِثْلِي وَلَا يَسْكُدُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

الزخرف

ثم ولَّى معرضاً عما دعاه إليه موسى من طاعة ربّه وخشيته وتوحيده ،
وأخذ يسعى 'ويعمل في معصية الله ، وفيما يسخطه عليه ، فجمع قومه وأتباعه
ونادى فيهم قائلاً : أنا ربكم الأعلى الذي كل رب دوني . فأخذه الله
بعقوبته على كلمته الأخيرة والأولى ؛ وأن في ذلك لموعظةً وعبرةً لمن يخشى
الله ويخاف عقابه

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ اللَّهُ
نَكَالَ الْأَخِرَةِ وَالْأُولَىٰ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾

النازعات

الآيات التي أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه

لما كذبوا موسى

لما أخذت فرعون العزة بالإثم ، ولم يذعن لأمر الله ، وتمادى في تكذيب موسى ، واستمر في تعذيب بنى إسرائيل ، وإيقاع ضروب الذلة والإهانة بهم ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه إياه وامتناعه من إطلاق بنى إسرائيل : فكان كما وقع بهم عذاب بعد إبلاغ موسى إياهم به ، وعدوه بالإيمان به تارةً ، وإرسال بنى إسرائيل معه تارةً أخرى ، إذا سأل ربه كشف ما نزل بهم من العذاب ، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم عادوا إلى طغيانهم ، وغدروا بعهدهم ، وأخلفوا وعدهم ، وهكذا إلى أن كانت الآية الكبرى ، والبطشة العظمى ، وهى إغراق فرعون فى اليم ، ونجاة بنى إسرائيل وتلك الآيات هى :

أولاً — الجذب بأن قلَّ عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم

ثانياً — النقص من الثمرات بسبب ما يصيبها من العاهات

ثالثاً — الطوفان الذى عمهم حتى عاقهم عن الزرع فى الوقت المناسب

رابعاً — الجراد بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد فأكل الزرع

وأهلك الثمار

خامساً -- القمل الذي أنعمهم وحرّمهم لذة النوم والراحة

سادساً -- الضفادع التي كثرت عندهم حتى غصت عليهم عيشتهم

بسقوطها في طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم

سابعاً -- الدم وذلك باستحالة المساء دماً ، وقيل : أن الله سلط عليهم

الرعاف (نزول الدم بكثرة من الأنف)

ثامناً -- الطمس على أموالهم ، وهو محققها وإهلاكها

تاسعاً -- اليد إذ كان يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء من

غير سوء

وقد ورد ذكر ذلك في سورة الأعراف في الآيات الآتية :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا
بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَاَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ

بَالْعَوْدِ إِذَا هُمْ يَنْفَكُونَ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٩٧﴾ الأعراف

يقول الله تعالى ذكره : ولقد اخترنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم
عليه من الضلالة بالسمنين الجذباء ، والقحط ، سنة بعد سنة ، وبذهاب ثمارهم
وغلالهم ، إلا القليل ، عظةً وتذكيراً لهم ، ليزدجروا عن ضلالتهم ويفزعوا
إلى ربهم بالتوبة

فإذا جاء آل فرعون الخصب ، والرخاء ، وكثرة الثمار ، ورأوا ما يحيمون به
في دنياهم قالوا : هذه نحن أولى بها ، وإن تصبهم سيئة أي جدد وقحط
وبلاء ، يطّيروا بموسى ومن معه ، ويقولوا : ذهب حظوظنا من الرخاء
والخصب مذ جاءنا موسى

ألا إنما الخير والشر من عند الله ؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك إذ
لجهلهم كانوا يتشاءمون من موسى ومن معه

وقال آل فرعون لموسى : يا موسى ، مهما تأتينا به من علامة ودلالة
لتسحرنا وتفتننا بها عما نحن عليه من دين فرعون فما نحن بمصدقين على أنك
محق فيما تدعونا إليه ، فأرسل عليهم الطوفان (المطر الشديد) والجراد والقمل
والضفادع والدم

كل ذلك علامات ودلالات على صحة نبوة موسى ، وحقيقة ما دعاهم

إليه ، أنت مفصلات يتلو بعضها بعضاً ، ليكون لله عليهم الحجة ، فينتقم منهم بعد ذلك ، فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم هذه الآيات والحجج عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى عليه السلام وأتباعه ، وتمظموا على الله وعتوا ، وكانوا قوماً مجرمين يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق والتمرّد

ولما نزل بهم عذاب الله وحلّ بهم سخطه ، فزعوا إلى موسى ليدعو لهم ربه وقالوا : يا موسى ادع لنا إلهك لنرفع عنا العذاب الذي نحن فيه لنؤمنن لك ، ولنصدقن بما جئت به ، ودعوت إليه ، ولنقرنّ به ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلانعمهم أن يذهبوا معك حيث شئت ، فدعا موسى ربه فأجابه ، فلما رفع عنهم العذاب الذي أنزله بهم إلى الأجل الذي حدده لاستيفاء عذاب أيامهم ، نقضوا عهودهم التي عاهدوا ربهم وموسى عليها . فلما نكثوا عهودهم انتقم الله منهم ، فأغرقهم في البحر ، لأنهم كذبوا بآيات الله وحججه ، وكانوا عن تلك النعمة غافلين

خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر

لما تكبر فرعون وأبى أن يستجيب لأمر ربه ، وطفى وتمادى فى طغيانه ، أوحى الله إلى موسى عليه السلام بأن يخرج مع بنى إسرائيل ليلاً وأن يتخذ لهم طريقاً يابساً فى البحر ، وأمره أن يضرب بعصاه البحر لترفع مياحه عن الجائنين ، فنزله وقومه يعمرون على أرضه فلا يخاف من فرعون وجنوده أن يدركوهم من ورائه ولا يخشى غرقاً ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى ﴾ طه

نجاة موسى وقومه ، وغرق فرعون وجنوده

فسرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله ، وندم فرعون على أنهم انطلقوا بلا إذن منه ، فأرسل فى المدائن حاشرين ، وجمع جمعاً عظيماً وأتبع بنى إسرائيل ليردهم إلى عبوديتهم ، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس ، واطلع عليهم مع شروق الشمس ، فأيقنوا بالهلاك ، وأن فرعون لابد أن يبطش بهم ، فسكن موسى روعهم وضرب البحر كما أمره الله تعالى فافلق حتى ظهرت أرضه ، وكان كل فرق كالطود العظيم ، وأمر بنى

إسرائيل بالعبور فيه ، فعبروا من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي ،
وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبروا منه ، فرأى طريقاً في
البحر يابساً لا وعورة فيه ، وبني إسرائيل بين فرقى الماء لم يمسه لهم أذى ، فطمع
أن يسير في أثرهم فيردهم هو وجنوده ، فاقتحموا الطريق اليابس في البحر
خلف بني إسرائيل فلما جاوز بنو إسرائيل البحر ولم يبق أحد منهم بين المياه
المنحصرة وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده ، انطبق البحر عليهم وعاد كما
كان أولاً ، وغرق فرعون وجنوده ، ولم يفلت منهم أحد من اقتحم الماء ، فأضل
فرعون قومه ، وما سلك بهم طريق أهل الهدى والاستقامة ؛ بل سلك بهم
طريق أهل الضلال بأصرهم بالكفر بالله وتكذيب رسله ، وفي ذلك يقول
الله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ السَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ يونس

وفي ذلك الوقت الذي أدرك فيه فرعون الغرق قال : آمنت أنه لا إله
إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ؛ أراد بهذه الكلمة أن
يدفع عن نفسه الغرق ؛ ولكن قد نفذ فيه أمر الله لطغيانه وكفره
وقال الله له : اليوم تنجيك بيدك ، ونأمر البحر أن يلفظ جثتك إلى
الشاطئ لتسكون لمن خلفك من الأجيال الآتية عظة وعبرة ، وكذلك

لقومك حتى يروك بأعينهم عظاماً فيعتبروا بك ، ويعترفوا بأنك كنت مغروراً
بادعائك الألوهية والعظمة

وقيل : إنه كشفت جثته في أحد النواويس ، وكتب بشأنه المرحوم
أحمد نجيب بك الأثرى الشهير صاحب كتاب (الأثر الجليل في قدماء وادي
النيل) مقالاً ضافياً في جريدة المؤيد أيام العثور على جثة ذلك الرجل ،
وأكد أنه فرعون موسى ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا
وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ
بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافُلُونَ ﴾ يونس

حال بني إسرائيل مع موسى

ولما جاوز بنو إسرائيل البحر ، وأنوا على قوم يعكفون على عبادة
الأصنام ، غلبت عليهم شقوتهم ووثنية المصريين الذين قلدوهم فيها (شأن
المغلوب في تقليد الغالب) فدفعهم إلى أن يطلبوا من موسى أن يتخذ لهم

إِلَهُمَا كَمَا هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ آلِهَةٌ

فَأَخَذَ مُوسَى يُؤْنِسُهُمْ ، وَيُلْوِمُهُمْ ، وَيُؤْخِجُهُمْ ، عَلَى طَلَبِهِمْ إِلَهُاً سِوَى اللَّهِ
الَّذِي فَعَلَ بِعِبَادِهِمُ الْعَجَائِبَ الْمُدْهِشَةَ . وَأَنْجَاهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ، وَخَصَّهُمْ
بِالْإِكْرَامِ ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَإِنْ إِلَهُاً هَذِهِ آيَاتُهُ ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ
وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ لَا يَعْدِلُ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ جَاهِلًا
سَعِيهَا ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهُاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرِكَةٌ مَا لَهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ
أَنْفُسَكُمْ إِلَهُاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف

وَلَمَّا جَاوَزُوا الْبَحْرَ ، وَجَاءُوا إِلَى الشَّاطِئِ الْمَشْرِقِيِّ لَمْ يَجِدُوا مَاءً لَشَرِبِهِمْ
وَسَقِيّاً لِدَوَابِهِمْ ، فَشَكُّوا إِلَى مُوسَى مَتَذَمِّرِينَ وَاسْتَسْقَوْهُ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ
يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْحَجَرَ ، فَانْبَعَثَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا لِكُلِّ سَبْطٍ مِنَ
الْأَسْبَاطِ (أَيْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ) عَيْنٌ تَجْرِي بِالمَاءِ يَشْرَبُونَ مِنْهَا ، وَهَذِهِ
الْعَيُونُ بِالْبَرِّ الْمَشْرِقِيِّ غَيْرُ بَعِيدَةٍ عَنْ مَدِينَةِ السُّوَيْسِ ، وَهِيَ شَهْرَةٌ (بَعْيُون
مُوسَى) وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ ائْتْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ الأعراف

ولما كان زادهم عرضةً للنفاد ، وتاقت أنفسهم إلى اللحم من خشيتهم الجوع والهلاك ، أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المنّ والسوى (المنّ الرقيق المتجمد وهو مادة تفرزها بعض الأشجار يميل طعمها إلى الحلاوة فيها لبن وهى سهلة الهضم ، والسوى طائر السمانى كان يقطن تلك الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته)

وقد ذكّرهم الله بنعمه ، وحذرهم من الطغيان والكفر ، تفادياً من غضب الله عليهم ، فقال لهم : يا بنى إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم فرعون وجنوده ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، وأنزلنا عليكم المنّ والسوى كلوا من طيبات ما رزقناكم حلالاً طيباً ، ولا تعبدوا على الناس ، ولا يظلم بعضكم بعضاً فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى إلى الدرك الأسفل من النار ، وأن الله لغفار ، يتوب على من تاب وآمن وعمل صالحاً ، ثم سلك سبيل الهدى والرشاد ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي
فَعَدَّ هَوًى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ طه

ثم إنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربهم ليخرج لهم من
الأرض البقول ، والعدس ، والبصل ؛ لأنهم لم يصبروا على طعام واحد ،
فقال لهم موسى : أنستبدلون الشيء القليل القيمة بالذي هو خير منه ؟ وأمرهم
أن يهبطوا إلى مصر فإنهم يجدون فيها طلبهم ، هذا الطلب وسيلة من الله
تعالى لتنبئهم إلى أن طلبهم لا يكون إلا إذا نزلوا مصرأ من الأمصار
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى إِنَّ نَصِيرَكَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا
قَالَ اسْتَبْدِلُونِ الَّذِي هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ
مَا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة

ذهاب موسى لميقات ربه

وعد موسى عليه السلام قومه بنى إسرائيل ، وهم بمصر ، إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه الوصايا التي يطلب بنو إسرائيل للعمل بها لما فيه صلاحهم

فلما أهلك الله فرعون ، سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ، وهى شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين ، قيل : أنكر موسى خلوف فيه ، فاستاك أو أكل بعض النباتات فقالت الملائكة لموسى : كنا نشم من فيك رائحة المسك ، فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام ذى الحجة ، فأتهمها أربعين ليلة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الأعراف

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه ترك أخاه هارون وأمره أن يكون خليفة على بنى إسرائيل ، وأكد عليه النظر فى مصالحهم وشئونهم ، واليقظة فى أمرهم ، وألا يتبع سبيل المفسدين الذين يفسدون فى الأرض بمعصيتهم ربهم ، ومعونتهم أهل المعاصى ؛ ولكن يسلك سبيل المطيعين

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف

مناجاة موسى لربه

وبعد تمام الأربعين ليلة كلم موسى ربه ونجاه قائلاً : رب أرني أنظر إليك ؟ فقال الله له مجيباً : لن تراني وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلى في الدنيا ، وأراد أن يريه حقيقة ذلك ، وأن ماطلبه شيء عظيم لاتحمله الجبال ، فأمره قائلاً : أن إنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ الأعراف

فلما تجلّى الله للجبل جملة دكاً ، أى مستوياً بالأرض ، وتفتت ، وخرّ موسى مغشياً عليه ، كما يخرج من أخذته الصاعقة ، وذلك لما هاله من صوت الجبل ، مما حصل له حين غاص في الأرض وتفتت

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

الأعراف

فلما أفاق موسى من غشيته قال : سبحانك (تنزيهاً لك يارب وتبرئةً)
أن يراك أحد في الدنيا ثم يعيش ، قد تبث إليك من مسألتى إياك ما سألتك
من الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بك من قومي ، أن لا يراك أحد في الدنيا إلا
هلك ، وأنا أول المؤمنين بقدرتك ، وجلالك ، وعظمتك

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
الأعراف

فقال الله لموسى : يا موسى إني اصطفيتك على الناس ، واخترتك
لتبليغ رسالاتي إلى خلقي ، فأرسلتك بها إليهم ، وخصصتك بكلامي ،
فكلمتك وناجيتك دون غيرك (ولذا سُمِّيَ موسى الحكيم) فخذ ما أعطيتك
من أمري ونهيي وتمسك به في عملك ، وكن من الشاكرين لله على ما آتاك
﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ رِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ
مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وبعد الأربعين ليلة كتب الله تعالى لموسى في ألواح (أى في التوراة)
من كل شيء ، من التذكير والتنبية على عظمة الله ، وعز سلطانه ، موعظة
لقومه ، وتبياناً لكل شيء من أمر الله ونهيهِ ، من بيان الحلال والحرام ،

والحاسن والقبائح ، وأمره أن (يأخذها بقوة) أى يعمل بما فيها بجهده ،
 وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها (أى بأن يعملوا بأحسن ما يجدون فيها)
 مما ترك لهم الخيار فيه ، كعاقبة المعتدى أو العفو عنه ، والتجاوز عن بعض الحق
 أو المطالبة به كله الخ)

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ الأعراف

وأمره أن ينهيهم عن تضييعها ، وتضييع العمل بما فيها والشرك بالله ،
 فإن من أشرك بالله منهم ومن غيرهم فسيره الله فى الآخرة عند مصيره دار
 الفاسقين ، أى النار التى أعدها لأعدائه الذين خرجوا عن طاعته ، وفى ذلك
 قوله تعالى :

﴿ سَاءَ يَكُونُ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الأعراف

وقد وعد الله بأنه سيمصرف عن الأخذ بآياته من يتكبرون بغير حق ،
 ولا يؤمنون بأية آية يرونها ، ويؤثرون الجهل والضلال على سبيل الرشـد
 والهدى ، وذلك لتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عما فيها من أصول الحكم
 والحياة الصحيحة

وهؤلاء هم المستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وكل مكذب حجب
 الله ورسله وآياته ، وجاحد أنه مبعوث يوم القيامة بعد مماته ، ومنكر

بقضاء الله في آخرته ، كل هؤلاء قد ذهبوا وبطلت أعمالهم ، ولا ينالون إلا جزاء ما كانوا يعملون ، وهو الخلود في النار ، نعوذ بالله منها إنه خير مستجار منه ، وذلك قوله تعالى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف

إتحاذ بني إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه

أخبر موسى عليه السلام قومه (بنى إسرائيل) قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوماً مع مسافة الطريق إلى جبل (حوريب) وهو جبل الطور

فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام لقيم ميقات ربه أربعين ليلة كما مر ذكره ، طالت غيبته عن قومه ، واستبطأ القوم موسى ، فاتهمز رجل من المنافقين منهم يقال له (السامري) غيبة موسى وأخذ من

بنى إسرائيل بعض حُلِيِّهم التي كانت نساؤهم أخذتها من المصريات
قبل رحيلهم وألقاها في النار ، وسبك منها عجلاً مجسداً متقن الصنع ، وجعله
بحيث أنه كان له خوار ، أى صوت كصوت البقر ، وقال لهم : هذا إلهكم
والله موسى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾

الأعراف

فما أغفلهم ! ألم يروا أنه لا يكلمهم ، ولا يهديهم إلى طريق الرشاد ؟
وكانوا باتخاذهم العجل معبوداً لهم ظالمين لأنفسهم لعبادتهم غير الله ، وفي
ذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا

ظَالِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما قضى موسى أجل الصوم وكلم ربه ، وأعطاه الألواح ، سأله الله
تعالى لما قدم عليه في الطور ، عما أعجله عن قومه ، وقال له : أى شيء أعجلك
عن قومك يا موسى فتقدمتهم وتركتهم وراءك ولم تكن معهم ؟ فقال : هم
قادمون على أثرى ، وسيلحقون بي ، وقد عجلت فسبقتهم لكي ترضى
عني يا ربى

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ طه

فقال الله لموسى : يا موسى ، قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل وأضلهم السامري ، فلما سمع موسى قول ربه رجع إلى قومه بعد انقضاء الأربعين ليلة غضبان أسفاً ، متعظاً على قومه ، حزينا لما أحدثوه من بعد فراقه لهم من الكفر بالله وعبادتهم العجل ، وقال لهم : يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بإعطائكم التوراة ، فيها هدى ونور ، أفتال عليكم العهدى ، وبجميل نعم الله عليكم وأياديه لديكم ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم تستحقونه لعبادتكم العجل وكفركم بالله فأخلفتم موعدى ؟ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ طه

فقالوا له : لم نخلف موعدك برغبتنا وأمرنا ؛ ولكننا حملنا أثقالاً من زينة القوم (ويعنون بذلك حلى آل فرعون التى جمعوها منهم) فألقينا

تلك الأنقال في الحفرة في النار ، فأخذها السامري ، وأخرج لنا مما قذفناه
ومما ألقاه عجلاً مجسداً جميل الصنع له صوت كصوت البقر وقال لنا :
هذا إلهكم وإله موسى ، وقد نسيه موسى فذهب يبحث عنه في الطور ،
وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفَنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلِكِنَّا مُحْمَلُنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ
خَوَارِ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ طه

توبيخ الله لهم على عبادة العجل

فوبخ الله عبدة العجل الذين قالوا هذا القول ، وسفه أحلامهم بما فعلوا ،
وقال لهم :

أفلا يرى هؤلاء القوم الضالون أن هذا العجل الذي زعموا أنه إلههم
وإله موسى لا يكلمهم ؟ وإن كلوه لم يرد عليهم جواباً ، ولم يقدر على دفع
ضرر أو جلب نفع ، فكيف يكون إلهاً ؟ وقال لهم هارون من قبل
رجوع موسى إليهم : يا قوم إنما اختبر الله إيمانكم ، ومحافظتكم على
دينكم ، بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار ، ليعلم به من الصحيح الإيمان
منكم ، من المريض القلب الشاك في دينه ؟ واعلموا أن ربكم الرحمن الذي

تعم جميع الخلق نعمه فاتبعوني على ما أمركم به من عبادة الله وترك عبادة
العجل وأطيعوا أمري فيما أمركم به من طاعة الله وإخلاص العبادة له ؛
لقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا
نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ۖ طه

فقالوا له : لن نظلّ على عبادة العجل مقيمين لعبده ، حتى يرجع إلينا

موسى

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ۖ طه
فلما رجع موسى إلى قومه ، رجع غضبان أسفاً حزيناً ، وقال لهم :
بئس ما فعلتم بعد فراق إياكم ، وتعتلّم أمر ربكم في نفوسكم وذهبت عنه .
ثم من شدة الغضب ألقى موسى الألواح وكسرها وأخذ برأس أخيه
يجره إليه ؛ لأنه ظن به التقصير في النصيح لهم ، فقال له هارون : ابن أم
إن القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني ، فلا تفعل ما يشتمهم بي ، ولا تعدّني
في عداد القوم الظالمين لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ
بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ الأعراف

ثم قال موسى لأخيه هارون : يا هارون ، أى شئ منعك إذ رأيتهم
ضلوا عن دينهم فكفروا بالله وعبدوا العجل ؟ ألا تفعل مثل ما فعلت أنا
فتغضب ، أفعصيت أمرى ؟ وجذبه من لحيته ورأسه

فقال له هارون : يا ابن أُمَّ لا تفعل بى هذا ، ولا تأخذ بلحيتى ولا
برأسى ، إني خفت أن تقول فرقت بينهم ، ولم تحفظ قولى لقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾
قَالَ يَبْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٠١﴾ طه

فالتفت موسى للسامرى وقال له : ما شأنك وما الذى فعلته ؟ قال :
رأيت ما لم يروه ، وهو فرس جبريل كان لا يطأ موات أرض إلا أحياء
الله بالخضرة ، فأخذت قليلاً من التراب الذى يطؤه ووضعت على الذهب الذى
أذنباه فلما صنعناه عجبلاً سرت فيه الحياة وصوت ، وقد زينت لى نفسى أنه
يكون كذلك لقوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي ۖ

طه

فقال موسى للسامري : اذهب ، فإن عقوبتك في أيام حياتك أن كل من لمسته تأخذه الحمى ، وتأخذك معه ، فلا تفتر عن قول (لامساس) كلما قرب منك أحد ، وإن لك موعداً لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي ، حتى عبدوا العجل من دون الله ، لن تخلفه أنت ولن تغيب عنه يوم القيامة فيتولى الله معاقبتك ؛ وانظر إلى إلهك الذي أقت وعكفت على عبادته لنحرقنه بالنار ، ثم لننسفن في البحر نسفاً .

ثم نظر إلى قومه وقال لهم : أيها القوم مالكم معبود إلا الله الذي لا إله إلا هو ، والذي أحاط بكل شيء علماً فعله ، فلا يخفى عليه شيء لافي الأرض ولا في السماء ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ ۝ طه ۖ ۝ ﴾

لما تبين لموسى عذر أخيه ، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل قال : رب اغفر لي

وَلَاخِي وَاسْتَرِ ذُنُوبَنَا بَسْتَرْمَنكَ ، وَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ فَإِنَّكَ أَنْتَ
أَرْحَمُ بَعَادِكَ مِنْ كُلِّ الرَّاحِمِينَ ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما سكت غضب موسى أخذ الألواح بعد ما ألغاهما ، وقد ذهب منها
ما ذهب ، وفي نسختها هدى وبيان للحق ، ورحمة للذين يخافون الله
ويخشون عقابه على معاصيه ، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف

ثم إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعقذرون إليه
من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً ، فاقتار موسى سبعين رجلاً من
قومه وقال لهم : انطلقوا معي إلى الله فتوبوا عما صنعتم واسألوه التوبة على
مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ ، وصوموا ، وتطهروا ، وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم
إلى (طور سيناء) لميقات ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم

فقالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ؛ فقال : أفعل

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى

فدخل فيه، وقال للقوم : ادنوا، فدنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ،
فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه فطمعوا في رؤيته
فلما فرغ موسى من أمره ، وانكشف عنه الغمام ، أقبل إليهم فقالوا
له : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ، فأخذتهم الرجفة وهي (الصاعقة)
فأتوا جميعاً

وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ، ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول له :
لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا بعبادة
العجل ؟ ما هذه الفعلة التي فعلها قومي من عبادتهم العجل إلا فتنة منك يارب
ابتليتهم بها ، لمتبين لك الذي يضل عن الحق ، والذي يهتدي بترك عبادة
غيرك ؛ وما هو إلا عذابك تصيب به من تشاء ، وتصرفه عن تشاء ، فأنت ولينا
وناصرنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، وارحمنا برحمتك ، فأنت خير من
يصفح ويعفو ويرحم ، لقوله تعالى :

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِئَاسَةً فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ
مِثْلًا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ الأعراف

ثم أخذ موسى يتضرع إلى الله ويقول : يا رب اخترت سبعين رجلاً من
أخيار بني إسرائيل وأعود إليهم وليسوا معي فلا يصدقوني ، ولم يزل يتضرع
حتى أحياهم الله ورد إليهم أرواحهم ، فعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف
يحيون بعد موتهم ؟ وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ
الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
البقرة

فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا : لا ، فقال : أى شئ أصابكم ؟
قالوا : أصابنا انا متنا ثم حيينا . قال : خذوا كتاب الله .

قالوا : لا . فبعث الله تعالى الملائكة فنتقت الجبل فوقهم ، أى زعزعت
وهزته ؛ فقليل لهم : أنعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا (جبل الطور) قال : خذوا
الكتاب ، وإلا طرحننا الجبل عليكم .

فلما هددهم الله برفع الجبل فوق رؤوسهم ، أخذ عليهم العهد بالعمل بما في
الكتاب (التوراة) جهد استطاعتهم وتدبره ، والاعتبار بما فيه لهمم يتقون
الله ويخافون ، ويقلمون عما كان من إصرارهم ؛ قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَآذِكُرُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
البقرة

ثم بعد هذا كله لم يكن منهم إلا الإذبار والإعراض عن الميثاق الذى
أخذه الله عليهم ، ولولا فضل الله عليهم بتوفيقهم للتوبة لكانوا من
الهالكين الخاسرين بسبب نقضهم الميثاق وعدم إطاعتهم أمر الله تعالى
﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ البقرة

توبة بنى إسرائيل عن عبادة العجل

فلما علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا
على ذلك وقالوا ، لئن لم يرحمنا ربنا ، ويغفر لنا شركنا ، ويتب علينا ، لنكونن
من الخاسرين ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال موسى لقومه من بنى إسرائيل : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم
باتخاذكم العجل رباً بعد فراقى ، ثم أمرهم بالرجوع من ذنبهم ، والإجابة إلى الله
من ردتهم ، بالتوبة إليه ، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به ، وأخبرهم أن توبتهم
من الذنب الذى ركبوه تكون بقتلهم أنفسهم ، بأن يقتل كل إنسان من
يقابله من قريب أو أخت أو نحو ذلك ، فإن ذلك خير لهم عند الله ؛

فأخذوا يقتتلون حتى قتل منهم عدد عظيم ، وقيل : قتل منهم سبعون ألفاً ،
فكان من قُتل منهم شهيداً ، ومن بقى قد قبلت توبته ؛ لأن الله تواب
رحيم لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ
الْعِجْلَ فَمُتُّوْا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ
بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة

أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة

وعصيانهم موسى

أمر الله تعالى موسى أن يذهب ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة
لامتلاكها ، (وهى فلسطين التى وعد الله إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب أن
تكون ملكاً لأولادهم) فقال لهم موسى :

يا قوم تذكروا فضل الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء يتولونكم بالهداية
والإرشاد ، وجعل منكم ملوكاً وآتاكم من فضله مالم يؤت أحداً من العالمين ،
يا قوم إن الله أراد أن تكون الأرض المقدسة مسكناً لكم فادخلوها ،
ولا تنهوا أمام محتليها ، ولا ترجعوا ، فتقلبوا خاسرين ثواب الدارين (الدنيا
والآخرة)

ولكن بنى إسرائيل قوم قد ألفوا الذل والمسكنة ، وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم ، فلم تكن لهم قوة على الدخول إلى تلك الأرض ، فلم يشاءوا أن يذهبوا إليها إطاعة لأمر ربهم ، وقالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، لا طاقة لنا بحربهم ، ولا قوة لنا بهم ، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن خرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا نطيق دخولها وهم فيها ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخِلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

المائدة

وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبني إسرائيل (يوشع ابن نون وكالب بن يوقنا) وكانا رجلين صالحين من الذين يتقون الله ويخافونه ، أنعم الله عليهما بالهدى والثبات ، واتبعا موسى وهارون : ادخلوا عليهم أيها القوم باب مدينتهم (اريحاء) فإن الله معكم وناصركم عليهم ، وإنسكم إذا دخلتم الباب غلبتموهم ؛ وتوكلوا أيها القوم على الله في دخولكم

عليهم ، وثقوا بأن الله معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم إن كنتم
مصدقين ومؤمنين بنبيكم لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ
الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ۝۱۰۰ ﴾

المائدة

فقالوا : يا موسى ، لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك
فقاتلا هؤلاء الجبارين ، إنا ههنا قاعدون ، لا نجىء معك إن ذهبت لقتلهم

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنُودُكَ أَهْلًا بِمَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ۝۱۰۱ ﴾

المائدة

فعند ذلك غضب موسى وقال لربه داعياً : يا رب إني لا أملك إلا
نفسى ، ولا أقدر أن أحمل أحداً على ما أحب وأريد من طاعتك ، واتبع
أمرك ونهيك إلا نفس أخى ، فافصل بيننا وبينهم بقضاء وحكم عادل منك
تقضيه فينا وفيهم ، إنهم قوم فاسقون ، وخارجون عن الإيمان بالله

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ۝۱۰۲ ﴾

المائدة

التيه الذي كتبته الله على بني إسرائيل أربعين سنة

فأوحى الله إلى موسى إن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة ،
يتيهون في الأرض ، ويسيرون متحيرين ، فلا تحزن على القوم الفاسقين
قال تعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا
تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة

فكان بقاء بني إسرائيل في البرية من عهد خروجهم من مصر إلى أن
مات موسى عليه السلام وعبروا نهر (الأردن) وملكوا (أريحاء) ومامعها من
الأرض غرب (الأردن) أربعين سنة .

ذكر القرية التي مسح الله أهلها بعدوانهم في السبت

وجعلهم قردة

قل موسى لبني إسرائيل اسكنوا هذه القرية ، وهي قرية بيت
المقدس (وقيل إنها مدين وقيل إنها طبرية) فكلوا من ثمارها وحبوبها
ونباتها في أي مكان شئتم ، وادعوا الله أن يحبط عنكم أوزاركم ، وادخلوا
بابها ساجدين ، فيغفر لكم ذنوبكم ؛ ويتعمدكم برحمته ، ويعفو عنكم ، فلا

يُواخِذْكُمْ بِهَا ، وَيَزِيدَ اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ ، وَهُمْ الْمُطِيعِينَ لَهُ ، إِحْسَانًا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف

فغفر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول ، فبعث الله عليهم عذاباً من السماء وأهلكهم بظلمهم لقوله تعالى :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف

وكان أهل هذه القرية يعتدون في يوم السبت أمر الله ، ويتجاوزونه إلى ما حرمه عليهم بالصيد فيه ، إذ كانت تأتئهم الأسماك يوم السبت طافيةً على وجه الماء ، ولا تأتئهم في غيره من الأيام ؛ وقد ابتلاه الله بهذه الحنة بسبب فسقهم لقوله تعالى :

﴿ وَأَسَاءَ لَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً فِي الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف

فقال جماعة من اليهود لجماعة منهم كانت تعظ المعتدين في السبت وتنهاهم عن معصية الله فيه : لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا سَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

بمعصيتهم إياه ، وخلافهم أمره ، واستحلالهم ما حرم الله عليهم ، وسيعذبهم
عذاباً شديداً في الآخرة ؟

فقالوا لهم : إنما نعظم لنؤدى فرض الله علينا ، وهو الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، لعلمهم يتقون ، وفي ذلك معذرة منا لربنا قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الأعراف

فلما خالفت الطائفة التي اعتدت في السب ما أمرها الله به من ترك
الاعتداء فيه أنجى الله الذين ينهون منهم عن سوء وأخذ الذين ظلموا
واعتدوا في السب واستحلوا ما حرم الله من صيد السمك وأكله ، فأحل
بهم بأسه ، وأهلكهم بعذاب شديد لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

الأعراف

فلما تمردوا ، وتمادوا في طغيانهم ، جعلهم الله قردة لها أذنان تعوى بعد
ما كانوا رجالاً ونساء مطرودين من رحمة الله لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِثِينَ ﴾

الأعراف

وجعل الله هذه العقوبة عبرةً للأمم المعاصرة لهم ، والتي تحيىء من بعدهم
إلى أبد الأبد ين قال تعالى :

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

البقرة

معجزة موسى في مسألة البقرة مع بنى إسرائيل

كان فى بنى إسرائيل رجل غنى ، ولم يكن له ولد ، وكان له ابن عم ، وكان
وارثه ، فقتله طمعاً فى ميراثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى فقال
له : إن قريبي قُتل ، وإني فى حيرة من أمرى ، وإني لا أجد أحداً يرشدنى
على القاتل غيرك يابنى الله

فنادى موسى فى الناس مَنْ كان عنده من هذا علم يبينه لنا ؟

فلم يكن عندهم علمه ، فأقبل القاتل على موسى فقال : أنت نبيّ الله

فأسأل لنا ربك أن يبين لنا

فسأل موسى ربه ، فأوحى الله إليه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة

ليبين لكم المجرم من البرىء ، فمجبوا لقوله ، وقلوا له : إلك تهزأ بنا . فقال .

(أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) قالوا : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا

مَا هِيَ ؟) قال لهم : إن الله يقول : إنها بقرة لا صغيرة ولا هزمة ؛ بل هى

نَصَفُ بَيْنَ الْبَكْرِ وَالْهَرَمَةِ

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ
فَاعْمَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

فَقَالُوا : ﴿ اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا ﴾ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ أَيْ صَافٍ لَوْنُهَا ﴿ تَسْرُ النََّاظِرِينَ ﴾ أَيْ تَعْجَبُ
النَّاظِرِينَ لِحُسْنِهَا

قَالُوا : ﴿ اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

قَالَ : ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ (أَيْ لَمْ يَذْلُهَا الْعَمَلُ) تُثِيرُ
الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ (أَيْ لَا تَعْمَلُ فِي الْحَرْثِ) مُسَلَّمَةٌ لَا شِئْمَةَ فِيهَا
أَيْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ لَا بَيَاضَ فِيهَا

قَالُوا : ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ثُمَّ طَلَبُوا الْبَقْرَةَ فَذَبَحُوهَا

وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَ مُوسَى بِلِسَانِهَا وَضَرَبَ بِهِ الْقَتِيلَ ، فَرَجَعَتْ لَهُ الْحَيَاةُ
وَأَخْبَرَ عَنْ قَاتِلِهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ

وَمَعَ ظُهُورِ هَذِهِ الْمَعْجِزَةِ الْغَرِيبَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَقِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى قِسَاوَتِهَا
كَأَنَّهَا الْحَجَارَةُ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنْهَا ، وَلَمْ تَحْدِثْ هَذِهِ الْعَجِيبَةُ فِي قُلُوبِهِمْ لَيْنًا

إيذاء بنى إسرائيل لموسى

أما مسألة إيذاء بنى إسرائيل لموسى عليه السلام فقد تعدد القول فيها ،
ذكر البيضاوى فيها ما يأتى :

أن موسى طلب الزكاة من قارون (وكان رجلاً من بنى إسرائيل آتاه
الله بسطة فى الرزق ، وأدر عليه الثراء ، حتى إن مفاتيح خزانته كانت تنوء
بالعصبة أولى القوة ، وكان مرموقاً من قومه بعين الغبطة)

فشجّت نفسه بالمال ، وأراد أن يكيد لموسى ليبرجه ، فاتفق مع امرأة أن
تقول عن موسى إنه زنى بها ، ولما أصبح قال لموسى : أليس من الشريعة أن
الزانى يرحم ؟ قال : نعم . قال : فإنك قد زنيت بفلانة ، ويجب أن تسلم نفسك
لنرجمك

فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعى هذه الدعوى على
موسى وهو برىء منها ، وبذلك برأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً
أما قارون الذى افترى على موسى فكانت عاقبته أن خسف الله به ، وبداره
الأرض ؛ قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ۝ ﴾ الأحزاب

قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر)

قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فغضب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه ، أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مكمل (مقطف) فحينما فقدت الحوت فقد وجدته ، فأخذ حوتاً فى مكمل وانطلق به ، وانطلق معه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكمل فخرج منه فسقط فى البحر (فَأَخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : (أَتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا

الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٠﴾

قال : فكان النسيان للحوت سرباً ، ولموسى ولفتهاه عجباً . فقال موسى : ﴿ ذَلِكْ مَا كُنَّا نَبْغِي فَاذْهَبْ عَلَى آثَارِهَا قَصَصًا ﴾ قال : رجعا يقصان آثارها حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل قائم (يدعى الخضر) مسجى بثوبه ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى يكون بأرضنا السلام ؟ ومن أنت ؟ قال : أنا موسى قال : موسى صاحب بنى إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك ليعلمنى مما علمت رشداً . قال : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا .

فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فَإِنْ أَمَرَكَ أَنْ تَذْهَبَ فَاذْهَبْ ﴾ فقال له موسى : فقال له موسى : ﴿ قَدْ جِئْتُ شَيْئًا أَمْرًا ﴾ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلمها من فيها أن يحملوها فحملوها (الخضر) فحملوها بغير نول (أجر) فلما ركبا في السفينة لم يشعر إلا والخضر خلع لوحاً من السفينة ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا أَمْرًا ﴾ أى أمراً عظيماً .

قال له الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال :
 (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) قال : وكانت الأولى من موسى نسياناً
 قال : وجاء عصفور فوق على طرف السفينة فنقر في البحر نقرةً فقال
 له الخضر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر أو نقص هذا
 العصفور من البحر

قال : ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر
 الخضر غلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ برأسه فقتله ؛ فقال له موسى :

﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ
 أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
 تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾

قال : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ
 يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴾

قال : مسحه بيده ، فقال له موسى : قوم آتيناهم فلم يضيفونا ، ولم ينزلونا
 ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

قال : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ
 عَلَيْهِ صَبْرًا . ﴾

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم .

وهذه القصة المذكورة بالتفصيل في سورة الكهف والله أعلم

موت موسى وهارون وثناء الله عليهما

وقيل : إن موسى عليه السلام أمره الله أن يصعد إلى جبل « نبو » وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها ، ففعل ، ومات على الأكمة التي هي من رمل أحمر ، ودفن هناك ، وخفيت معالم قبره

وأهل (فلسطين) يدعون أن قبره في موضع من بلادهم و يقيمون له مولداً يُقصد من كل ناحية في كل سنة في موعد معين ، وكان عمر موسى ١٢٠ مائة وعشرين سنة

أما هارون فقد مات قبل موسى ودفن في جبل (هور) من جبال (سيناء) التي في البرية ، والذي دفنه هو موسى ، ثم عاد إلى بني إسرائيل وأخبرهم بموته ، فاتهموه بقتله ، وهذا غير صحيح

وقد أثنى الله على موسى وهارون ثناء طيباً لما كاداه من عنت قومها وشدة ثباتهم مع ما كان عليه من الإيمان الصحيح والإخلاص قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا
أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝ مريم

العبرة من قصة موسى وهارون عليهما السلام

يستفاد من هذه القصة عظات بالغات وهي :

- ١ — الصبر على البلاء وتحمل البأساء والضراء
- ٢ — التوكل والاعتماد على الله في كل الأمور
- ٣ — التمسك بالحق وعدم المبالاة بمن يخالفه ولو كان عظيماً أو ملكاً
أو أميراً
- ٤ — أن للحق أنصاراً كما أن للباطل أنصاراً ؛ واسكن الحق يقهر الباطل
- ٥ — لذة الإيمان بالله والإخلاص في عبادته وعدم المبالاة بالعذاب
في سبيل الدعوة إلى الله
- ٦ — الحلم عند الغضب ، ومقابلة الإساءة بالإحسان
- ٧ — عدم الغرور والادعاء بالعلم ، والاعتراف بالفضل لذويه

٢٤ - قصة سيدنا عيسى بن مريم

عليه السلام (عبد الله ورسوله)

سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام هو عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وهو آخر أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل كما أن آخر الأنبياء والرسل من بني الإنسان جميعاً (محمد رسول الله) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وقد ذكر اسم عيسى في القرآن بلفظ المسيح تارة ، وهو لقب له ، و بلفظ عيسى وهو اسمه العلي وبالعبرية (يشوع) أي المخلص ، إشارة إلى أنه سلب لتخليص كثير منهم من آثامهم وضلالهم . وبكنيته (ابن مريم) تارة أخرى

ومن جليل حكم الله تعالى أن خلق سيدنا آدم أبا البشر عليه السلام من تراب من غير أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وخلق بقية النوع الإنساني من أب وأم

١ - تبشير مريم بعيسى

لما أراد الله تعالى أن يخلق نبيه عيسى عليه السلام أرسل إلى مريم بنت عمران حينما اعتزلت أهلها في مكان شرقى ، واتخذت من دونهم ستراً

لَتَغْتَسِلَ مِنْ حَيْضِهَا وَتَتَطَهَّرَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهَا الْمَلَكُ جَبْرِيلُ فَيَمَثِلُ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
الْخَلْقَ ، أَى فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنَى آدَمَ مَعْتَدِلِ الْخَلْقِ

فَلَمَّا رَأَتْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَهَا الرُّعْبُ وَظَنَتْ أَنَّهُ يَرِيدُ بِهَا سُوءًا
فَاسْتَعَاذَتْ بِاللَّهِ مِنْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا فَلَا تَتَعَرَّضْ لِي بِسُوءٍ

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ مريم

فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ يَا مَرْيَمُ ، أَرْسَلْنِي
إِلَيْكَ لِأَهْبِ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهْبِ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ مريم

فَأَجَابَتْهُ : كَيْفَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ، وَأَنَا لَمْ أَتَزَوَّجْ ، وَلَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ ،
وَلَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ ؟

﴿ قَالَتْ أَتَنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

مريم

فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ : هَكَذَا الْأَمْرُ كَمَا تَصِفِينَ مِنْ أَنَّكَ غَيْرُ مَتَزَوِّجَةٍ وَلَمْ
تَكُونِي بَغِيًّا ؛ وَلَكِنْ رَبُّكَ قَالَ : هُوَ عَلَى هَيْنٍ (أَى خَلَقَ الْغُلَامَ الَّذِي قُلْتَ

إني رسول الله لأهبه لك هو هين على الله لا يتعذر عليه خلقه) وقد أراد ذلك ليكون دليلاً للناس على عظم قدرته ، ورحمته لمن آمن به وصدقه ؛ وقد حكم حكماً مقضياً بإيجاده لا محالة

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم

فنفع جبريل عليه السلام في جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى جوفها فإذا هي حامل وهي بنت عشر سنين بعيسى عليه السلام

ولما حملت اعتزلت في مكان بعيد وتنفحت عن الناس ، فأجاءها الخاض إلى جذع النخلة ، وولدت المسيح عيسى في (بيت لحم) ثم قالت من طريق الحجل والاستحياء : ياليتني مت قبل الكرب الذي أنا فيه ، والحزن بولادتي هذا المولود من غير بل ، وكنت في عالم النسيان لا يذكرني أحد ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ مريم

٢ - ولادة عيسى عليه السلام

فلما وضعته ناداها منادٍ من تحتها (بعضهم يقول جبريل عليه السلام وبعضهم - وهم أغلب المفسرين - يقول عيسى عليه السلام ناداها من تحتها

بعد ما ولدته) قائلاً : يا مريم قد جعل ربك تحتك سرياً أي سيداً وجيهاً رفيع القدر ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فسكبي من هذا الرطب ، واشربي من ماء النهر الذي بجوارك ، وقرري عيناً ، وطببي نفسك ، وافرحي بولادتك إياي ، ولا تحزني ، فإن رأيت من بني آدم أحداً يكلمك ، أو يسألك عن شيء من أمرك ، وأمر ولدك وسبب ولادته فقلولي له : إني نذرت وأوجبت على نفسي لله صمتاً ألا أكلم أحداً من الخلق ، فلن أكلم اليوم إنساناً

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَسَكَبِ وَوَقَرَّتْ عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ مريم

فلما قال ذلك عيسى لأمه مريم اطمأنت نفسها ، وسلمت لأمر الله وحملته حتى أتت به قومها بني إسرائيل وهم مجتمعون ومعهم زكريا ، فلما رأوها ورأوه معها قالوا لها : يا مريم لقد جئت شيئا فرياً أي أمراً منكراً ، ثم قالوا لها على سبيل الاستهزاء والتهكم :

يا أخت هارون (وقيل ان هارون هذا كان رجلاً صالحاً من أتقياء

بنى إسرائيل) ما كان أبوك رجل سوء يأتي بالفواحش ، وما كانت أمك
بغياً أى زانية فمن أين أتيت الفضيحة ؟

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيئاً يَا أُخْتَ
هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

مریم

فقلت لهم : كلوه ، وأشارت إليه ، فقالوا : كيف نسلك من وجد في
المهد صبياً ؟ واستغربوا من ذلك

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُسَکُّ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

مریم

فلم يمهلهم عيسى عليه السلام ؛ بل أجابهم الجواب الشافي الدال على
براءة أمه ، والمعلن أنه سيكون من أهل العلم والدين الذين آتاهم الله الكتاب
(الإنجيل) وأنه سيجعله نبياً ، وأن يبارك فيه أينما توجه ، وأن الله أوصاه
بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وأنه سيكون برّاً بوالدته ، وسيكون عبداً
متواضعاً لا جباراً شقيماً ، ولا مختالاً فخوراً ، وأن الله قد حفظه وأمه يوم
ولادته ، وأنه سيموت في أمن وسلام ، وسيبعث يوم القيامة حياً
ثم لم يتكلم بعد ذلك ، حتى كان بمنزلة غيره من الغلمان
وفي ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي
وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم

فلما سمع ذلك أحبار بني إسرائيل من عيسى عليه السلام علموا أنه
لا أب له ، وأن الله عز وجل خلقه كما خلق آدم ؛ فتحققت بذلك براءة
مريم ، وقال زكريا : الحمد لله الذي برأنا من كلام الفساق
وقال الله تعالى . هذا الغلام الذي أخبرتكم به ، وبينت لكم صفاته
هو (عيسى بن مريم) وهذا الخبر الذي قصصته عليكم هو قول الحق لا شك
ولا مريية فيه

﴿ ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مريم
ولما تم لعيسى عليه السلام ثمانية أيام من مولده ختن وسموه (اليسوع)
وسنة الختان عند اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته ، كما أمر الله
إبراهيم بذلك ، ولم يرد ذكر ختانه في القرآن الشريف بل ورد في بعض
الأنجيل

مثل عيسى كمثل آدم

وقد قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان أهل (نجران) النصراني

يجادلونه في كون عيسى عليه السلام خلق من غير أب : قل لهم : إن شأن عيسى (وهو في بابه غريب إذ خلقه بلا أب) كشأن آدم ، فقد خلقه من التراب ، ثم قال له : كن بشراً سوياً فكان ، فأدم قد خلقه الله من تراب بلا أب ولا أم ، فحالاه أغرب من عيسى ، وأدعى لإظهار قدرة الله الخالق لكل شيء .

وهذا هو الحق من عند الله فلا تسكن يا محمد في شك ولا مرية فيه ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ أَلْحَقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۚ ﴾

آل عمران

٣ — ذهاب مريم والمسيح عيسى إلى مصر

مع ابن عمها يوسف النجار

ثم أخذت مريم ابنها عيسى عليه السلام وسارت به إلى مصر مع ابن عمها (يوسف النجار) وأقاموا هناك اثنتي عشرة سنة

وقيل : إن مصر هي الربوة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم لقوله تعالى في حق عيسى وأمه : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً

وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿١٤١﴾
المؤمنون

ويزعم المسيحيون في مصر أنهما استقرا ببلدة (عين شمس) بضواحي القاهرة ، ويقولون : إنهما استظلا هناك بشجرة قد بقي أصلها محتفظاً به إلى أمد غير بعيد ، وكانوا يسمونها شجرة العذراء (أى شجرة مريم) ويعني الناس بالذهاب إلى زيارتها بضاحية المطرية

ولما مات ملك الشام (هيرودس) الذي كان يريد قتل عيسى ، رجعت مريم وعيسى ويوسف النجار ومن آمن معهم إلى أرض الخليل ، وهو موضع بالشام ، وسكنوا في قرية يقال لها (الناصرة) وبها سميت النصراني ، وأقاموا بها زمناً طويلاً ، ونشأ فيها عيسى عليه السلام نشأةً صالحةً محمودةً ، وعاش في النعمة والحكمة أمام الله والناس ، وكان غيوراً على الدين منذ صغره ، حريصاً على تفهم حكمه وأسراره ، وكان يجالس العلماء ويناقشهم ويسألهم ويحييهم ، فاليئة التي تربى فيها مدة صباه وشبابه بيئة علم وحكمة ودين

٤ — نبوة المسيح عيسى عليه السلام ورسالته

لما بلغ عيسى عليه السلام ثلاثين سنة من العمر جاءه الوحي داخل مسجد بيت المقدس ، وكان قد تعلم الكتاب فبعثه الله رسولاً ، وعلمه التوراة والإنجيل ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ آل عمران

ويقول الله تعالى : قد اتبعنا عيسى بن مريم آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد ، فبعثناه نبياً ، مصداقاً لكتابنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله ، وأنه حق ، وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب ، وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه (الإنجيل) فيه هدى ، وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه ، ونور وضياء من عمى الجهالة (ومصدقاً لما بين يديه) أى أنزلناه إليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التى كان أنزلها على كل أمة ، أنزل إلى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم فى ذلك الكتاب من تحليل ما حلل الله ، وتحريم ما حرم (وهدى وموعظة) أى أنزل الإنجيل على عيسى مصداقاً للكتب التى قبله ، وبياناً لحكم الله الذى ارتضاه لعباده المتقين فى زمان عيسى ، وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال

﴿ وَقَمَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة

وأمر الله النصرارى بأن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل من أحكامه

فإذا لم يحكموا بما أنزل الله فيه وخالفوه ، فأولئك هم الخارجون عن الدين أى
عن أمر الله

﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة

٥ - معجزات عيسى عليه السلام

فلما جاء إلى بنى إسرائيل سألوه أن يأتى لهم بعلامة تدل على رسالته
ونبوته فقال لهم : إن حجتى على ذلك أنى قد جئتكم بآية من ربكم تحقق
قولى ، وتصدق خبرى ، إني رسول من ربكم إليكم ، وفى ذلك قوله تعالى
على لسانه :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ آل عمران

فقالوا له : ما هذه الآية التى جئتنا بها ؟ قال لهم : إن علامة صدق أن
أصنع لكم من الطين ما يشبه الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله
(وقيل : هو الخفاش) .

﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ آل عمران

وأشفى الأكمه (المولود الأعمى الذى لا يبصر) وأشفى المصاب بداء البرص
وأحيى الموتى بإذن الله

وقيل : إنه أحيا (عازر) وكان صديقاً له فرض ، فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت ، فسار إليه ، وبينهما ثلاثة أيام ، فوصل إليه وقدمات مند ثلاثة أيام فأتى قبره فدعا له فأحياه الله وبقى حتى ولد له ، وأحيا امرأة وعاشت وولد لها

وقيل : إن بنى إسرائيل قالوا له : أحيى لنا عزيزاً وإلا أحرقتك ، فدعا الله فأحياه ، فقالوا : ما تشهد لهذا الرجل ؟ قال : أشهد أنه عبد الله ورسوله وأخبركم بما تأكلونه من أهلكم ، وما تدخرونه في بيوتكم لقوله تعالى : ﴿وَأُزْيِىْ أَلَّا كَمَهَ وَلَا بُرْصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ آل عمران

إن في كل هذه المعجزات دليلاً كافياً على أنى محق في قولى لكم إني رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته ، مقرين بتوحيده ونبيه موسى ، والتوراة التى جاءكم بها ، وأنى أحل لكم بعض ما حرم عليكم أى أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه ، ثم أحله لكم تخفيفاً عنكم فتصيبون يسره وتخرجون من تبعته . وفى ذلك قول الله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿١٠٠﴾

آل عمران

ثم قال : لقد جئتكم بآية من ربكم ، تعلمون بها يقيناً صدق فيما أقول فاتقوا الله يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به ، وأنهاكم عنه في كتابه الذي أنزل على موسى ، فأوفوا بعهد الذي عاهدتموه فيه ، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم ، فاعبدوه فإنه بذلك أرسلني إليكم ، وبإحلال بعض ما كان محرماً عليكم في كتابكم ، وهو الطريق القويم والهدى المبين ، الذي لا اعوجاج فيه يقول الله تعالى :

﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

آل عمران

٦ - إقامة الحجّة على من كفر

وادعى أن المسيح هو الله ، وابن الله ، وثالث ثلاثة

لقد كفر النصارى الذين قالوا : عيسى ابن الله ، وأعظموا الفرية عليه ، فما ينبغي لله أن يتخذ ولدًا ، ولا يمكن أن يكون له ذلك ؛ بل كل شيء دونه ، فهو ليس في حاجة للإعانة ، وإنما إذا أراد أمرًا أن يقول له : كن فيكون ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مريم

وقد أخبرهم عيسى عليه السلام عن نفسه وقال لهم : إني وإياكم عبيد الله ، فاعبدوه ولا تعبدوا رباً سواه ، وإني أوصيكم باتباع الطريق المستقيم ، الذي أمرني به ربي ، فإن من سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ؛ لأنه دين الله الحق ، الذي أمر به أنبياءه ، وفي ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

مريم

ولقد كفر النصارى الذين زعموا وادعوا أن المسيح بن مريم هو الله ، فقال المسيح عليه السلام لبني إسرائيل : يا قوم اعبدوا الله ربي وربكم ، وسيدى وسيدكم ، الذى خلقنى وإياكم ، وإن من يشرك بالله غيره ، فقد حرّم الله عليه الجنة أن يسكنها فى الآخرة ، وحيكم أن مصيره ومأواه نار جهنم ، وأن من ظلم نفسه ، وفعل غير ما أباح الله له وعبد غيره ، فليس له من أنصار ينصرونه يوم القيامة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ

بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٤٧﴾

المائدة

وزعم فريق آخر من النصاري أن الله ثالث ثلاثة ، أى واحد يع
ثلاثة أفانيم : أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً غير والد ، وزوجاً متبعة
بينهما ، فرد عليهم الله مكذباً لهم فيما قالوا من ذلك :

مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ ، أَى مَا لَكُمْ معبود أيها الناس إلا معبود
واحد ، وهو الذى ليس بوالد لشيء ، ولا مولود من أحد ؛ بل هو خالق كل
والد ومولود ، فإن لم ينتهوا عن هذا القول ، والادعاء من أن الله ثالث ثلاثة ،
ليصين الذين كفروا منهم بالله عذاب عظيم ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ
وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ المائدة

ثم رجع فحذرهم من هذا الكفر ، ودعاهم إلى التوبة من عقيدتهم
هذه ، وطلب المغفرة ليصفح بذلك عنهم ، ويعفو عما سلف من إجرامهم
فقال تعالى :

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة

ثم أخبرهم وبيّن لهم أن المسيح بن مريم ولدته أمه ولادة الأمهات
أبناءهن ، وذلك من صفات البشر لا من صفة خالق البشر ، وإما هو رسول
الله كسائر رسله ، الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا ، وأجرى على يديه ما شاء
أن يجريه من الآيات والمعجزات ، حجة له على صدقه ، وعلى أنه رسول الله أرسله
لهداية بني إسرائيل ، وأن أمه صديقة كسائر النساء الصديقات وأنهما
كانا يأكلان الطعام كجميع الناس ، أى أنهما كانا في حاجة إلى ما يغذيهما
وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم ، وأن
من كانت هذه صفته لا يكون إلهاً ؛ ولو كانا الهين لما لازمتهما الحاجات
الجسدية لقوله تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ المائدة

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انظر يا محمد كيف
نبين لهؤلاء الكفرة النصارى الآيات الدالة والحجج القاطعة على بطلان
ما يقولون فى أنبياء الله ؟ وفى افتراءهم على الله ؛ وادعائهم بأن له ولداً
وشهادتهم لبعض خلقه بأن لهم رباً وإلهاً ، ثم لا يرتدعون عن كذبهم
وباطل قولهم ، ثم انظر يا محمد كيف يكذبون ، وعن طريق الهدى
يضلون ؟

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ نَمْ أَنْظِرْ أَيْ يُؤْفَكُونَ ﴾ المائدة
ثم أشار إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء الكفرة من
النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم ، والقائلين إن الله ثالث ثلاثة : أيصح أن
تعبدوا من دون الله ما لا يستطيع أن يضركم ولا أن ينفعكم ؟ والله يسمع
ما تقولون ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو
يحييكم ويميتكم

﴿ قُلْ أَعْبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ المائدة

وقد لام الله أهل الكتاب وحذرهم وقال لهم : يا أهل الكتاب (أى
يا أهل الإنجيل من النصارى) لا تغلوا فى دينكم ، فلا تتجاوزوا الحق فى
دينكم فتفترطوا فيه ، ولا تقولوا فى عيسى غير الحق ، فإن قولكم فى عيسى
أنه ابن الله افتراء منكم على الله ؛ لأن الله لم يتخذ ولداً فكيف يكون
عيسى وغيره من خلقه أبناء له ؟ ولا تقولوا على الله إلا الحق ، وفى ذلك
قوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ ﴾ النساء

ثم أكد بأن المسيح عيسى بن مريم هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فقال لهم : أيها الغالون في دينكم من أهل الكتاب ، الزاعمون بأن عيسى بن الله اعلّموا أن عيسى بن مريم لا نسب له غير ذلك ، وهو رسول الله أرسله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه

(وسمّاه المسيح لمسحه ، وتطهيره من الذنوب والأدناس التي تكون في الآمين كما يمسح الشيء من الدنس الذي يكون فيه فيطهر منه)

وهو كلمته التي ألقاها وبشر بها مريم وأعلّما بها ، وروح منه أي ونفخة منه ؛ لأن جبريل عليه السلام نفخ في درعها بأمر الله إياه ، فلذلك نسب إليه أنه روح من الله وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ النساء

ثم أمر الله بالإيمان به ، وبألا يقولوا أنه ثلاثة أقانيم كما يزعمون (الأب والابن ، وروح القدس) فقال لهم : فآمنوا بالله ورسله ، وصدّقوا بأهل الكتاب بوحدانية الله وربوبيته ، وأنه لا ولد له ، وصدّقوا رسله فيما جاءهم به من عند الله وفيما أخبروكم به إن الله واحد لا شريك له ، وليس له صاحبة ، ولا ولد له ، فإنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ولا تقولوا الأرباب ثلاثة .

ثم توعدهم وقال لهم : أيها القائلون أن لله ثالث ثلاثة انتهوا وارجعوا

عما تقولون من الزور والشرك بالله ، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من
الادعاء به ، الذى تنالون عليه من الله العقاب العاجل لكم ، وذلك قوله
تعالى :

﴿ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوْا ثَلَاثَةٌ اَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ اَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ اَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ لَكُمْ

النساء

ثم قال لهم : اعلموا بأن الله إله واحد ، ومن كان له ولد فليس بإله ؛
ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إله واحد ، معبود لا ولد له ، ولا والد ،
ولا صاحبة ، ولا شريك .

ثم نزه جل ثناؤه نفسه ، وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة فقال :

﴿ إِنَّمَا اللّٰهُ اِلٰهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ اَنْ يَكُوْنَ لَهُ وَلَدٌ لَّهٗ مَا فِى السَّمٰوٰتِ

وَمَا فِى الْاَرْضِ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴾ النساء

أى جلّ وعزّ وتعظم وتنزه أن يكون له ولد أو صاحبة ؛ لأن جميع ما فى
السموات وما فى الأرض عبيده وملّكه ، وأنه رازقهم ، وأنهم فى حاجة إليه .
وقال البوصيرى رحمه الله ردّاً على مدعى التثليث :

خبرونا أهل الكتابين من أي	ن أناكم تثلّثكم والبداء ؟
ما أتى بالعقيدين كتاب	واعتماد لا نصّ فيه ادعاء
والدعاوى إن لم تقيموا عليها	بينات أبناءها ادعاء
ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا	حد نقص فى عدكم أم نداء ؟

كَيْفَ وَحَدَّثْتُمْ إِلَها نَفِي التَّوَّ حيد عنه الآباء والأبناء ؟

أَلِلْهُ مُرْكَبٌ مَا سَمَعْنَا ؟ بِإِلْهِ لَذَاتُهُ أَجْزَاءُ

المعنى — أعلمونا أيها النصارى واليهود ، مامنشأ قولكم إن الله ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ؟ وما منشا ادعائكم أن ننسخ التوراة بالإنجيل يستلزم البداء ، أى ظهور المصلحة فى الشىء الله بعد خفائها عليه تعالى .

وفى تفسير الجلالين (إن الله ثالث ثلاثة) أى أحد آلهة ثلاثة ، والاثنان عيسى وأمه مريم

وفى شرح الهمزية للسنباطى : أنهم يريدون بالأب الوجود ، وبالابن العلم ، وروح القدس الحياة

وفى تفسير الخازن : الأقانيم (أى الأصول) ثلاثة : أقنوم الأب وهو ذات الله ؛ وأقنوم الابن وهو عيسى ، وأقنوم روح القدس ، وهو الحياة الحالة فيه

ثم شرع يرد على دعواهم فقال : ليعنى أعلم سر هذا التناقض العجيب ، فأنتم تارة تثبتون تعدد الإله بقولكم : إن الله ثالث ثلاثة ، فتحققون الزيادة ، وثارة تثبتون عدم تعدده بقولكم : الله واحد ، فتحققون النقص

وقد تعجب منهم بقوله : كيف وحَّدْتُمْ إِلَها نَفِي التَّوَّحِيدِ عنه ، الآباء والأبناء الذين أثبتموها فى دعواكم التشليث ؟

فإن قالوا : هو واحد مركب من ثلاثة أجزاء كل منها إله
قلنا : ماسمعنا بإله لذاته أجزاء ، كل منها إله ؛ لأنه لو وجد لكان
الاله متعدداً ، لقوله تعالى .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء

وقد أعلن الله كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وكفرهم
في تغطيتهم الحق ، وتركهم نفى الولد عن الله عز وجل ، وادعائهم أن المسيح
هو الله فريةً وكذباً عليه ، وقال لثنيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد
لنصارى الذين افتروا على ، وضلوا عن سواء السبيل بقولهم إن الله هو
المسيح ابن مريم ، قل لهم : من يملك ويطيع أن يدفع أمر الله إن أراد أن
يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً ؟ وهو المتصرف في عباده ،
وله ما في السموات والأرض وما بينهما ، يهلك من يشاء ، ويبقى من يشاء ،
لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع ، وأنه هو المعبود القادر على كل شيء ، والمالك
لكل شيء .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ
يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة

٧- الحواريون أعوان عيسى وأنصاره

فلما وجد عيسى من بنى إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوته ،
وتكذيباً لقوله ، وصداً عما دعاهم إليه من أمر الله ، قال . مَنْ أَنْصَارِي
وَأَعْوَانِي عَلَى الْمَكْذِبِينَ بِحُجَّةِ اللَّهِ وَالْمَوْلِينَ عَنْ دِينِهِ ؟

قال الحواريون (وهم الذين آمنوا بعيسى وكان عددهم اثني عشر) :
نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، وأشهد بأننا مسلمون ، ومصدقون بنبوته
﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾
آل عمران

وزيادة في التأكيد قالوا : ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت على نبيك عيسى
من كتابك وصرنا أتباع عيسى على دينك الذي بعثته به ، وأعوانه على
الحق الذي أرسلته به إلى عبادك ، فاجعلنا يا ربنا ، وأثبت أسماءنا مع أسماء
الذين شهدوا بالحق ، وأقربوا لك بالتوحيد والعبودية ، وصدقوا رسلك ،
واتبعوا أمرك ونهيك ، فاجعلنا يا الله في عدادهم ، ومعهم فيما تمنحهم من
كرامتك ، ولا تجعلنا ممن كفر بك ، وصدد عن سبيلك وحاد عن أمرك
ونهيك

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

آل عمران

وأما الذين كفروا بـعيسى من بنى إسرائيل ، وأحس عيسى منهم الكفر فقد مكروا ، وكان مكرمهم الذى وصفهم به الله الاتفاق والمؤامرة على قتله ؛ ولكن الله قد خيب ظنهم ، وأحبط مكرمهم ، بإنقاذ عيسى منهم والله خير المتصرفين فى أمورهم

﴿ وَمَكْرُؤًا مَّمْكُورًا اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران

إذ قال الله لعيسى عليه السلام : يا عيسى ، إني مميتك بعد استيفائك أجلك ، ورافعك إلى محل كرامتى ، ومطهرك ومنظفك ، ومخلصك ممن كفر بك ، وجحد ما جئتهم به من الحق من اليهود وسائر الملل

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ

الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ آل عمران

ثم أشار الله تعالى بأنه جاعل الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ، وساروا على منهاجه ، وملته فى الإسلام ، وفطرته ، فوق الذين جحدوا نبوته ، وخالفوا بسلوهم المعوج جميع أهل الملل ، فكذبوا بما جاء به عيسى وصدوا عن الإقرار به إلى يوم القيامة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

آل عمران

آراء بعض المفسرين في رفع عيسى إلى السماء

وقد اختلف المفسرون في تفسير آية الرفع ، فبعضهم قال : إن المراد بالوفاة النوم ؛ لأن النوم هو الميتة الصغرى ، وقد روى عن الربيع : أن الله تعالى رفع عيسى إلى السماء وهو نائم رفقاً به ، وبعضهم قال : إن المراد من الآية إني مستوف أجلك ، ومميتك حتف أنفك ، لا أسلط عليك من يقتلك ، وإن الآية كفاية عن عصمته من الأعداء

والأخبار المأثورة جاءت ناطقة بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده وروحه ، وأنه حي فيها ، وأنه ينزل في آخر الزمان ، ويقتل المسيح الدجال

الحكم بين المختلفين

ثم قال لهم : أيها المختلفون في عيسى مصيركم يوم القيامة إلى فأحكم بينكم ، وأفضى بين جميعكم في أمر عيسى بالحق فيما كنتم فيه تختلفون في أمره

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

آل عمران

فأما الذين كفروا وجحدوا نبوتك يا عيسى ، وخالفوا ملتك وكذبوا

بما جئتهم به من الحق ، وقالوا فيك الباطل ، فإني أعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسَّباء ، والنزلة والمسكنة ؛ وأما في الآخرة فبئس جهم خالدين فيها أبداً ، وما لهم من ناصرين ، ولا تقبل منهم شفاعة ؛ وأما الذين آمنوا بك يا عيسى وصدقوك ، وأقروا بنبوتك ، وبما جئتهم به من الحق من عندي ، ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به ، وعملوا بما فرضت من فرائض على لسانك ، وشرعت من شرائع ، وعملوا الصالحات ، فأوفيتهم أجورهم ، وأعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة أجراً كاملاً لا يبغسون منه شيئاً ، ولا ينقصونه ، فإن الله لا يحب من ظلم غيره حقاً له ، أو وضع شيئاً في غير موضعه

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران

٨ — معجزة نزول المائدة

من المعجزات العظيمة التي أتى بها عيسى عليه السلام نزول المائدة ، وسبب ذلك أن الحواريين أصحاب عيسى قالوا له : يا عيسى هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ فقال لهم : راقبوا الله أيها القوم ، وخافوا أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فإن الله لا يمجزه شيء

أرادہ ، وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به ، فاتقوا
الله أن ينزل بكم نعمته إن كنتم مؤمنين ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

المائدة

قال الحواريون : إنما قلنا ذلك ، وسألناك أن تدعونا ربك ، لنأكل
من المائدة ، فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء ، وأطمئن قلوبنا ، نستقر على
وحدانيته وقدرته ، ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك إنا رسول مرسل ونبى
مبعوث ، ونكون على نزول المائدة ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه علينا
في توحيده . وقدرته ما يشاء ، ومعجزة لك على صدقك في نبوتك

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا
وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة

فأجاب عيسى القوم إلى ما سأله ، ودعاه به وقال : اللهم ربنا أنزل علينا
مائدة من السماء لتتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه نحن ومن يحىء بعدنا ،
ونعبد ربنا ونصلى له في هذا اليوم ، كما يعمل الناس في أعيادهم ؛ ولتكون
علامة وحجة منك يا رب على عبادك في وحدانيتك ، وفي صدق على أئى
رسول إليهم بما أرسلتنى ، واعطنا من عطائك ورزقك فإنك يا رب خير من
يعطى ويرزق ، وأجود من يتفضل ويجود

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِمْدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴾ المائدة

فاستجاب الله دعاء عيسى وقال : إني منزلها عليكم أيها الحواريون
فطعمكم منها ، فمن يحدد بعد إنزالها عليكم ، وإطعامكم منها رسالتى إليه
ويفكر نبوة نبي عيسى صلى الله عليه وسلم ، ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته ،
فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، غير أهل المائدة

﴿ قَالَ اللَّهُ إني مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة

اعتراف عيسى عليه السلام بعدم أمره باتخاذهم وأمه إلهين

لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى واليهود ما قالت ، وزعموا
أن عيسى أمرهم باتخاذهم وأمه إلهين من دون الله ، فسأله الله عن قوله هذا
وقال له : أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ عِيسَى :
تَنْزِيهَاً لَكَ يَا رَبُّ وَتَعْظِيماً أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ أَوْ أَتَكَلَّمَ بِهِ ، لَيْسَ لِي أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ ،
لَأَنِّي عَبْدٌ مَخْلُوقٌ ، وَأُمِّي أُمَةٌ لَكَ ، فَهَلْ يَكُونُ لِلْعَبْدِ وَالْأُمَةِ ادِّعَاءُ رَبوبِيَّةٍ ؟
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة

ثم قال : إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته في نفسي مما لم أنطق به
ولم أظهره بجوارحي ، فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحي ؛ فلو كنت
قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ، لكانت علمته ؛ لأنك تعلم ضمائر
النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما قد نطقت به ؟ وإني لا أعلم ما أخفيته
عني ، فلم تطعن عليّ ؛ لأنني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتني ، إنك أنت
العالم بحفريات الأمور ، التي لا يطلع عليها سواك ، ولا يعلمها غيرك
﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

المائدة

ثم قال : إني ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله ، وهو
اعبدوا الله ربي وربكم ، وقد كنت شاهداً عليهم ، وعلى أفعالهم وأقوالهم ،
وأنا بين أظهرهم

فلما قبضتني إليك ، كنت أنت الحفيظ عليهم دوني ، وأنت تشهد على
كل شيء ؛ لأنه لا يخفى عليك شيء لقوله تعالى :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٦١﴾ المائدة

وفي هذا دليل ، على أن الله تعالى إنما عرفه أفعال القوم ، ومقاتلهم بعد ما قبضه إليه وتوفاه

ثم قال : إن تعذب هؤلاء الذين قالوا ذلك ، وادعوا هذا الادعاء ، فإنهم عبادك مستسلمون لك ، لا يمتنعون مما أردت بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرراً ولا أمراً تعاقبهم به ؛ وإن أردت أن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة والإسلام ، فتستر عليهم ، فإنك أنت العزيز في انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لا يقدر أحد أن يدفعه عنه ، الحكيم في هداية من هدى من خلقه إلى التوبة ، وتوفيق من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة

خاتمة المسيح عليه السلام

وما قيل بشأن قتله وصلبه

سبق أن ذكرنا أن الحواريين هم أنصار وأصحاب عيسى عليه السلام
الذين آمنوا به ؛ أما سائر اليهود ، فإنهم لم يكتفوا بعدم الإيمان به بل انفقوا
وعزموا على قتله كما قتلوا يحيى^١ وذكريا عليهما السلام من قبل . فلما استقر
رأيهم على ذلك ، شكوا أمره إلى الوالى الموجود وقتئذ ، وزينوا شكواهم بما
يستدعى اهتمام الوالى بادعائهم عليه أنه يقول : إنه ملك اليهود ، وأنهم لا يقرون
بملك سوى (قيصر رومية) فأرسل الوالى جنداً للقبض على المسيح عيسى بن
مريم ، فلما أتوا إلى بيته ، ولم يبق إلا القبض عليه ، والمسيح قد اهتم لهذا
الأمر وخشى أن يفالوه بالأذى^٢ ، أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم ، وألقى^٣
شبهه على شخص آخر ، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن ، وعرفته الأناجيل
بأنه (يهوذا الاسخريوطى) الذى تواطأ مع الكهنة على الدلالة عليه بأجر
وصار بحيث ان كل من رآه لا يشك في أنه يسوع ، فأخذ وصلب وقتل
ونجا الله المسيح من شرهم

وقد أعلم الله تعالى المسيح بما سيتم ، وشاع في الناس أن يسوع

الناصرى قُتِلَ بعد أن صلب ، وما قتلوه وما صلبوه ؛ ولكن شبهه لهم ،
وما قتلوه يقيناً ؛ بل رفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وفى ذلك
قوله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ
وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء

وبعد أن رفعه الله إليه أنبث الحواريون أصحابه فى جهات الأرض
يدعون الناس إلى دينه ، وهو توحيد الله فيما يرضيه ، إلا أن الدنيا
كانت مملوءة بالشرك والكفر ، فلم يستطيعوا أن يصدعوا بالأمر فظل
الدين العيسوى أكثر من ٣٠٠ سنة محجوباً كالأسرار ، فى صدور الأحرار ،
وكان أصحابه يعبدون الله تعالى سرّاً فى مواضع أعدوها لذلك تحت الأرض
أو فى الكهوف والغارات ، أما أمه مريم فقد عاشت بعد رفعه ست سنين
ثم توفيت وكان عمرها ٥٣ ثلاثاً وخمسين سنة ، ودفنت ببيت المقدس
بالكنيسة المعروفة (بالجسمانية)

ويقال : إنه حتى إلى الآن ، وأنه ينزل قبل قيام الساعة ويحكم بشرية

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يدع كافراً حتى يسلم ، ويمكث أربعين سنة ، ثم يحج ويزور قبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يموت ويدفن بجواره صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ذلك الحديث الشريف الآتي :

حديث شريف ؛ عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء إخوة لعلات ، وأمها تهم شتى ، ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى عليه السلام ، لأنه لم يكن بينى وبينه نبي ، ويوشك أن ينزل فيكم ويحكم حكماً عادلاً ، وأنه نازل على أمتي ، وهو خليفتي عليكم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع القامة ، وهو إلى الحرة والبياض ، سبط الشعر كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، ويسكن الروحاء حاجاً معتمراً ، يقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام ، وتسكون السجدة واحدة لله تعالى ، ويهلك في زمانه المسيح الدجال ، ويقتل على يديه وعلى يد أصحابه . ويقع الأمن في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً

ثم يلبث في الأرض ما شاء الله (وقيل أربعين سنة) ثم يتوفى في

المدينة ويصلى عليه المسلمون ، ويدفنونه إلى جانب قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين .

وقد بشر عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال لقومه بنى إسرائيل : يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة التى أنزلت على موسى ، وأبشركم برسول يأتى من بعدى

اسمه (أحمد)

ولما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالبينات ، وهى الدلالات التى أتاه الله حججاً على نبوته قالوا : هذا سحر مبين ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

الصف

٢٥ -- محمد صلى الله عليه وسلم

(سيد المرسلين وخاتم النبيين)

خلاصة سيرته

ليس القصد بسط القول في السيرة النبوية ، والشاغل المحمدية ، فإن لذلك كتباً كثيرة فياضة بها ، وإنما الغرض الإمام بخلاصة سيرته عليه الصلاة والسلام ، لإثبات نبوته ورسالته بالآيات القرآنية ، ودحض أقوال السفهاء والمشركين والمناققين فيما يزعمونه ، وبيان بعض معجزاته وشمائله صلى الله عليه وسلم

نسبه الشريف

١ - من جهة أبيه

نبينا العربي ، الهاشمي القرشي ، أكرم العرب نسباً ، وأشرفهم حسباً ، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (واسمه شيبه الحمد) ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وينتهي نسبه الشريف إلى إسماعيل ابن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويدعى (أبا العرب المستعربة)

وقد نظم بعضهم الجميع فقال :

« نيننا محمد قد يفتسب قطعاً لعبد الله عبد المطلب »
 « فهاشم عبد مناف فقصى كذا حكيم مرة كعب لوى »
 « فغالب فهر فمالك يلي نضر كنانة خزيمة انقل »
 « مدركة الياس أيضاً فضر نزارهم معد عدنان المحصر »
 ٢ — من جهة أمه

وأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم ، الذي هو الجد الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى من أشرف بيوت قريش وهذا هو النسب الشريف المتفق على صحته من علماء التواريخ والمحدثين .

وقال فى نسبه الإمام البوصيرى رحمه الله صاحب البردة والهمزية فى مدح خير البرية المتوفى سنة ٦٩٥ هـ بالاسكندرية وضرجه بها مشهور ومعروف :

« نَسَبٌ تَحْسَبُ الْعُلَا بِحِلَالِهِ قَلَدَتْهَا نَجْوَاهَا الْجَوَازُ (١) »
 حَبِذَا عِقْدٌ (٢) سُودِدٍ (٣) وَفَخَارٍ أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ (٤) الْعَصْمَاءُ (٥) »

(١) الجوازاء : اسم لبرج فى السماء (٢) العقد : القلادة من الجواهر

(٣) السودود : السيادة (٤) اليتيمة : التى لا شبيه لها فى جنسها

(٥) العصماء : من العصمة وهى الحفظ والمنع

أدوار حياته صلى الله عليه وسلم

١ - الدور الأول (من ولادته إلى النبوة)

ميلاده

حملت به أمه السيدة آمنه بنت وهب في أول رجب . وبعد شهرين من حملها توفي أبوه عبد الله في المدينة عند أخواله بني النجار وعمره ١٨ سنة عقب ذهابه إلى تجارة في الشام

ولما تمت مدة الحمل وُلد عليه الصلاة والسلام بمكة في دار أبي طالب في صباح يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وقيل : صباح اليوم التاسع من هذا الشهر الموافق ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام على ما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي

وهذا اليوم يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل المشهورة ، أي العام الذي حبس الله فيه الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد (أبرهة) قائد جيش النجاشي الحبشي فدصرهم الله أشنع تدمير ، وجعل كيدهم في تضليل ، إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام

وقد جاء ذكر هذه القصة في القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

وقال في حمله وولادته (حسان بن ثابت) الشاعر العظيم :

« تالله ما حمله أنى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادى »

وقال المرحوم شوقي بك في قصيدته الشهيرة بالهمزية :

« وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء »

وقد دلت الروايات الصحيحة على اتصافه صلى الله عليه وسلم حين ولادته بصفات تليق بمقامه السامى ، إذ وُلد نظيفاً ليس عليه من أقدار الولادة شيء ، مدهوناً مكحولاً ، يعلوه النور والبهاء ، واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه ، رامقاً بطرفه إلى السماء

وفى ذلك يقوله البوصيرى رحمه الله :

« رَافِعاً رَأْسَهُ وَفِي ذَلِكَ الرَّفْعِ إِلَى كُلِّ سُودَدٍ إِيمَاءٌ »

« رَامِقاً طَرْفُهُ السَّمَاءَ وَمَرْمَى عَيْنٍ مِنْ شَأْنِهِ الْعُلُوُّ الْعَلَاءُ »

أى برز عليه السلام إلى هذا الوجود رافعاً رأسه ، وفى ذلك الرفع الذى هو أول فعل وقع منه عليه السلام (إيماء) وإشارة إلى كل رفعة وسعادة .

ورامقاً ببصره إلى جهة العلو إيماء إلى أنه لا يقصد إلا أعلى المراتب ، إذ من شأنه العلو لا يقصد إلا جهاته

« وَتَدَلَّتْ رُحْرُ النُّجُومِ إِلَيْهِ فَأَضَاءَتْ بِضَوِّهَا الْأَرْجَاءُ »

أى قد دنت الكواكب المضيئة يوم ولادته فأضاءت بأنوارها النواحي والدليل على ذلك أنه روى البيهقي عن (فاطمة الثقفية) أنها قالت لما حضرت ولادة النبي عليه الصلاة والسلام : رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع على

وروى : أن أمه ، صلى الله عليه وسلم ، رأت حين وضعته نوراً ظهرت به قصور الشام فرأتها وهى فى مكة ؛ وهذا معنى قول البوصيرى رحمه الله « وَتَرَأَتْ قُصُورُ قَيْصَرَ بِالرُّومِ يَرَاهَا مِنْ دَارِهِ الْبَطْحَاءُ »

العجائب التى ظهرت يوم ولادته

وفى ليلة ولادته شاهد الكثيرون ما يدل على شرفه وعظيم قدره من العجائب والآيات الباهرات ، فلما أشرقت أنواره عليه السلام تقابعت بشائر المهاتفين بولادته ، وثبت السرور بطلعته ، وأشرف على السقوط (إيوان كسرى) واشتق وسقطت شرفاته ، وخذت نار فارس أى انطفأت النار التى كانوا يعبدونها ويوقدونها ألف سنة ، ولم يطفأ لها لهب ؛ لأنهم

كانوا مجوساً ، وكان ذلك غماً وبلاء عليهم ، لخمود تلك النيران العظيمة ؛ وقد أدركوا أن ذلك لأمر عظيم حدث في العالم ، وهو ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام

وكذا ظهر في تلك الليلة جفاف عيون الفرس ؛ كأن الماء الذي كان بها فاض وأطفأ نيران بيوت الفرس

وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله :

« لَيْلَةُ الْمَوْلَدِ الَّذِي كَانَتْ لِلدُّ
 « يَنْ سُرُورَ بَيَّومِهِ وَازْدِهَاءِ »
 « وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ
 « وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهِنَاءِ »
 « وَتَدَاعَى إِيوَانُ كَسْرَى وَلَوْ لَا
 « آيَةُ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءِ »
 « وَغَدَا كُلُّ بَيْتٍ نَارٍ وَفِيهِ
 « كُرْبَةُ مِنْ حُجُودِهَا وَبَلَاءِ »
 « وَغُيُونُ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا
 « نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ ؟ »
 « مَوْلَدُكَ كَانَ مِنْهُ فِي طَالِعِ الْكُفْرِ وَبَالَ
 « عَلَيْهِمْ وَوَبَاءِ »

وقد أمتازت وفازت السيدة آمنة بما لم تفز به النساء من الفخار حتى حواء ، ولذا قال البوصيري رحمه الله :

« فَهَنِيئًا بِهِ لِأَمْنَةِ الْفَضْلِ الَّذِي شُرِّقَتْ بِهِ حَوَاءُ »
 « يَوْمَ نَالَتْ بَوَاضِعَهُ أَبْنَةُ وَهْبٍ مِنْ فَخَارِ مَا لَمْ تَنْفَلُهُ النِّسَاءُ »

الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام

لم يكن في سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد أحد منهم ؛ ولم تجر بذلك سنة بين المسلمين فيما سلف ، والثابت من كتب التاريخ وغيرها أن عادة الاحتفال بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام من العادات المحدثه ، ويقال : إن هذه العادة أحدثها (المظفر أبو سعيد) صاحب (اربل) من البلاد التابعة لولاية (الموصل) وذلك في القرن السابع من الهجرة ، ثم انتشرت هذه العادة في الأقطار ، وقد فاقت مصرنا فيها جميع الأمصار وفي الزمن الغابر كان أهل مكة — فيما رواه بعض المؤرخين — يتبركون بزيارة الموضع الذي ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام في يوم ميلاده هذا وإن الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام ليس بالبدعة كما يدعى بعضهم ؛ بل هو سنة حسنة جرى عليها الخلف سنة عن السلف الصالح

والقصد من هذا الاحتفال هو : أن يجعل الناس يوماً من أيام العام خالصاً لتذكّر (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) أكبر أبناء آدم بركة على الإنسانية ، وأبقاهم في صحائف التاريخ أثراً ، بتلاوة الذكر الحكيم ، وقصة سيد المرسلين ، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم أن يخرجوا إلى الصحراء بين الرمال

والأحجار فيستعيدوا هنالك ذكرى النبي الأُمى الأمين ، الذى أنشأ من قبائل العرب البدوية خير أمة أخرجت للناس ، ورفع راية القرآن المنصورة ما بين زمزم والخطيم

أما العادة المتبعة فى الاحتفال بمولد النبي الشريف من إقامة الزينات والسرادات ، وتسمير الموكب ، ودق الطبول والمزمار ، والإشارات ، وسماع الأغاني والأناشيد ، والرقص فى حلقات الذكر ، وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى الهواء ، وخروج النساء المتبرجات لرؤية الاحتفال والموكب ، واختلاط الرجال والشباب بالنساء والفتيات ؛ كل ذلك مخالف لأداب الشريعة السمحة ، ومما يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب الابتعاد عنه

تسميته صلى الله عليه وسلم

لما وُلد عليه الصلاة والسلام أرسلت أمه السيدة آمنه جده تبشره فأقبل مسروراً وسمّاه

« محمدًا »

ولم يكن هذا الاسم شائعاً من قبل عند العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ما ذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء ، كالتوراة والإنجيل فألم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره

رَضَاعُهُ وَفَطَامُهُ وَمَا حَصَلَ فِيهِمَا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ

أَرْضَعَتْهُ أُمُّهُ السَّيِّدَةُ أَمْنَةُ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ (ثَوْبِيَّة) مَوْلَاةُ عَمِّهِ أَبِي
لَهَبٍ ، ثُمَّ (حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ) الَّتِي اخْتَارَهَا جَدُّهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَرْضِعَةً لَهُ ،
وَهِيَ مِنْ قَبِيلَةِ (هَوَازِنَ) الْمَشْهُورَةِ فِي الْعَرَبِ بِالْعِرَاقَةِ وَكَمَالِ الشَّرَفِ ، وَاسْمُ
زَوْجِهَا (أَبُو كَبْشَةَ) وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ قَرِيشٌ تَنْسِبُ لَهُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ حِينَمَا يَرِيدُونَ الْاسْتِهْزَاءَ بِهِ فَيَقُولُونَ : « هَذَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ » يَكْلَمُ مِنَ
السَّمَاءِ ، فَأَخَذَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ ، وَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى قَبِيلَتِهَا ، وَبَقِيَ عِنْدَهَا إِلَى الْفَطَامِ
وَبَعْدَهُ بِسَنَتَيْنِ أَيْضًا

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبُوصَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ

« وَإِذَا سَخَّرَ إِلَهُ أَنْسَاءَ لِسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سَعِيدَاءُ »

وَقَدْ ظَهَرَتْ فِي زَمَانِ رَضَاعِهِ أَشْيَاءٌ شَبِيهَةٌ بِالْمَعْجَزَاتِ لَا يَسْتَطَاعُ إِخْفَاؤها
وَكِتْمَانُهَا عَنِ الْأَبْصَارِ ، إِذَا امْتَنَعَتْ عَنْ رَضَاعِهِ الْمَرْضِعَاتُ ، وَأَعْرَضْنَ عَنْهُ لِيَتِمَّهُ
وَقَلْنَ : إِنَّمَا تَرَكْنَاهُ لِأَنَّنَا نَبْغِي الْمَعْرُوفَ وَالْخَيْرَ مِنْ آبَاءِ الرُّضْعَاءِ ، وَأَمَّا الْأُمُّ
وَالْجَدُّ فَلَيْسَا كَذَلِكَ . وَقَدْ أَتَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ وَكَانَتْ فَقِيرَةً ، وَلَا يَرْضَى أَحَدٌ
مِنَ الْأَهْلِ أَنْ يُعْطِيَهَا ابْنَهُ لِإِرْضَاعِهِ ؛ لِأَنَّ الْفَقْرَ يَسْتَلْزِمُ قَلَّةَ الْأَكْلِ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ
قَلَّةَ اللَّبَنِ الْمَضْرُوعِ بِالرُّضْعِ عَادَةً ، فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبَانَهَا ، وَبَسَبَبَ

هذا الإرضاع لهذا المولود السعيد المحمود ، درَّ عليها وبنيتها الشياه من الغنم
ألبانها ، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، وبعد أن كانت هذه الشياه
هزيلات لا لبن فيها أصلاً ، فببركته عليه السلام استحات حالها في أقرب
وقت وليس بها هزال ؛ وكثر مرعى الدواب عند حليلة بعد يبس الأرض
من السكلا والزرع ، وذلك بسبب أنها ترضع النبي عليه السلام بلبنها ،
ولأن البركة والرحمة تحلان حيث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم
وفي ذلك يقول الإمام البوصيري رحمه الله :

« وَبَدَتْ فِي رِضَاعِهِ مُعْجَزَاتٌ لَيْسَ فِيهَا عَنِ الْعُمُونَ خَفَاءُ »
« إِذْ أَبَتْهُ لِيُتِمَّهُ مُرْضِعَاتٌ قُلْنَ مَا فِي الْيَتِيمِ عَنَّا غِنَاءُ »
« فَاتَّقَهُ مِنْ آلِ سَعْدٍ فَتَاءُ قَدْ أَبَتْهَا لِيَفْقَرَهَا الرِّضَاعُ »
« أَرْضَعِيهِ لِبَائِنِهَا فَسَقَتْهَا وَبَنِيهَا أَلْبَائِنُهُنَّ الشَّاءُ »
« أَصْبَحَتْ شَوْلاً عَجَافاً وَأَمْسَتْ مَا بَهَا شَائِلٌ وَلَا عَجَفَاءُ »
« أَخْصَبَ الْعَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحَلٍ إِذْ عَدَا لِلنَّبِيِّ مِنْهَا غِذَاءُ »

وبعد أن انتهت مدة رضاعه لبلوغه سنتين أتت به جده عبد المطلب
وقد أصابها من أجل فطامه التألم الشديد لما شاهدت من توالى الخيرات
وتتابع البركات بسبب إقامته عندها
« وَأَتَتْ جَدَّ وَقَدْ فَصَلَتْهُ وَبِهَا مِنْ فَصَالِهِ الْبُرَحَاءُ »

حادثة شق الصدر

وحصل له عليه الصلاة والسلام حادثة مهمة وهي شق الصدر وإخراج
حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليلة خوفاً فردته إلى أمه وجده
وحدثتهما قائلة :

بينما هو عليه الصلاة والسلام وإخوته (أولادها) في بهم لنا خلف
بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه
رجلان عليهما ثياب بيض فأضجماه فشقا بطنه فهما يسوطانه (يحركانه
بسوط) فخرجت أنا وأبوه فوجدناه ممتعاً لونه ، فالترمته والترمته أبوه
فقلنا له : مالك يا بنى ؟ فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما
لصاحبه : أهو هذا ؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا
فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو ؟

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« إِذَا حَاطَتْ بِهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ فَظَنَّتْ بِأَنَّهُمْ قُرْنَاءُ »
« وَرَأَى وَجَدَهَا بِهِ وَمِنْ الْوَجْدِ لَهَيْبٌ تُصَلِّي بِهِ الْأَحْشَاءُ »
« فَأَرَقَمَهُ كُرْهًا وَكَانَ لَدَيْهَا نَاقِيًا لَا يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ »
« شُقَّ عَنْ قَلْبِهِ وَأُخْرِجَ مِنْهُ مُضْغَةٌ عِنْدَ غَسَلِهِ سَوْدَاءُ »

وقد أعاد جبريل عليه السلام ذلك الشق إلى ما كان عليه بإمرار يده على محله فالتأم ، ثم أودع فيه من الإيمان والحكمة والأمرار ما لم ينشر وما لم تخط به أخبار ؛ لأنه لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ ثم وضع الخاتم بين كتفيه ، ولم يكن الخاتم لنبي قبله

وفي ذلك قول البوصيري رحمه الله :

« خَمَمَتْهُ يُمْنِي الْأَمِينُ وَقَدْ أَوْ دِعَ مَالَمْ تَدْعَ لَهُ أَنْبَاءُ »
« صَانَ أَسْرَارَهُ الْخِتَامُ فَلَا أَلْفَاضُ مُلِمٌّ بِهِ وَلَا الْإِفْضَاءُ »

وفاة والدته وكفالة جده وعمه له

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم أربع سنين قامت والدته بحضنته ثم أخذته وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار . وبينما هى عائدة أدركتها الوفاة فى الطريق فماتت (بالأبواء) وهى أقرب إلى المدينة ، فحضرته (أم أيمن) وهى جارية ورثها عن أبيه تسمى (بركة الحبشية) وكفله جده عبد المطلب فكان يرق له ، ويعطف عليه أكثر من أولاده لما كان يظهر عليه من علامات النجابة الدالة على أنه سيكون له شأن عظيم فى المستقبل ، ولذا كان يكرمه غاية الإكرام ؛ ولما لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛

فكفله عنه أبو طالب شقيق أبيه أحسن كفالةً ، وكان شهماً كريماً سمحاً جواداً ؛ لكنه كان فقيراً لا يملك كفاف أهله ، فحسنت حاله وصلاح رزقه ، وكانت كفالته لابن أخيه خيراً وبركةً عليه وعلى أولاده ولقد اعتنى بآبن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم عنايةً كبرى حتى قدمه على أولاده في كل شيء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له حيث قال فيها :

« أوصى أباطالب بعمدي بذي رحيم (محمد) وهو في الناس محمود »

« فاحذر عليه شرار الناس كلهم والحاسدين فإن الخير محسود »

ولذا كان به رحيماً ؛ وعليه غيوراً ، لأنه رآه بعيداً عن كل شائبة نقص وظلوماً تميل إليه الأطفال عادةً

وكان محمد صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة ، والبعد عن السفاسف ، وصغار الأمور التي يشتغل بها الأطفال ، فكان إذا حضر الأكل أقبل عليه الأولاد يحتطفونه وهو قانع بما يسره الله له نشأته وكسبه من يده وثمره عمله

نشأ صلى الله عليه وسلم في قومه يتيماً فقيراً ومات والده في سن الشباب ولم يترك له مالا سوى خمسة جمال وبضع نعاج ، وكان صلى الله عليه وسلم قد ألف رعى الغنم مع إخوته في الرضاع ، فصار يرعى لأهل مكة غنمهم فيتوافر لكفاله

أبى طالب ما يأخذ من ذلك من أجر ؛ ولذا كان مثال الزهد والقناعة
والرأفة والرحمة .

ولما شبَّ عليه السلام كان يتجرع مع شريك له يدعى (السائب)
وياً كل من ثمرة عمله وكسبه ، وقد اشتهر بالصدق والأمانة في تجارته
والإخلاص في عمله .

تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه

قد أدبه الله تعالى أدباً لم يفز به غيره من اليتامى الذين قلَّ ما لهم ومال
القوام عليهم ، مع كونه بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعُشراء من حلفاء
الوثنية ، ولم يكن له أستاذ يهذبه ، ولا مثقف يؤدبه ، وإنما هى عناية الله
تحفظه وترعاه ؛ وقد حدث عن نفسه قائلاً :

« أدبني ربى فأحسن تأديبي »

فاكتهل صلى الله عليه وسلم وهو على أتم ما تنزكى به روح ، وأكمل
ما تتحلى به نفس ؛ من جميل الصفات ، وحميد الخصال ، وقد قال فى شأنه
البوصيرى رحمه الله :

« كفأك بالعلم فى الأمى مُعجزةً فى الجاهلية والتأديب فى اليُتم »

رحلته الأولى إلى الشام .

لما بلغ سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله أبو طالب

السفر بتجارة إلى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرّق له وأخذه معه (وهذه هي الرحلة الأولى) ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً وكان معهما أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب (بُصْرَى) قرية على الحدود بين بلاد الشام وبلاد العرب (بحيرا الراهب) فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة ، من بعث نبي من العرب في هذا الزمن ؟ فقالوا : إنه لم يظهر للآن .
وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل مبعث الرسول .

ويقول الله تعالى في ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

البقرة

وقد عرفه (بحيرا) بعلامات النبوة وتحققها وقال : سيكون لهذا الغلام شأن عظيم ، وسيبعثه الله رحمة للعالمين ، وناشد عمه أن يرده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود والنصارى ، فرجع ورجع معه أبو بكر وزودهم (بحيرا) شيئاً من الزبيب والسكر .

حرب الفجار

لما بلغ سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين قريش وحلفائها ، وبين قيس وحلفائها ، فى موضع يسمى (نخلة) بين مكة والطائف وكان يجمع السهام لأعمامه فيها ويرمى معهم ، فكلل الله عملهم بالنصر على أعدائهم الذين اتهمكوا إذ ذاك حرمت البيت المعظم عند جميع العرب ، ولوقوعه فى الشهر الحرام .

ولما استحل فيه من حرمت مكة التى كانت مقدسة عند العرب سُمي (يوم الفجار) وكانت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها وانتهت بالصلح ، وآلف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم بعد .

رحلته الثانية إلى الشام

لما بلغ سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام للمرة الثانية وذلك : أن خديجة بنت خويلد الأسدية (من بنى أسد بن العزى بن قصى) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم فيه .

فلما سمعت عن محمد صلى الله عليه وسلم من الأمانة ، وصِدق الحديث ، ما لم تعرفه في غيره ، حتى سمّاه قومه (الأمين) استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره .

فسافر على بركة الله مع غلامها (ميسرة) وكانت تظله الغمامة في اليوم الصائف ، لا يشترك معه أحد من القافلة ، كما روى ذلك (ميسرة) فعرفه الراهب (نسطورا) وقال : هذا خاتم النبيين ، ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج .

ثم حضروا سوق (بُصْرَى) وباعوا واشتروا ، فربحوا ربحاً عظيماً وحقق الله ما امتن به عليه بقوله :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ الضحى

زواجه من السيدة خديجة

لما عاد عليه السلام مع (ميسرة) من الشام وقدم مكة ورأت السيدة خديجة ربها العظيم ، وتحققت أمانته وصِدقه ، وشاهدت بعض علامات النبوة عليه ، وأخبرها غلامها (ميسرة) بكلام الراهب ، وبما رآه بنفسه من ظلة الغمامة له ، بعثها ذلك إلى التزوج به .

وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله :

« وَرَأَتْهُ خَدِيجَةً وَالتَّمِيمَةَ وَالزُّهْرَةَ هَدُ فِيهِ سَجِيَّةً وَالْحَيَاءُ »

« وَأَتَاهَا أَنَّ الْغَمَامَةَ وَالسَّرَّحَ أَظْلَمَتْهُ مِنْهُمَا أَفْيَاءُ »

« وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْبَعْثِ حَانَ مِنْهُ الْوَفَاءُ »

« فَدَعَمَتْهُ إِلَى الزَّوْاجِ وَمَا أَحْسَنَ مَا يَبْلُغُ الْمُنَى الْأَذْكِيَاءُ »

وأرسلت إليه خطبه لنفسها ، وكان سنها نحو الأربعين ، وسنة خمساً وعشرين سنة ، وكانت من أفضل قریش حسباً ونسباً ، وأوسعهم مالاً وثروة ، وكم من عظيم خطبها ، وبذل لها الأموال الطائلة فأبت ؛ ولكن لما خطبها أبوطالب لمحمد صلى الله عليه وسلم أجابت ، لما توسمته فيه من التقوى والزهد والحياء والخير والبركة ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام بعد (أبي هالة) المتوفى عنها وعن ولدها (هند) الذي هو ربيب المصطفى ؛ ولم يتزوج غيرها حتى توفيت ، فتزوج بعدها (عائشة أم المؤمنين) .

وكان عليه الصلاة والسلام يذكرها طول عمره بكل خير ، حتى كانت السيدة عائشة تغار منها ولم ترها ، قالت من حديث لها : فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة ، فقلت له صلى الله عليه وسلم : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال :

« لا والله ما أبدلني خيراً منها : آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني
إذ كذبنى الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد
دون غيرها من النساء » رواه مسلم

بناء البيت الحرام

لما بلغ عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع
جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها من قبل فشرعت قريش
في بناء الكعبة

وأعدوا لذلك النفقة اللازمة ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة
على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله محمد عليه الصلاة والسلام فيمن يحمل
الحجارة من أشراف مكة

وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً
شديداً كاد تكون عاقبته الحرب لولا أن (أبا أمية بن المغيرة الخزومي)
عم خالد بن الوليد الذي كان أكبرهم سنّاً قال : لا تختلفوا ، وحكموا بينكم من
ترضون بحكمه

فقالوا : نكل الأمر لأول داخل من باب (بنى شيعة)

فكان هذا الداخل هو النبي الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام ، فاطمأن

الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة ، وصِدق الحديث ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يدارى ولا يمارى فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ؛ ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه عليه السلام ووضعه فيه بيده الشريفة ، وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة طاحنة بين العرب

ولا يستغرب من قریش تنافسهم هذا ، لأن البيت الحرام قبله العرب ، وكعبتهم التي يحجون إليها ، فكل عمل فيه يعظم به الفخر والسيادة ، ومن المعلوم : أنه أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ آل عمران

ولقد امتن الله عليهم بذلك في تنزيله بقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾

العنكبوت

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانةً وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأكثرهم حملاً ، حتى شهد له بذلك ألد أعدائه (النضر بن الحارث) من بني عبد الدار حيث يقول :

قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ؟ أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم قلم ساجر ، لا والله ما هو بساجر

بُغضه لثنية من أول حياته

قد حفظه الله في صغره من أعمال الجاهلية ، وبُغِضت إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عبّادها ، ولم يسجد للأصنام ، وكان يقول عليه السلام :

لما نشأت بُغِضْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ ، وَبُغِضَ إِلَيَّ الشَّعْرُ ، وَلَمْ أَهَمْ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ

وكان عليه السلام لا يأكل مما كان يُذبح على النُّصُب (وهي

حجارة تنصب نصب عليها دماء الذبائح وتُعبد (وحرّم على نفسه شرب الخمر مع شيوخه في قومه شيوخاً عظيماً

وذلك كله من الصفات التي يحلى بها الله أنبياءه ، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه ، فهم معصومون من الأدناس والارجاس ، قبل النبوة وبعدها

تعبده صلى الله عليه وسلم

لما بلغ عليه السلام ثمانياً وثلاثين سنة كان « صلى الله عليه وسلم » يرى الضوء والنور ، ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً ، وحُبب إليه الخلاء للعبادة والتفكير

فكان صلى الله عليه وسلم معتاداً العبادة ، والابتعاد عن الناس ، وذلك شأن السكّام الذين لا يألّفون إلا ما يناسب كرمهم ، فكان يخلو بغار (حراء) جبل قريب من مكة فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارة عشر ليال ، وتارة أكثر ، يأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى بيته فتزود لمثلها

وكان الله سبحانه وتعالى قد ألهمه ذلك لتصفو نفسه ، ويتوجه روحه الشريف إلى عالم غير عالم المادة ، ويستعد لما سيكرمه الله به من تلقى وحيه ، وإنقاذ خلقه مما كان فيه مثل قومه من الشرور والآثام وعبادة الأصنام

وفي ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«أَفِ الْتُّسْكِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُلُوعِ وَهَكَذَا الْفُجْبَاءُ»
«وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْبًا نَشِطَتْ فِي الْعِبَادَةِ الْأَعْضَاءُ»

١ - تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم فما جاء فيها تبشيراً برسول الله الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام :

«وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ، ويكلمهم بكل شيء آمره به ، ومن لم يقطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنقم منه ، فأما النبي الذي يجترى على الكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك ، إن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه»

٢ - تبشير الإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم

بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل (بالفار قليط) ومعناه

قريب من محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قوله تعالى في سورة الصف :
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾
وسبق ذكرها في ختام قصة سيدنا عيسى .

وقد وصف المسيح عليه السلام هذا (الفارقليط) بأوصاف لا تنطبق
إلا على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : إنه يوبخ العالم على خطيئته ، ويعلمهم
جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ! وهذا ماورد
في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم

٢ — الدور الثاني (من النبوة إلى الهجرة)

نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم

وبدء النبوة

لما بلغ عليه السلام سن السكال وهو (أربعون سنة) أرسله الله للعالمين
بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، وكان ذلك
في أول فبراير سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام ، كما أوضحه المرحوم
محمود باشا الفلكي ، ونزل عليه الوحي كما سيأتي :

كيف كان بدء الوحي؟ (كما ذكر في البخاري)

سأل الحرث بن هشام رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتيبنى مثل صَلَـةِ الجرس
وهو أشدُّه علىَّ فيفصم عني ، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال : وأحياناً يتمثل لى الملك
رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول :

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته يَنزِلُ عليه الوحي فى اليوم
الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليمتصّد عرقاً .

وقالت عائشة أم المؤمنين : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل
فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار (حِراء) فَيَتَحَنَّنُ فيه ،
وهو التعبّد فى الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله وكان يتزود لذلك ثم
يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار (حِراء) .

فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى
حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى
فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء ؛
فأخذنى فغطنى الثالثة ثم فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴾ (١).

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على
(خديجة بنت خويلد) رضى الله عنها فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى
ذهب عنه الرّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى .
ف قالت خديجة : كلاً والله ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل
الكّل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد
العزى) ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب
الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب
وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ،
فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم
خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس (الشريعة) الذى أنزل الله على
موسى ياليتنى فيها جذعاً (شاباً جلدأ) ياليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك

(١) وحديث التاريخ بأن مجىء الملك إليه صلى الله عليه وسلم كان فى يوم الاثنين لسبع
عشرة خلت من رمضان من السنة الحادية والأربعين من مولده ، وكذلك فى مثل هذا
اليوم وقعة (بدر) وسمى يوم الفرقان ، اقرأ : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى

الجمعان » فاذا ذكر فى التاريخ استنبطه بعض أهل العلم من هذه الآية

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوْ مُخْرَجِيَّ هَمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ . لَمْ يَأْت
رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَّ ، وَإِنْ يَدْرِكْنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا
مُؤَزَّرًا ، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةً أَنْ تَوْفَى .

فترة الوحي

فترة الوحي مدّة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأرجح أقوالهم فيها أربعون
يومًا ليسـتد شوق الرسول للوحي ، وقد كان ، فَإِنْ الْحَالِ اشْتَدَّتْ بِهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى صَارَ كَمَا أُنَى ذِرْوَةَ جَبَلٍ بَدَأَ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مِنْهَا حَذْرًا
مِنْ قَطِيعَةِ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ أَرَاهُ نِعْمَتَهُ الْكُبْرَى وَهِيَ اخْتِيَارُهُ لِأَنْ يَكُونَ وَاسِطَةً
بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ، فَيَتَبَدَّى لَهُ الْمَلِكُ قَائِلًا : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا لِيُظْمِنَ
خَاطِرُهُ ، وَيَرْجِعَ عَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ ، حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ لِلْوُجُودِ نَوْرَ الدِّينِ
فَعَادَ إِلَيْهِ الْوَحْيُ .

عود الوحي

عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال في حديثه : بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ
صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ جَالِسًا عَلَى

كرسى بين السماء والأرض فرُعبتُ منه فرَجَعْتُ فقلت : زملوني ؛ فأنزل
الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى حذر الناس من عذاب الله إن لم
يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى لا تشرك
مع ربك فى ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعداً للوقوف
بين يدى الله ، إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون نجساً مستقذراً ﴿ وَالرُّجْزَ
فَأَهْجُرْ ﴾ أى اهجر أسباب الرجز ، وهو العذاب ، بأن تطيع الله وتنفذ أمره
﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أى لا تهب أحداً هبةً وأنت تطمع أن تستعويض
من الموهوب له أكثر مما وهبك ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ
فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى
توحيد الله ، فخمى الوحي وتتابع

الرد على منكر الوحي مناماً

وقد قال المرحوم البوصيرى لمن ينكر الوحي :

« لَا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاہُ إِنْ لَهُ
« وَذَلِكَ حِينَ بَلَغَ مِنْ نُبُوَّتِهِ
« تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمَكْتَسَبٍ
« وَلَا نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَمَمِّ
« فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمٍ
« قَلْبًا إِذَا نَامَتْ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنْهَمْ

أى لا تنكر أيها المعاند وقوع الوحي إليه صلى الله عليه وسلم في منامه
فإنه إذا نامت عيناه فلا ينام قلبه ، كما صح في حديث الصحيحين عنه أنه
قال : إن عيني تنامان ولا ينام قلبي

ورؤياه الوحي وقت وصوله إلى النبوة ، وذلك على رأس أربعين سنة
من مولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا الزمان لا تنكر فيه رؤيا محتلم الوحي
في قومه

وليس الوحي مكتسباً لنبي من الأنبياء ، وليس نبي بمقتهم فيما يخبر به عن
غيب ، فإن جميع الأنبياء (صلوات الله عليهم) معصومون من الزلل

إثبات الوحي المحمدي

مما يؤيد ويثبت نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم في بدء نبوته
ما جاء في القرآن الكريم ، وهو القول الفصل القطعي الذي لا ينهض لمعارضته
أحد ، قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . وَكَذَلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا
إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿ الشورى

أى ما كان لإنسان أن يكلمه الله كما يكلم بعضهم بعضاً بكلام مسموع
من طريق التموجات الهوائية ؛ بل يكلمه وحياً ، أى من طريق الوحي ،
بأن يلقى في قلبه ما يشاء إلقاءه إليه ، أو أن يكلمه من وراء حجاب ،
أو يرسل له ملكاً يبلغه مراده ، لأنه متعال عن صفات المخلوقين ، حكيم
يفعل بمقتضى الحكمة ، فيؤدى مراده على أحكم الأساليب ، وكذلك فعلنا
معك يا محمد ، فأوحينا إليك قرآناً من أمرنا هو بمثابة الروح تحياته القلوب
ما كنت تدري يا محمد ما الكتاب ، وما الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً
نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإني لتهدى إلى طريق قويم ، طريق الله
الذى له كل ما فى الوجود ، يتصرف فيه بما تقتضيه حكمته العالیه ثم إليه
ترجع أمور العالم بارتفاع الوسائط والتعلقات

ثم قال فى سورة أخرى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ
إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ القصص

أى ما كنت ترجو ولا تؤمل يا محمد أن يلقي إليك الكتاب من وحى ربك فتكون نبياً رسولاً ؛ ولكنه ألقى إليك رحمةً من ربك وفضلاً عليك وعلى عباده ، فلا تكونن معيماً للكافرين ، ولا يمنعك الكفار يا محمد من تلاوة آيات الله ، والعمل بها بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى عبادة ربك وتوحيده ، ولا تكونن من المشركين به

بيان أن الوحي لم يكن قاصراً على محمد ؛ بل كان للأنبياء عامةً

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد : يا محمد ، إنا أوحينا إليك ، أى أنزلنا إليك بالنبوة ، كما أوحينا إلى النبيين الذين تقدموك ، وهم : نوح ، وإبراهيم وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس وهارون ، وسليمان ، وأتينا داود الكتاب (المسمى زبوراً) وقد أرسلنا إلى الأمم رسلاً آخرين غير من ذكرنا : منهم من أخبرناك عنهم ، ومنهم من لم نخبرك عنهم ، وكلم الله موسى تكليماً أى وخطب الله موسى بكلامه خطاباً

وجميع هؤلاء الرسل جاءوا مبشرين للذين آمنوا بالله ورسله بالجنة ، ومنذرين للكافرين بالله ورسله بالنار ، أثلاً يكون للناس على الله حجةً فيقولون : لو كنت أرسلنا إلينا رسولاً لآمنا ؛ وكان الله عزيزاً حكيمًا ، أى لم يزل ذا عزة في انتقامه ممن خالفه وعصاه ، حكيمًا في تدبير أموره

وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء

الآيات الدالة على صدق نبوته ، صلى الله عليه وسلم ، وإثبات رسالته

ودعوته للناس عامة

إن الأدلة القاطعة ، والحجج البالغة ، على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإثبات رسالته ، ودعوته عامة للناس ، هي واضحة جلية في القرآن الكريم ، وهي كثيرة جداً ، ويكفي أن نذكر منها بعض الآيات الآتية مع شرح كل آية منها :

١ — ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره : أيها الناس ، ما كان محمد أباً أحد من رجالكم
ولكنه رسول الله ، وخاتم النبيين ، الذي ختم النبوة به ، فلا تفتح لأحد
بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شيء من أعمالكم ذاعلم لا يخفى عليه
شيء منها

٢ — ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ

يقول الله تعالى ذكره : وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله
من قومك (قريش) خاصة ؛ ولكننا أرسلناك للناس عامة ، العرب منهم
والعجم ، والأحر والأسيود ، بشيراً تبشر بالثواب وحسن الجزاء من أطاعك ،
ونذيراً تنذر بالعقاب وسوء العذاب من كذبك ؛ ولكن أكثر الناس
لا يعلمون أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر

٣ — ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتَعَزَّوهُ وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك يا محمد
شاهداً على أمتك بما أجابوك ، فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم
من شريعة ، ومبشراً لهم بالجنة إذا أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين

القيم ، ونذيراً لهم تنذركم بعذاب الله إن هم أعرضوا وتولوا عما جئتهم به من عند ربك ؛ وأنتم أيها الناس قد أرسلنا إليكم هذا الرسول الكريم لتؤمنوا بالله ورسوله ؛ ولتطيعوا الله ، وتوقروه وتعظموه ، وتصلوا له بالغدوات والعشيات ، أى فى الصباح والمساء

٤ — ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ، بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الشريعة والدين ، ومبشراً لهم بالجنة إن هم صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ونذيراً لهم بالنار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوك وخالفوا ما جئتهم به من عند الله ، وداعياً إلى توحيد الله ، وإقرار الألوهية له ، وإخلاص الطاعة لوجهه ، دون كل من سواه من الآلهة والأوثان ، كل ذلك بأمره إياك ، وسراجاً منيراً ، وضياء خلقه يستضيئون بالنور الذى أتيتهم به من عند الله

وبشر يا محمد أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثواباً عظيماً ، وفضلاً كبيراً

على طاعتهم إياه ، ولا تطع قول كافر ولا منافق ، فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى مَنْ أرسلك بها إليه من خلقه ، وأعرض عن أذاهم لك ، واصبر عليه ، ولا يمنعك ذلك عن القيام بأمر الله في عباده ، والتعود لما كلفك به ، وفوض إلى الله أمورك ، وثق بأنه يكفيك جميع من دونه ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وحسبك بالله وكيلًا وقيماً بأمورك ، وحافظاً لك من أذى أعدائك

٥ — هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره : هو الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالبيان الواضح ، ودين الحق ، وهو الإسلام الذي أرسله داعياً خلقه إليه ليظهره على سائر الأديان ، ليميل به الملل كلها ، حتى لا يكون دين سواه ، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم ليقتل المسيح الدجال ،

فحينئذ يُبْطِلُ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا غير دين الله الذي بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها ، وأشهدك يا محمد على ذلك وحسبك بالله شاهداً

ويقول تعالى ذكره : محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار ، غليظة عليهم قلوبهم ، قليلة بهم رحمتهم ، رفيقة قلوبهم بعضهم لبعض ، لينة أنفسهم ، هينة عليهم تراهم ركعاً أحياناً لله في صلاتهم ، سجداً أحياناً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، فيدخلهم جنته ، وعلاقتهم في وجوههم من أثر السجود في صلاتهم

وهذه الصفة التي وصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه ، وهي أيضاً صفتهم في التوراة وفي الإنجيل ، صفة زرع أخرج نباته ثم يكثُر وينمو ، فهم كذلك حينما دخلوا في الإسلام كانوا قليلي العدد ، ثم أخذوا يتزايدون ، ويدخلون في دين الله أفواجا ، جماعة بعد جماعة ، حتى كثر عددهم ، ليغيظ الله بهم الكفار ، كما أن الزرع يبتدىء قليلاً ضعيفاً ثم يقوى ويغلظ ، ويستقيم في عوده ، فيعجب الزارع

وهذا مثل ضربه الله لحمد صلى الله عليه وسلم فيه يقول :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم اجتمع إليه ناس قليلون يؤمنون به ، ثم يكون القليل بعد ذلك كثيراً ، ويستغلظون ليغيظ بهم الكفار

وقد وعد الله الذين آمنوا ، وصدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم به الله من فرائضه التي أوجبها عليهم ؛ شفوياً ومغفرة عما مضى من سالف ذنوبهم ، وسيء أعمالهم ، ووعدهم ثواباً جزيلاً ، وذلك هو الجنة

الأمر بتبليغ الرسالة واتباع كتاب الله

أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بإبلاغ قومه واليهود والنصارى من أهل الكتاب ما أنزل إليه من ربه قائلاً له : يا محمد بلغ ما أنزل إليك من ربك ، فإن تركت ذلك ولم تفعل وكتمت شيئاً من الرسالة كنت كاذباً لم تبلغها

ثم آمنه وطمأنه على حياته وقال له : لا تخف على حياتك من مواجهة هؤلاء القوم بما ينكرونه ، فإن الله حافظك وعاصمك من إيذائهم ، وإن الله لا يوفق للرشد من حاد عن طريق الحق ، وجحد ما جئته به من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . واتبع يا محمد ما أنزل

إليك من كتاب ربك ، واستمر على تلاوته ، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه ، والعمل بحلاله وترك حرامه ، واعلم بأنه لا مغير ولا مبدل لأكلماته التي أنزلها عليك ، وأنت يا محمد لن تجد من دون الله ملجأ ؛ لأن قدرة الله محيطه بك ، وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الهرب من أمر ربه وذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ الكهف

ثم أمره بالتقوى والطاعة بأداء فرائضه وواجب حقوقه ، والالتزام عن محارمه ، وعدم مجاوزة حدوده ، وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان بالله وهم أشداء أعداء الله ، وأعداء رسوله ، والله عليم بما تكنه نفوسهم ، وما تنطوى عليه أخلاقهم ، حكيم في تدبير أمره على جميع خلقه .

كما أنه أمره باتباع ما أوحاه إليه من القرآن ، والعمل بما فيه من الأوامر والنواهي ، والله خير بأمور عباده لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيهم عليها بما وعدهم من الثواب والعقاب ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الأحزاب

قيامه بتبليغ الرسالة والدعوة

قام عليه الصلاة والسلام بأعباء الرسالة والتبليغ امتثالاً لأمر ربه ، يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده ، وترك عبادة الأصنام ، وحيداً فريداً ، لا جند ينصره ، ولا معين يؤازره ، وما هو إلا وحى الله تعالى يُمِدُّهُ ، وتوفيقه يسدده ، وعنايته تؤيده ؛ والحال أن في أهل الكفر قوة تامة ، وتعصباً عليه ، وامتناعاً عن اتباعه ، ومع ذلك كان لا يخاف في الله لومة لائم ، وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله :

« ثم قام النبيُّ يدعو إلى الله وفي الكفر نجدة وإباءُ »
« أمّا أُشْرِبَتْ قلوبُهُمُ الكُفْرَ فداءُ الضلال فيهم عيأُ »
أى أخذ عليه السلام يدعو أقواماً تمسكن من قلوبهم حب الكفر ، حتى صاروا لا يقبلون غيره ، فصاروا كالداء العضال الذى لا يرجي شفاؤه ، أخذ يدعو أقواماً فيهم جفاء وغلظة ، اتبعوا ما كان عليه آبائهم من عبادة الأوثان ، وامتنعوا عن عبادة الرحمن

الدعوة سرّاً ، وأول من أسلم

قام عليه الصلاة والسلام في أول أمره يدعو الناس سرّاً خذراً

من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا ، فيصعب استسلامهم إليه ، فأخذ يدعو إلى عبادة ربه ، ويرشدهم إلى النور الذي جاء به ، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، وترك المعاصي التي كانوا يفعلونها من شرب الخمر ، وقتل الأولاد ، والكذب والخيانة ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة التي تسبب الخلاف والنفور والحروب ، فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة منهم وبادروا بتصديقه

وكان أول من سطع نور الإسلام على قلبه (السيدة خديجة بنت خويلد) زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ونفر ممن كانوا يحبون الحق ، ولم يداخلهم الحقد والحسد ، ولم يصدهم عناد ولا استكبار كزيد بن حارثة وغيره من السابقين الأولين

فكان أبو بكر الصديق صديق الرسول ، يدعو للإسلام من يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفاري ، وغيرهم من أشرف قريش . ولم يكن مع رسول الله سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم ، وذوى الثروة منهم ، ويتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولسان حالهم يقول ما قاله البوصيري رحمه الله في قصيدته :

« وَرَأَيْنَا آيَاتِهِ فَأَهْتَدَيْنَا وَإِذَا الْحَقُّ جَاءَ زَالَ الْمِرَاءُ »

الدعوة جهراً

وبعد ثلاث سنين من رسالته عليه الصلاة والسلام أمره الله سبحانه وتعالى أن يجهر بالدعوة ، فأنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر

أى بلغ يا محمد قومك ما أرسلت به ، وكف عن حرب المشركين بالله وقتلهم ، وذلك كان قبل أن يفرض الله عليه جهادهم ومحاربتهم ، ثم نسخ فيما بعد بقوله تعالى :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ التوبة

فصدع عليه الصلاة والسلام بالأمر ، وبدل الدعوة سرّاً بالدعوة جهراً ، متمثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره ، فصعد على جبل الصفا ، وجعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريش ؛ فقال عليه الصلاة والسلام ،

« أَرَأَيْتُمْ لَوَأَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِىِ تَرِيدُ أَنْ تَغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ

مصدقّ ؟

قالوا : نعم ماجر بنا عليك كذباً

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد

فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا اجتمعنا ؟ فأنزل الله في شأنه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطَبِ فِي حَيْدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ المسد

ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء

أى أنذر يا محمد عشيرتك من قومك ، الأقربين إليك ، وحذرهم من عذاب الله

فلما نزلت هذه الآية قام رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالأبطح)

وقال : يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني قصي ، ثم أخذ يدعو

قريباً قبيلةً قبيلةً حتى أتى على آخرهم وقال لهم :

إني أدعوكم إلى الله ، وأنذركم عذابه

ولما بدأ بأهل بيته وعشيرته ، شقَّ ذلك على المسلمين ، فأنزل الله

تعالى عليه :

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء

أى أَلِنْ جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين
ثم أنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴾ الشعراء

أى إن عصمتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم وأبوا إلا
الإقامة على عبادة الأوثان ، والإشراك بالرحمن ، فقل لهم : إني برىء مما
تعملون من عبادة الأصنام ، ومعصية بارىء الأنام ، وتوكل على الله العزيز
فى نعمته من أعدائه ، الرحيم بمن أناب إليه ، وتاب عن معاصيه ، الذى يراك
حين تقوم إلى صلاتك تركع وتسجد ، وإنه سميع لتلاوتك ، وذكرك فى
صلاتك ، عليم بما تعمل فيها

فجمعهم عليه السلام وقال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو
كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم ، والله
الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافةً ، والله
لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن كما تعملون ،
ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً .
فتمكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبى لهب الذى كان خصماً لدوداً فإنه قال : خذوا على

يديه قبل أن تجتمع العرب ، فإن أسلمتموه إذا ذلتم وإن منعتموه قتلتم ؛ فقال أبو طالب : والله لمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع

ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هذه الدعوة التي أَدْعُو إليها ، والطريقة المثلى التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاى إلى طاعته وترك معصيته ، هي سبيلي ، وطريقتي ، ودعوتي ، أَدْعُو إلى الله وحده لا شريك له وأنا على بصيرة ونور من ذلك ، ويقين وعلم مني به ، أنا ومن صدقني وآمن بي وقل - تنزيهاً لله وتعظيماً له - : حاشا أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ، وأنا برىء من أهل الشرك ولست منهم وليسوا هم مني

دعوته صلى الله عليه وسلم سَلَامِيَّة

أَسَاسُهَا الدَّلِيلُ وَالْبَرَهَانُ

كَانَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الدِّينِ سَلَامِيَّةً أَسَاسُهَا
الدَّلِيلُ وَالْبَرَهَانُ وَصَحَّةُ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآ مَنَ مِّنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُسْكِرُ
الْنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يُونُسَ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ
لَجَعَلَ النَّاسَ جَمِيعًا مُؤْمِنِينَ ، فَيَصْدُقُونَ أَنَّكَ لِي رَسُولٌ ، وَأَنْ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ ،
وَمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادِيَّةِ لَهُ حَقٌّ ؛ وَلَسَكُنْ لَا يَشَاءُ
ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَاءِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَسُولًا أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِكَ
وَلَا يَتَّبِعُكَ فَيَصْدُقُكَ بِمَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالنُّورِ إِلَّا مَن سَبَقَتْ لَهُ
السَّعَادَةُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ

وَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْرُصُ عَلَى أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ
النَّاسِ وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهُدَى أَخْبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا مَن قَدْ
سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَلَا يَضِلُّ إِلَّا مَن سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ
الشَّقَاءُ ؛ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ بِكَ ،

ويصدقك يا محمد ، ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء ربك أن يصدقك ، لا با كراهك إياه ، ولا بحرصك على ذلك . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بك ، مصدقين بما جئتهم به من عند ربك ؟

ولذا قال الله تعالى له في تبليغ الرسالة : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يونس

يقول الله تعالى لنبيه : وما كان لنفس خلقها من سبيل إلى تصديقك يا محمد إلا بأن آذن لها في ذلك ، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها وبلغها وعيد الله ، وعرفها ما أمرك ربك أن تعرفها ، ثم خلها فإن هداها بيد خالقها ، ويجعل الرجس (وهو العذاب وغضب الله) على الذين لا يعقلون حجج الله ، ومواعظه وآياته ، التي دلّ بها جلّ ثناؤه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحقيقة ما دعاهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأصنام والأوثان

ثم قال الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة

نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف
يقال له (الحصين) كان له ابنان نصرانيان ، وكان هورجلاً مسلماً ، فقال
للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرهما ، فإنهما قد أياها إلا النصرانية
فأنزل الله فيه هذه الآية

والمعنى - بما أنه قد وضع الحق من الباطل ، واستبان لطالب الحق
والرشاد وجه مطلبه ، فتميز من الضلالة والغواية ، فلا تسكرهوا من أهل
الكتابين ، ومن أبحث لكم أخذ الجزية منه على دينكم ، دين الحق ،
فإن حاد عن الرشاد بعد استبانته له ، فإلى ربه أمره ، وهو ولي عقوبته
في معاده ، ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة

المعنى - من يمحذو ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر بالطاغوت
(كل ذى طغيان على الله يعبد من دونه) ويؤمن ويصدق بالله أنه إليه
وربه ومعبوده فقد تمسك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من
عذاب الله وعقابه

معارضة العرب لقبول دعوته ، ومعاداتهم له ، وحقدهم عليه

لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة كما أمره ربه سَخِرَتْ منه قريش ، واستهزأوا به في مجالسهم ، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون : هذا (ابن أبي كبشة) يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطاب يكلم من السماء ، لا يزيدون على ذلك

فلما عاب آلهتهم ، وسفه عقولهم ، وقال لهم : يا قوم لقد خالقم دين أبيكم إبراهيم ، ثارت في نفوسهم حمية الجاهلية ، غيرة على تلك الآلهة التي كان يعبدونها آبائهم ، فذهبوا إلى عمه (أبي طالب) سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه ، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه ، أويكفه عما يقول ، فردَّهم رداً جليلاً ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريد من الدعوة ، لا يصده عن مراده شيء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحث بعضهم بعضاً على ذلك ، ثم توجهوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له :

إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم ينته ، وإنا لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا

وكان عليه الصلاة والسلام إذا احتجوا بالتقليد في استمرارهم على
عدم اتباع الحق ، ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له ، وذكر لهم
قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا أُولَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

البقرة

وقول الله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

المائدة

وقوله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا
عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ لقمان

وقوله تعالى في بيان حججهم الداحضة :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

الزخرف

ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم في هذه الأقوال والمعارضة الدالة على التعصب والعناد تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قَالَ أُولُو جِنَّةٍ كُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الزخرف

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جرّ ذلك إلى وصف آباءهم بعدم العقل ، وعدم الهداية ، فهاج ذلك غضبهم ، وزاد في أضغانهم ، وقالوا لأبي طالب : إما أن تكفه ، أو ننازله القتال ، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ؛ ثم انصرفوا

فمظّم على أبي طالب فراق قومه ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له : يابن أخى ، إن القوم جاءوني فقالوا كذا ، فأبق على نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق

فظن الرسول أن عمه خاذله فقال :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه »
ثم بكى وولى ، فقال أبو طالب : يابن أخى ، فأقبل عليه فقال : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك .

ثم أخذ الكافرون يدعون الدعوات الباطلة ويعارضونه فيما جاء به

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ
وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ
اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفرقان

أى وقال الكافرون : إن هذا القرآن اختلاق افتراه محمد ، وأعانه عليه
اليهود أو غيرهم ، بقراءتهم عليه ما سطره الأقدمون صباحاً ومساءً ، وهو
ينقلها بلسانه ، ويكسبها الطلاوة ببيانه ، فما أجهل هؤلاء الكفار ! لقد
ارتكبوا بقولهم هذا ظلماً وزوراً

فقل لهم يا محمد : قد أنزل القرآن عالم الخفيات في السموات والأرض إنه
كان غفوراً رحيماً ، فلذلك لم يعجل لكم العقوبة على ما تقولون

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي
فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ
كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ الفرقان

أى قالوا : ما لهذا الرسول يأكل كما نأكل ، ويمشي في الأسواق ؟
هلا أنزل إليه ملك يعينه على مهمته ، أو يعطى له كنز فينفق منه على

سَمِعَ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا بِلاَ كَذِبٍ وَلَا نَصَبٍ ؟
 وقال هؤلاء الكفار الظالمون : ماتبعون إلا رجلاً اختل عقله بسبب
 سحر أصابه

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
 وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا
 وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت

أى ، وقال الذين كفروا بالله ورسوله من مشركى قريش : لا تسمعوا
 لهذا القرآن ، ولا تصغوا له ، ولا تتبعوا ما فيه ، والغطوا بالباطل من القول
 إذا سمعتم قارئه ، واجحدوا به وأنكروه ، وتحدثوا وصيحوأكى لا تسمعوا
 لعلكم بفعلكم ذلك تصدون من أراد استماعه عن استماعه فلا يسمعه ،
 وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه ، فتغلبون بفعلكم هذا محمداً

ثم قال الله جل ثناؤه : « فلنذيقن الذين كفروا » بالله من مشركى
 قريش الذين قالوا هذا القول « عذاباً شديداً » فى الآخرة ، ولنجزينهم على
 فعلهم هذا وغيره من أفعالهم بأبجج جزاء نظير أعمالهم التى عملوها فى الدنيا
 ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ
 لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ
 مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت

أى يقول الذين جحدوا بهذا القرآن ، وكذبوا به لما جاءهم ؛ إن هذا القرآن لكتاب عزيز بإعزاز الله ، وحفظه من كل من أراد له تبديلاً أو تحريفاً أو تغييراً من إنس و جن و شيطان مارد ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أى إن الشيطان لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ، ولا يزيد فيه باطلاً ، ولا يستطيع ذو باطل بكيدته تغيير أو تبديل شيء من معانيه عما هو به ، فهو تنزيل من عند الحكيم ذى الحكمة بتدبير عبادو ، وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، الحمدود على نعمه عليهم

مجادلة العرب ومحاجتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده وبنهاهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرّة بمصالحهم ، ورثوها عن آبائهم أوزينهاهم الشيطان ، وأصبح عادة منها عبادة الأوثان والنيران والأحجار والأشجار ؛ وأمرهم بتوحيد الله ، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقص

فعند ما سمع منه العرب هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعوته ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ؛ ثم أخذوا فى مجادلته ومحاولته ، وجرحهم ذلك إلى طلب

الحجة منه ، وصار كل منهم يطلب برهاناً على صدق دعواه ، ويجهد في التمييز له في كل ما يراه ، وهو صلى الله عليه وسلم يقيم لهم الأدلة الصادقة ، والحجج القوية ، ويحيب على مقترحات كل سائل

ومن أعظم الحجج التي استند عليها في إثبات دعواه ، وجعل معظم اعتمادها عليها ، ما تلاه عليهم من كتاب الله العزيز ، المشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى حقاً إلى الناس كافةً ، وأنه صادق في كل ما يبلغ عنه ، وهو متكفل ببيان الشريعة التي شرعها الله تعالى لهم ؛ فأخذ يتلو عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ الأحقاف

أي قل لهم يا محمد : ما كنتُ بدعاً من الرسل ، أي لست أنا أول رسول في العالم ، أولم يسبقني غيري من الرسل حتى تستغربوا رسالتي ؟ ولست أدري ماذا يفعل الله بي وبكم ، وما أتبع إلا ما يوحى إلي من ربي ، وما أنا إلا منذر لكم ، أخوفكم من تماديكم في ضلالكم ، بلسان عربي مبين ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّي مُهَيِّتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي

وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ
وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿١﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء
المشركين بربههم من قومك ، إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه ،
فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك ، ولا أوافقكم عليه ولا أعطيكم
محببتكم وهوأكم فيه ، فإن فعلت ذلك فقد تركت محبة الحق ، وسلكت على
غير هدى ، ولصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة

وقل لهم أيضاً يا محمد : إني على ثقة من ربي ، وعلى بيان وبرهان ، قد
وضح لي من ربي من توحيده ، وما أنا عليه من إخلاصي في عبوديته ،
من غير إشراك شيء به ؛ أما أنتم فقد كفرتم بربكم ، وليس عندي
ما تستعجلون به من نعم الله وعذابه ، ولست بقادر على ذلك ، وإن الذي
يقضى الحق فيكم ، ويفصل بيني وبينكم ، هو الله الذي يبين الحق من
المبطل ، وهو خير الحاكمين ، الفاصلين بين الحق والباطل
ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ
لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ
وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هؤلاء الجاحدين بنبوتك المعاندين لدعوتك : لست أقول لكم إني أنا الرب الذى له خزائن السموات والأرض ، وإني أعلم الأشياء الخفية التى لا يعلمها إلا علام الغيوب ، الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فتكذبوننى فيما أقول من ذلك ؛ لأنه لا ينبغي أن يكون رباً إلا من له ملك كل شيء ، ويده كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، وذلك هو الله الذى لا إله غيره

وإني لا أقول لكم إني مَلَك ؛ لأنه لا ينبغي لَمَلَك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر فى الدنيا ، فتبصروا فيما أقول لكم من ذلك وما أنا إلا بشر ، أتبع فيما أقوله لكم وأدعوكم إليه وحى الله الذى يوحىه إلى ، وتنزله الذى ينزله على ، فأمضى لوحيه ، وأمر بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله على صحة قولى

وهل يستوى الأعمى عن الحق والبصير به ؟ (والأعمى هو الكافر الذى قد عمى عن حجج الله فلا يتبعها ، والبصير المؤمن الذى قد أبصر آيات الله وحججه فاقتدى بها واستضاء بنورها)

أفلا تتفكرون أيها القوم فيما أحتج به عليكم من هذه الحجج ؟ فاعلموا صحة ما أقوله لكم ، وأدعوكم إليه من فساد ما أنتم عليه من الكفر ، واتباعكم ما كان عليه آباؤكم الأولون

فلم يعبأوا بقوله ، ولم يذعنوا لدعوته ، وقالوا : إنها نزعمة من نزعات الجنون ، ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

ن

يقسم الله تعالى بالقلم الذى خلقه ، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وهو أول ما خلق الله تعالى لكتابة القضاء والقدر .

ويقسم بما يسيطرون ، أى بالكتاب الكريم (القرآن) بأنك يا محمد ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، مكذباً بذلك مشركى قريش الذين قالوا له : إنك لجنون . ويقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وإن لك يا محمد لأجراً غير ممنون ، أى إن لك ثواباً من الله عظيماً على صبرك على أذى المشركين إياك ، غير منقوص ولا مقطوع ، وإنك يا محمد لعلى أدب راق ، ذلك أدب القرآن الذى أدبك الله به ، وهو الإسلام وشرائعه ، وسترى يا محمد ، ويرى مشركو قومك الذين يصفونك بالجنون ، أيكم الجنون ؟ فإن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله ، كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ،

وهو أعلم بمن اهتدى فاتبع طريق الحق والهدى كما اهتديت أنت يا محمد
فاتبعت الحق

الاحتجاج على المشركين

وتحدى رسول الله صلى عليه وسلم العرب بالقرآن

نزل القرآن الكريم تأييداً لدعوته ، وشاهداً بصدق رسالته ، كما مر ذكره ، فلما رأى شدة العناد والمجادلة من العرب ، وكان فيهم الخطباء والشعراء يعقدون للقول الجامع ، ويقىمون الأسواق فيفاخرون ويناضلون ، وكانوا ذوى أنفة وغيرة واستكبار ، يأبون الضيم ، وينفرون من الصغار ، وكانوا يحرصون كل الحرص على التغلب على رسول الله صلى عليه وسلم وإبطال دعواه ، ومع ذلك دعاهم بأمر الله تعالى إلى المعارضة ، وأغراهم بالمناهضة ، فتلا عليهم قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾
البقرة

هذا احتجاج من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي

قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ،
 فيقول الله تعالى لهؤلاء المشركين : إن كنتم أيها المشركون من العرب
 والكفار من أهل الكتاب في شك مما نزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه
 وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي ، وأنى أنا الذى
 أنزلته إليه فلم تؤمنوا به ، ولم تصدقوه فيما يقول ، فأتوا بحجة تدفع حجته ،
 وأتوا بسورة من مثله ، يعنى من مثل هذا القرآن حقاً وصدقاً ، لا باطل فيه
 ولا كذب ، من كلامكم أيها العرب ، كما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم
 ببلغتهم ، وادعوا أعوانكم على ما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين فى زعمكم ،
 فإن لم تأتوا بسورة من مثله - ولن تقدروا على الإتيان بها - فأتقوا عذاب
 النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به من عندي ، تلك النار التى وقودها
 الناس والحجارة أعدت لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر

ولقد كان لهم أن يجمعوا من البلغاء والفصحاء من شاءوا كما كانوا يجتمعون
 للمباهاة والمباراة بالقول ، فأتوا بشيء من مثل ما أتى به محمد صلى الله عليه
 وسلم ليبطلوا حجته ، وليبرثوا أنفسهم من عار الغلب ، ويصنوا دماءهم التى
 سفكها عنادهم ، واستكبارهم ، لو كانوا يستطيعون

ثم لما قالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن ، أمر الله
 محمداً أن يقول لهم :

« إن كنت افتريته وتخرجه على الله كذباً ، فلا تقدرُوا أن تدفعُوا عني
 إن عاقبني الله على افترائي إياه ، وربى أعلم بما تقولون بينكم في هذا القرآن ،
 وكفى بالله شهيداً علىّ وعليكم ، بما تقولون من تكذيبكم لي فيما جئتكم به من
 عند الله ، الذي يغفر الذنب لمن تاب ، ويرحم من أتاب ، وفي ذلك قوله تعالى :
 ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ ﴾ الأحقاف

ثم خاطب العرب الذين قالوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم افتري هذا
 القرآن ، فقال تعالى لهم :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ
 يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَفْتُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس

أى إن هذا القرآن ليس مما يمكن أن يفترى افتراء من الخلق ، ولكن
 الله أنزله تصديقاً لما تقدم من الكتب ، وتفصيلاً لما تقرر من العقائد
 والأحكام ، لاشك فيه أنه تنزيل من رب العالمين

ويقول الله لهم : إن صح زعمكم أن هذا الكتاب مما يمكن اقتراؤه ،
فأتوا بسورة مثله ، واستمعينوا بكل من تشاءون من أهل الفصاحة والحكمة
إن كنتم صادقين في زعمكم

عجز العرب عن معارضة القرآن

لم يستطع أحد من العرب الإتيان بسورة مثله ، فتحقق عندهم
عجزهم عن معارضته ، ولو بأقصر سورة منه فأقروا بعجزهم بلسان الحال ؛
بل بعجز الإنس والجن ، وبأن ذلك دليل واضح على أنه من عند الله ،
أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له تدل على تصديقه وذلك
قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ الإسراء

يقول الله تعالى ذكره : قل يا محمد للذين قالوا إنك تأتي بمثل هذا القرآن
لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون أبداً بمثله ، ولو كان
بعضهم لبعض عوناً وظهيراً ؛ لأن ذلك يعجزهم فلا يقدرُونَ عليه ،
وقال تعالى :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الحشر

يقول الله جل ثناؤه : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتَهُ خاشعاً متصدعاً من خشية الله على قسوته ، حذراً من ألا يؤدي حق الله المقترض عليه في تعظيم القرآن

وقد أنزل على ابن آدم وهو بحقه مستخف ، وعنه وعما فيه من العبر والذكر معرض كأن لم يسمعها ، وكأن في أذنيه وقرأ

ويضرب الله هذا مثلاً من الأمثال للناس ، ليعرفهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم ، مع صلابتها وقسوتها ، ليتفكروا فيها فينقادوا للحق

فعند ذلك صدقوا جميعاً دعوى محمد عليه السلام بإرساله ، واتبعوه فيما جاء به من عند الله ، وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله في قصيدته :

« وتحدى فارتاب كل مُريب أو يبق مع السيول الغشاء »

« وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء »

« ويدل الورى على الله بالتو حيد وهو المحجة البيضاء »

أى أنه عليه السلام طلب من كفار مكة أن يعارضوا ما جاء به شاهداً على نبوته وصدقه بإبداء نظيره ، وإلا كانوا كاذبين مدحوضين فمجزوا عن المعارضة وانقطعوا

تخادهم وهو لا ينى في الدعاء إلى الإله المعبود بحق ، وإن شقَّ عليه الكفر بالله ، والاستخفاف به ، ويدل الخلق على العلم بذاته وأسمائه وصفاته ، ويحملهم على الإقرار بوحدانيته ، وهو الطريق النيرة المضيئة التي لا يضل سالكها أبداً

الأذى

مَا لَقِيَهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ :

لما رأى الكفار أن المسلمين يزداد عددهم كل يوم أخذوا يسيئون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسلطون عليه الأشرار منهم لإهانتهم وإيذائه هو ومن آمن معه حتى أصابهم من ذلك شيء كثير ، فمن ذلك :

١ — أن أحد كفار قريش وعظماهم واسمه (أبو جهل) أخذ مرة حجراً كبيراً ليُلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتله ، فترقبه حتى دخل المسجد وشرع في الصلاة ، فلما سجد همَّ (أبو جهل) بإلقاء الحجر عليه ، فأنزل الله الرعب والخوف في قلب (أبي جهل) فرجع مضطرباً ممتقع اللون وألقى الحجر من يده

٢ — أمر (أبو جهل) رجلاً أن يحضر (فَرَّثَ جُزُور) ما يخرج من بطن الجمل إذا ذبح فأحضره فألقاه على النبي وهو ساجد ، فلم يحسر أحد من المسلمين أن يرفعه عنه ، لقلتهم وخوفهم من كفار قريش ، حتى أتت

السيدة فاطمة (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ورفعتة عن أبيها
 ٣ - ومن جماعة المستهزئين برسول الله (أبو لهب بن عبد المطلب) عم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى
 القدر على بابه ؛ لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بني
 عبد مناف أى جوار هذا ؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه (أم جميل
 بنت حرب بن أمية) فكانت كثيراً ما تسب الرسول وتتكلم فيه بالنمائم ،
 وخصوصاً بعد ما أنزل الله فى تقبيح فعلهما ، وتوعدهما بالعذاب الشديد
 قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيِّئًا نَّارًا
 ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

المسد

٤ - جاء رجل آخر يدعى (عقبه بن أبى معيط) فوضع ثوبه فى عنق
 الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخنقه بثوبه وهو يصلى ، حتى جاء سيدنا أبو بكر
 فدافع عنه وخلصه ودفعه عن النبي وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ
 رَبِّكُمْ ﴾ غافر

٥ - لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة إيذاء قريش له
 واستهانتهم به خرج إلى قبيلة تسمى (ثقيف) يرجو منهم أن ينصروه

على قریش فردوه ردّاً سيئاً ، فأرسلوا خلفه سفهاءهم وخدمهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكذلك كانوا يفعلون مع أصحابه فمن أودى إيذاءً شديداً من المسلمين .

١ - (بلال) مؤذن النبي عليه الصلاة والسلام كان مملوكاً لرجل من عظمائهم يُسمى (أمية بن خلف) فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه للصبيان يحرقونه ، وكان يخرج به وقت الظهيرة إلى الرمل الشديد الحرارة الذي لو وضعت عليه قطعة من اللحم لنضجت ، ثم يضع على صدره صخرة عظيمة ويقول له :

لا تزال هكذا حتى تسكر بمحمد ، فيقول بلال : الله أحد ، الله أحد ولم يكفر ، ثم اشتراه منه أبو بكر وأعتقه

٢ - (عمار بن ياسر) وأبوه وأمه وأخوه كانوا يعذبون بالنار ويلبسون دروع الحديد الحماة في اليوم (القائن) شديد الحر ، فما كان يزيدهم هذا العذاب إلا تمسكاً بالدين ، وكان الرسول يقول لهم : صبراً آل ياسر وبشرهم بالجنة وقد عذب كثيرون غير هؤلاء بأنواع العذاب ؛ ولكنهم صبروا وثبتوا على دينهم ، فنصرهم الله على أعدائهم نصرّاً مؤيداً وقد أخذت قریش تسخر منه ، وتؤذيه وتضيق عليه وهو مع قلة رجاله وماله لا يصدّه عن الدعوة إلى الإسلام شيء .

وقد لقيَ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الإهانة والإيذاء ما لقيهُ قبله الأنبياء والمرسلون والهداة المصلحون ، وهو مع ذلك ماضٍ لشأنه ، يدعو قومه ، ويتلو عليهم ما يوحى إليه من ربه ، مبشراً مَنْ آمَنَ به واتبع سبيله ، ومنذراً من خالفه وكذبه ، لا يثنيه إيذاء ، ولا يرهبه وعيد .
 وكان الله سبحانه وتعالى ينزل عليه من الآيات ، ما يقويه به على تحمل الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قریش ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾
 الأحقاف

حماية عمه أبى طالب له ، والسيدة خديجة زوجته

وكان عمه أبو طالب يدافع عنه ، ويحميه من غوائلهم ويميل إلى ما جاء به من الدين ، فلم يمنعه من إظهار الإسلام إلاّ الحياء من قومه ولذا قال :

« ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا »

« لولا الملامة أو حذارى سُبَّة لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً »

« والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا »

ثم ازداد الحقد والعداء حين أسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما

وكانا أشد المعارضين له ، فأعزَّ الله بهما الإسلام ، وحمى بهما رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فاغتاظت قريش ، وصارت تعذب كل من آمن به أشدَّ العذاب

وكانت زوجته (السيدة خديجة) رضى الله عنها أعظم مشجع له ، ومؤاسٍ يعطف عليه ، ويثبته ، ويخفف عنه دفع ما يلاقى من الأذى من أعدائه

مكثه صلى الله عليه وسلم على هذه الحال

بمكة عشر سنوات

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة على هذه الحال يدعو إلى الله تعالى غير مبال بما يناله من أذى السفهاء من قومه وتكذيبهم له ، وعلى الرغم من ذلك كان المسلمون من قريش ومن غيرهم من العرب في ازدياد يدخلون في دين الله أفواجا

مطالب كفار قريش

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعا ؛ بل كلما زادوا للمسلمين أذى ازداد يقينهم ، اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، فقال لهم (عتبة ابن ربيعة العشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف) وكان سيداً مطاعاً في قومه : يا معشر قريش ، ألا أقوم لحمد فأكله وأعرض عليه أموراً

عَلَّه يَقْبَلُ بَعْضُهَا فَنُعْطِيهِ إِيَّاهُ وَيَكْفِ عَنَّا ؟

فَقَالُوا : يَا أَبَا الْوَلِيدِ قُمْ إِلَيْهِ فَسُكِّمَهُ ، فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَصِلُ فِي الْمَسْجِدِ وَقَالَ : يَا بَنَ أَخِي ، إِنَّكَ مَنَاحِيثٌ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ خِيَارِنَا حَسَبًا وَنَسَبًا ، وَإِنَّكَ قَدْ أُتِيتَ قَوْمَكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ فَفَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ ، وَسَفَهْتَ أَحْلَامَهُمْ ، وَعَبْتَ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ ؛ وَكَفَرْتَ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرَضَ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضُهَا

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ ، فَقَالَ :

يَا بَنَ أَخِي إِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَسْكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا ، وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا حَتَّى لَا تَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ ، وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ مُلْكًا مَلَكَنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا مِنَ الْجَنِّ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطَّيِّبَ ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالِنَا حَتَّى نَهْرُوكَ مِنْهُ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ فَرَّغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ :

فَاسْمَعْ مِنِّي ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْدُ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابُ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (إِلَى أَنْ قَالَ) :
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿ فَفَصَّلَتْ

فأمسك (عتبة) بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك
 فلما رجع (عتبة) سأله ، فقال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله
 قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ؛ يا معشر قريش ، أطيعوني فاجعلوها
 لي خلواً بين الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه وقالوا . لقد سحرك محمد
 فقال : هذا رأيي

ثم عرضوا عليه بعد ذلك صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم في عبادتهم
 ويشاركوه في عبادته ، فأنزل الله في ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
 مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ
 وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون

فقال لهم ، لا تقوهموا أني أجيبكم إلى طلبكم من الإشراف بالله
 فلما يتسوا منه طلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم
 الأوثان ، والوعيد الشديد ، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جواباً لهم
 على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى
 إِلَيَّ ﴾ يونس

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يرفضونها لا تقبل منهم

أرادوا أن يدخلوا من باب آخر ، وهو باب تعجيز الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالوا : نحن نطلب من محمد (عليه الصلاة والسلام) الإتيان بأمور تكون خارقة للعادة المطردة في هذا الكون ، فإن جاء بها يكون صادقاً في دعواه ، فاجتمعوا وقالوا : يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك ، وهي أن تشقّ لنا القمر شقين ، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين ، وراه رأى العين حاضرهم وغائبهم ممن رأوه في أمكنة بعيدة ، متحدة الأفق مع مكان الحاضرين ، فأخبر بأنه رأى انشقاقه مثل ما رأى الحاضرون

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا

وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر

فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال لهم (عتبة) : لقد سحركم

ابن أبي كبشة

فأنزل الله فيهم :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ ﴾ القمر

نم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بها إلا التعتن والعناد والتعجيز ، فمنها أنهم قالوا له : لن نصدقك حتى تفجر لنا من أرضنا

هذه عيناً تتبع لنا لا ينضب ماؤها ، أو يكون لك بستان من نخيل وغناب
فتجري الأنهار خلالها أو تسقط السماء علينا كما زعمت (كسفاً) أى قطعاً ، أو
تأتى بالله والملائكة يشهدون على صحة ما تقول لنا ، أو يكون لك بيت من
ذهب ، أو ترقى في معارج السماء ؛ ولا تؤمن ونصدق أنك صعدت إليها حتى
تنزل علينا كتاباً نقرأه ، يشهد لك بصدق نبوتك ، وفي ذلك قوله تعالى :
﴿ وَقَالُوا إِن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ
لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ
كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا
كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ الإسراء

فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين
من قومك ، الطالبين منك هذه الطلبات ؛ قل لهم : (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا
رَسُولًا) أى هل أنا إلا عبيد من عبيد الله من بنى آدم ، فكيف أقدر
أن أفعل ما سألتهم من هذه الأمور ؟ وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم ،
وما أنا إلا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم

وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ الإسراء

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لو أنزلت يا محمد عليك الكتاب ، أى الوحي الذى أنزلته مع رسولى فى قرطاس يشاهدونه ويلمسونه بأيديهم ، وينظرون إليه ، ويقرءونه معلقاً بين السماء والأرض بحقيقة ما تدعوهم إليه وصحة ما تأتيهم به من توحيدى وعبادتى لقالوا : (إن هذا إلا سحر ظاهر) أى الذى جئتنا به ما هو إلا سحر سحرت به أعيننا ليست له حقيقة ولا صحة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الأنعام

وقال هؤلاء المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هـلاً أنزل الله معك ملكاً من السماء يخبرنا أنك نبي ، ويصدقك على ما جئتنا به ، ويشهد لك بحقيقة ما تدعى من أن الله أرسلك إلينا ؟

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الأنعام

فأجابهم الله على ذلك بقوله : لو أنزلنا إليهم ملكاً فشاهدوه لقضى الله أمره فيهم بإهلاكهم ، ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء المشركين ملكاً لجعلناه فى صورة إنسان من البشر ؛ لأنهم لا يقدر أن يروا الملك فى صورته

الروحية ، ولحصل لهم القباس في أمره ، فلم يدروا أملك هو أم إنس ؟ فلم يوقنوا به ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ الأناعام

استهزاء المشركين به

ثم قال الله لنبيه هَوْنٌ عليك يا محمد ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك ، المستخفين بحقك ، وامنض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى ، فقد استهزأت أم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذى أرسلتك به إلى قومك ، وفعلوا مثل فعل قومك بك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب الأليم ما لا قبل لهم به ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأناعام

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنا يا محمد كفيْنَاكَ
المستَهْزِئِينَ ، الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ ، وَيَسْخَرُونَ مِنْكَ ، فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ أَيْ
بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا تَخَفْ شَيْئًا سِوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَمَانِعُ عَنْكَ مِنْ نَاصِبِكَ
الْعَدَاءِ ، وَآذَاكَ كَمَا كَفَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ قَوْمًا مِنْ قُرَيْشٍ مَعْرُوفِينَ وَهُمْ : الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغيرة ،
وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ ، وَأَبُو زَمْعَةَ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ بَغُوثٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَظِيلَةَ
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يَسْ

يقول الله تعالى ذكره : يَا حَسْرَةً الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، عَلَى مَا ضَعِفُوا مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ ، وَفَرَطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ مِنَ اللَّهِ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ فَكَانَ اسْتَهْزَاؤُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ، وَوَيْلًا لَهُمْ
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْبُوصَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وَكَفَاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَكَمْ سَا » نَبِيًّا مِنْ قَوْمِهِ اسْتَهْزَاءُ »

« وَرِمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فَنَاءِ السَّبِيْتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ فَنَاءُ »

الهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الْحَبْشَةِ

لَمَّا رَأَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شِدَّةَ الْأَذَى عَلَى أَصْحَابِهِ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ

النبوة ، أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر أناس منهم لم يكن لهم عشيرة تحميهم ، أو قبيلة ترد كيدهم ، فراراً بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وهى أول هجرة وقعت فى الإسلام بعد الرسالة ، ، وعدة أصحابها عشرة رجال ، وخمسة نسوة ، منهم سيدنا عثمان ، وزوجه رقية (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأبوسلمة وزوجه أم سلمة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، والزبير بن العوام ، وكلهم من قريش ؛ ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر

أما النبى صلى الله عليه وسلم والكبار من الصحابة ، فبقوا بمكة ينشرون دين الله ، متحملين بقلب ثابت ، وصبر جميل ، ما كان يحل بهم من الأذى والضرر

وفى ذلك الوقت أسلم (حمزة) عم الرسول (وعمر بن الخطاب) الشهم الهام العدوى القرشى ، بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم ، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أعز الإسلام بعمر ؟ وكان إسلامه فى دار الأرقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها

الهجرة الثانية إلى الحبشة

فى السنة السابعة أمر رسول الله أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية

وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانى عشرة امرأة وكان ممن هاجر
فى هذه الدفعة جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء وعبد الله بن مسعود
فلما رأت قریش استقرار المهاجرين فى الحبشة أرسلوا إلى ملكها
(النجاشى) رسولين بهدايا وتحف أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين فأبى
وردهما خائبين

ثم أسلم (النجاشى) ومن معه من القسيسين والرهبان سنة سبع من الهجرة
لما سمعوا سورة مريم ، ثم مات (النجاشى) مسلماً وصلى عليه رسول الله لما علمه
جبريل بوفاته

وهذه هى أصل صلاة الجنائز على الغائب

أما الذين بقوا بمكة من الصحابة فقد نالهم من الأذى مالا يمكن احتماله
إلا لمن تمسك بالإسلام من قلبه ، واختلط بدمه ولحمه ، وهكذا كان الصحابة
رضوان الله عليهم

وفد نجران

فى السنة العاشرة من رسالته صلى الله عليه وسلم وفد على الرسول بعد الخروج
من الشعب وفد من نصارى نجران ، بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا
بالقدوم عليه ، حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها فى كتبهم ، وكانوا عشرين رجلاً
(١٦ م - ثان)

أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَأَمَّنُوا كُلَّهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو جَهْلٌ :
مَا رَأَيْنَا رَكْبًا أَحَقَّ مِنْكُمْ ، أَرْسَلَكُمْ قَوْمُكُمْ تَعْلَمُونَ خَيْرَ هَذَا الرَّجُلِ
فَصَبَأْتُمْ (أَيَّ خَرَجْتُمْ مِنْ دِينِكُمْ)

فَقَالُوا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَأَنْجَاهَكُمْ ، لَكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَلَنَا مَا اخْتَرْنَاهُ ،
فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ
أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

القصص

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَمَا عَجَزُوا عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَلَمْ يَتِمَّ كُنُوتُهُمْ مِنْ مَقَارَعَةِ الْحِجَّةِ بِالْحِجَّةِ رَمَوْهُ بِالْسَّحَرِ مَرَّةً ، وَبِالْكَذِبِ أُخْرَى ،
وَبِالْجَنُونِ طَوْرًا ، وَبِالْكُهَانَةِ أَحْيَانًا ، كُلُّ ذَلِكَ شَأْنُ الْعَاجِزِ الْمَعَانِدِ الَّذِي
لَا يَسْتَحْيِي لِمَزِيدِ عُنَادِهِ أَنْ يَقُولَ :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ نُفِثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾ الأنفال

وفاة زوجه السيدة خديجة وعمه أبي طالب

وفي السنة العاشرة المذكورة من رسالته صلى الله عليه وسلم أصيب بمصاب عظيم ، وهو وفاة زوجه السيدة خديجة ، وعمه أبي طالب فحزن عليهما حزناً شديداً ، حتى سمى عام وفاتهما (عام الحزن) وقد اشتد إيذاء كفار قريش له ولأصحابه بعد وفاة عمه ، ونالوا منهم ما لم ينالوا في حياته ؛ ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في هذه المحنة الشديدة ، لا يخاطب الكفار إلا بالحسن ، ولا يعاملهم إلا باللين ، ولا يغلظ في القول لهم ؛ بل كان حليماً ، يدعو لهم بالهداية والتوفيق ، ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون

وكان لا يقابل الإساءة بمثليها ؛ بل يصفح عن المسيء ، ولا يحتقر أحداً من أصحابه فقيراً كان أو صغيراً ؛ بل كانوا عنده على السواء ، وكان منهم بمنزلة أوالد من أولاده ، ولذا تحملوا في سبيله كل عذاب

هجرة الطائف

لما رأى عليه السلام استهانة قريش ، وزيادة طغيانهم وعدوانهم

خرج من مكة ومعه غلامه (زيد بن حارثة) إلى الطائف مستنجداً بأهلها
(قبائل ثقيف) لأن لهم قرابة، فعرض عليهم الإسلام، وطلب منهم
نصرتهم، حتى يتم أمر ربه، ويبلغ رسالته، فلم يجيبوا؛ بل أخرجوه
وسلطوا عليه الغلمان والسفهاء يؤذونه ويَرْمُونَهُ بالحجارة، حتى أدموا
وجهه، وشجوا رأسه، مع أن زيد بن حارثة كان يدافع عنه ويقيه
بنفسه

فلما وصل إلى شجرة هناك قعد يستظل تحتها، فرآه (ابن اربعة)
على تلك الحال، وهما في بستانهما فرقا له مع أنهما كانا من ألد أعدائه،
وأرسلاه قطعاً من عنب مع غلام لهما نصراني اسمه (عداس)

فلما شرع يأكل منه قال عليه الصلاة والسلام: بسم الله الرحمن الرحيم

فقال الغلام: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه الجهة

فقال النبي عليه السلام: من أي البلاد أنت وما دينك؟

فقال: نصراني من نينوى (بلد في حدود العراق)

فقال عليه السلام: قرية الرجل الصالح (يونس بن متى)؛

فقال الغلام: ومن أعلمك بيونس بن متى؟

فقال النبي عليه السلام: ذاك أخي ونبي مثلي، ثم قرأ الآيات التي

فيها قصة يونس في (الصافات) السابق ذكرها في الجزء الأول

فما سمع الغلام القرآن حتى أسلم

ثم نزل جبريل عليه السلام وقال : يا محمد إن الله أمرني أن أطيعك بما
تأمر في قومك لما صنعوه معك

فقال عليه السلام : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله
(اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)

فقال جبريل عليه السلام : صدق من سمّاك الرؤوف الرحيم

ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن ، فلما سمعوه
أنصتوا له ، ورجعوا إلى قومهم منذرين ، وأبلغوا خبر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وفيهم نزلت الآية الآتية :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْخُلُقِ وَإِلَى
طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ
ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ الأحقاف

وقد قص الله قصة الجن بعبرة أطول في سورة سُميت باسمهم أولها :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الْرُشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ الجن

الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس

في السنة الحادية عشرة من الرسالة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وخمسين سنة أسرى به ليلة السابع والعشرين من رجب ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (بيت المقدس) بحسبه وروحه الطاهرين كما اتفق عليه الصحابة والعلماء وصلى فيه بالأنبياء وعرج (صعد) به إلى السموات العلى ، فرأى ما رأى من آيات ربه الكبرى ، وفرض الله عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة ، ثم رجع من ليلته ، وأصبح يخبر قومه بما رأى وشاهد ، فصدقته بعض قریش ، وكذبه آخرون ، فأيده الله بالمعجزات التي طلبوها منه : منها وصفه بيت المقدس ما كان عليه وصفاً حقيقياً مع أنه لم يره من قبل ؛ ومنها إخباره عن حالة العير (الإبل التي تحمل التجارة) التي كانت لهم بالشام ، وعن عدد إبلها وقال لهم : ستقدم عليكم مع غروب شمس يوم كذا يقدمها جمل أورق (لونه بين البياض والسواد) فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف ، فلم يزدادوا إلا كفرةً وعناداً وقالوا : هذا سحر مبين وبالإسراء والمعراج أكمل الله لرسوله الشرف على جميع أهل السموات والأرض ، وبلغ غاية الكمالات ، وارتقى أسنى الدرجات

وفي هذه القصة يقول الله تعالى في سورة الإسراء :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإسراء

وقال البوصيرى رحمه الله في قصيدته الحمزية :

- ١ « فَطَوَى الْأَرْضَ سَائِرًا وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى فَوْقَهَا لَهُ إِسْرَاءُ »
- ٢ « فَصِيفَ اللَّيْلَةَ الَّتِي كَانَ لِمَخْتَارِ فِيهَا عَلَى الْبَرَقِ اسْتِقْوَاءُ »
- ٣ « وَتَرَقَّى بِهِ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ وَتِلْكَ السِّيَادَةُ الْقَعَسَاءُ »
- ٤ « رَتَبَ تَسْقُطَ الْأُمَانِي حَسْرَى دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ »
- ٥ « ثُمَّ وَافَى يَحْدُثُ النَّاسُ شُكْرًا إِذْ أَتَتْهُ مِنْ رَبِّهِ النِّعْمَاءُ »

عرض نفسه على القبائل القادمين إلى مكة

في موسم الحج

لما رأى عليه الصلاة والسلام أن قريشاً تمنعه من تأدية رسالة ربه عرض نفسه على القادمين إلى مكة في موسم الحج من قبائل العرب ، وأخذ يقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويطلب إليهم أن يسموا ويمنعوا عنه أذى قومه ، فلم يستجيبوا له

وقد أجابه صلى الله عليه وسلم ستة نفر من الخزرج إلى الإسلام ،

وهم من عرب يثرب (عرب المدينة) ووعدوه أن يبلغوا قومهم وقالوا له :
إنّا تر كنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن جمعهم الله عليك فلا رجل
أعز منك ، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل

وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب وهم (الأوس والخزرج)

فلما رجعوا ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعواهم إلى
الإسلام ، فانتشر الإسلام بينهم ، ولم يبق دار في المدينة إلّا وفيها ذكره
صلى الله عليه وسلم

ولما كثر المسلمون من الأوس والخزرج في المدينة بعث إليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم من أصحابه رجلاً يدعى (مصعب بن عمير بن هاشم القرشي)
يقرئهم القرآن ، ويعلمهم أمر دينهم ، ويؤمهم في صلواتهم
وقد دخل أهل المدينة في الإسلام أفواجا بعد إسلام (سعد بن معاذ)
(وأسيد بن حضير) وهما سيدان من ساداتهم

قدوم كثير من أهل المدينة إلى مكة للحج

ومعاهدتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة قدم إلى مكة من أهل المدينة
عدد كثير يريدون الحج ، فاجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً

خارج مكة ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأة ، فأسلموا جميعاً ، وبايعوه
عند (العقبة) وعاهدوه إن هو هاجر إليهم على أن يدافعوا عنه ، ويمنعوه مما
يمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، فكانوا أنصاره صلى الله عليه وسلم على أعدائه ،
وفي هؤلاء الأنصار يقول الله تعالى بعد ذكر المهاجرين :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خِصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر

الدور الثالث - من الهجرة إلى الوفاة

هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة

لما بلغ عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وخمسين سنة ، وأخذ الإسلام ينمو في بعض القبائل ، واشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه ، حتى رأى ما لم يره في سابق حياته ، أمره الله تعالى بالهجرة من مكة إلى المدينة التي كان أسلم غالب أهلها ، فصعد بالأمر ، وأذن للمسلمين بالمهاجرة إليها ، فهاجر خلق كثيرون منهم سيدنا عمر وأخوه زيد ، وعمار بن ياسر ، وبلال ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن عفان حتى لم يبق بمكة مع الرسول وأهل بيته إلا القليل من المستضعفين ومعهم سيدنا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما

تآمر المشركين على قتله

فلما أحس كفار قريش بأن الرسول سيهاجر أيضاً تآمروا على قتله (بدار الندوة) قبل أن يهاجر ، فأطلعه الله على سرهم ، ونجاه من مكرم وكيدهم ، ورد كيدهم في نحركم ؛ وفي ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿١﴾ الأنفال
فاتفق مع أبي بكر على أن يتجهز للخروج من مكة إلى المدينة
هجرته مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه

جهز سيدنا أبو بكر للسفر راحلتين واشترى الرسول إحداها ، ثم أودعها
عند رجل استأجره دليلاً لهما إلى المدينة ، ووعده (غار ثور) جحر في جبل
بينه وبين مكة نحو ميلين بعد ثلاث ليال

ثم اتفق النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر على المقابلة ليلاً خارج
مكة ، وكانت تلك الليلة موعد تنفيذ قريش ما تأمروا عليه من قتل رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا حول البيت الذي بات فيه الرسول وصاروا
يرددون النظر من شقوق الباب ، حتى إذا نام دخلوا عليه ليقبضوه
فلما أراد الخروج أمر سيدنا علياً بأن ينام مكانه فنام ، وغطاه ببردته
ليخفي الأمر على القوم ، ثم تحصن بالله وخرج عليهم نائراً التراب على رؤسهم
وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس

فالتقى الله عليهم النوم ، ولم يشعر به أحد ، فقابله أبو بكر في الموعد
وسارا حتى وصلا الغار ليلاً وكفأ فيه

فلما همَّ القوم بالقتل ، دخلوا البيت فوجدوا النائم على بن أبي طالب ، لا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فاغتاضوا غيظاً شديداً ، واقتفوا الأثر الذي انقطع عند الغار ، فتحيروا في أمرهم ولم يهتدوا ، حيث أعمى الله بصرهم عن النظر في الغار بنسج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فمه ، فرجعوا خائبين ، وجعلوا مكافأةً كبيرةً لمن يدل عليهما

خرج النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة ومعه أبو بكر فأقاماه ثلاثة أيام في الغار

وروى أنه لما انطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى الغار جعل يمشى ساعة بين يدي الرسول ، وساعة خلفه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا أبا بكر ؟ فقال أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتى أستبرأ الغار ، فدخل فاستبرأه ثم قال : انزل يا رسول الله ، فنزل

وروى عن أبي بكر الصديق أنه حدثهم فقال : نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا

فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وحادثة الغار مشهورة ومشار إليها في القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
التوبة

ويروى عن ابن عمر قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :

أنت صاحبى فى الغار ، وأنت صاحبى على الحوض

قال الحسين بن الفضل : من قال أن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى الغار فقد كفر بنص القرآن ، وسائر الصحبة إذا أنكر ذلك يكون مبتدعاً ، والمعوّل عليه تكفير من أنكر صحبة الجمع على صحبته منهم

فلما جاء الدليل بالراحتين فى الميعاد ركبا وسارا فلاحق بهما (سراقة بن

مالك) الذى طمع فى أخذ المكافأة من قریش ، وأراد أن يتعرض لهما ،

ففاصت يدا فرسه فى الأرض الصماء ، فاستجار بالنبي ، فأجاره على أن يرجع

فرجع ؛ ولكن حدثتة نفسه بالمكافأة فكرر عليهما ثانياً ، ففاصت قوائم

الفرس الأربع إلى الركبتين ، فطلب منهما الأمان ، وتعهّد بأن يرد

عنهما جيش العدوان ، ففما عنه الرسول ، وأشار إلى الفرس فنهضت فركبها
ورجع كما جاء

وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله :

« وَتَحَا المصطفى المدينة واشتاقت إليه من مكة الأنحاء »

« وَتَغَنَّتْ بمدحه الجنُّ حتى أطرب الإنسَ منه ذاك الغناء »

« واقتفى أثره (سُرَّاقَة) فاستهـوته في الأرض صافنٌ جرداء »

« ثم ناداه بعد ماسيـمَتِ الخسفِ وقد يُـمَجِّدُ الغريقُ النداء »

من هذه الحادثة تعلم مقدار حماية الله لرسوله ، وخيبة أعدائه ، ومحبة سيدنا على له حيث عرض نفسه لعدائه ؛ وتعلم أيضاً مقدار حلم الرسول على قومه وصبره على الأذى ، وحسن معاملته لطالب العذر منه ، حيث عفا عنه مع قدرته إذ ذاك على الانتقام منه ؛ وتعلم أيضاً مقدار صدق أبي بكر ، وحسن صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم

الوصول إلى المدينة المنورة

ثم سار النبي عليه السلام وصاحبه أبو بكر في أمان حتى قربا من المدينة بعد ستة أيام ، وكان أهلها ينتظرونه لعلهم بقدمه ، فإذا يهودى ينادى بأعلى صوته : يا معشر العرب ، هذا حظكم الذى تنتظرونه ، فتقلدوا أسلحتهم وتلقوا الرسول مهللين مكبرين ، فعدل بهم ذات اليمين ونزل (بقاء) موضع بجوار

المدينة على بنى عمرو بن عوف في اليوم الثامن من ربيع الأول الموافق ٢٠
سبتمبر سنة ٦٢٢ م كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي وأسس مسجد (قباء)
الذي وصفه الله بقوله :

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ التوبة

وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار الجمعة ، وكانوا
مائة رجل ، وهذه أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام

وكانت المساجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غاية من
البساطة

ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة ، والأنصار شاھرو السلاح ، محيطون به إحاطة
الهالة بالقمر ، فما فرح أهل المدينة بشيء فرحهم برسول الله عليه الصلاة
والسلام ، وقد خرج لملاقاته ، فيمن خرج ، النساء والصبيان والولائد ينشدون :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »

« وجب الشكر علينا ما دعا الله داع »

« أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع »

وكان كل واحد يود نزول الرسول بفنائه ، ويأخذ بزمام ناقته ، فقال
لهم عليه الصلاة والسلام : (خلوا عنها فإنها مأمورة)

فلما وصلت إلى فناء بنى النجار (أحوال أبيه) بركت أمام دار أبي
أيوب الأنصاري ، فأخذ أهل المدينة في الترحيب بالرسول عليه الصلاة
والسلام ، والمبالغة في إكرامه وإكرام المهاجرين ، ووازره ونصروه (فسموا
بالأنصار) ومن وفدوا عليهم (سمو بالمهاجرين)

المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين

ولما استقر بالرسول المقام بالمدينة ، وبنى مسجده وداره قريباً من دار
أبي أيوب الأنصاري ، أخذ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، حتى صار كل
واحد يفضل أخاه على نفسه ، فقويت بذلك عصبتهم ، وهابهم القريب
والبعيد ، فعاش المهاجرون في هناء وصفاء ، وأحبوا المدينة أكثر من محبتهم
لوطنهم ، ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام

وقد أعزَّ الله تعالى الإسلام ، وأعلى مناره ، وقوى رسوله بالأنصار
والمهاجرين ، وبمن دخل في دين الله تعالى من قبائل العرب ، وفي ذلك يقول
الله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة

مبدأ التاريخ الإسلامي

لما كان لهجرته عليه السلام ، وتركه بلده وعشيرته شأن عظيم ، وبها ظهر

الإسلام ظهور الشمس في رابعة النهار ، بعد أن كان في خفاء واستتار ، اختار سيدنا عمر بن الخطاب في أيام خلافته أن يكون عام الهجرة مبدأً للتاريخ الإسلامي . وفي السنة المذكورة بنى عليه السلام مسجده بالمدينة ، وفيها شرع الله الأذان لجمع المسلمين للصلاة

يهود المدينة

قد ابتلى الله المسلمين في المدينة بيهودها ، كما ابتلاهم في مكة بمشركي قريش وبالمنافقين ، وهم قوم أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، فإن اليهود قد أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم ، واستكباراً من أن تكون النبوة في ولد إسماعيل ، فكفروا بما أنزل الله بغياً ، مع أنهم علموا بأن رسول الله محمداً لم يأت إلاّ مُصدّقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين

ولذا أمر الله تعالى محمداً أن يدعو يهود بني إسرائيل ، الذين كانوا في المدينة إلى توحيد الله ، فقال له وللمؤمنين به : قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل القوراة والإنجيل ، ، هلموا إلى كلمة سواء ، (أى عدل) بيننا وبينكم ، وهى أن نعبد الله ولا نعبد سواه ، ونبرأ من كل معبود غيره ، فلا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ، أى لا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصى الله ، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه ، فإن أعرضوا عما

دعوتهم إليه، من هذه الكلمة العدل التي أمرتك بدعائهم إليها ، ولم يحيبوك إليها ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون للمعرضين عن ذلك : اشهدوا بأننا مسلمون ، وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران

فأصروا على عنادهم ، وأرادوا تعجيزه ، فسألوه أن يأتي بمعجزة ، تدل على صدق نبوته ودعوته ، فطلبوا منه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾

النساء

فأجابهم الله ، توبيخاً لهم وتقريراً ، بقوله : يا محمد لا يعظمن عليكم مسألتهم ذلك ، فقد سألوا موسى أعظم مما سألوك ، حيث قالوا له : أرنا الله جهرةً ننظر إليه ، فصعقوا بظلمهم أنفسهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ النساء

ثم يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن كفر

بالذي أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقد كذبوا ؛ ولكن الله يشهد بتنزيل ما أنزله من كتابه ووحيه إليك ، يعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد بذلك ملائكته ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وحسبك بالله شاهداً على صدقك ، دون ما سواه من خلقه ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ النساء
ثم يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة

يقول الله تعالى ذكره : إنا أرسلناك يا محمد مؤيداً بالحق ، مبشراً للمؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، ولست بمسؤول عن الذين يستحقون النار المتأججة ؛ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تميل إلى دينهم وتتبع

ملتهم ، فقل لهم : إن هدى الله ، أى الإسلام ، هو الهدى الصحيح ليس
ما أنتم عليه من عناد وإنكار بغياً وحسداً ، ثم حذره الله وقال له : لئن
اتبعت يا محمد أضاليلهم بعد الذى نزل عليك من الوحي مالك من الله من
محب ولا ناصر يدفع عنك عقابه

وقد حجّجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد
عن الحق فقال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة

ثم ختم جلّ ذكره عدم إجابتهم بقوله :

﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾
البقرة

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم ؛
مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم
وقد تبين الهدى لأحد رؤساء وعلماء اليهود (عبد الله بن سلام) فترك
هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن كما أسلم أيضاً (كعب الأحرار) وغيرهما من
أحبار اليهود وساداتهم

المنافقون المستهزون

وكان يساعد اليهود على مقاصدهم وكفرهم جماعة من عرب المدينة
أعنى الله بصائرهم ، فأخفوا كفرهم حرصاً على حياتهم ، وهؤلاء هم المنافقون
وكان يرأسهم (عبد الله بن أبي ابن سلول الخزرجي) الذي كان مرشحاً
نفسه لرياسة أهل المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

ويقول الله فيهم : هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا لهم : إنا آمننا
كما آمنتم ، فإذا خلوا إلى إخوانهم في الكفر واجتمعوا بهم قالوا لهم : هو نوا
على أنفسكم ، إننا لا نزال على ملتكم ، إنما نحن في تظاهرنا بالإيمان نستهزي
بالمؤمنين

ولكن الله يستهزي ويسخر بهم للنعمة منهم ، ويزيدهم طغياناً
ليزدادوا حيرةً وضلالاً

وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة

وهؤلاء المنافقون هم الذين باعوا الهدى ، واشتروا به الضلالة ، فما
كسبت تجارتهم ، وما اهدوا ، وفي ذلك قوله تعالى :
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا
كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة

ولاشك أن ضرر المنافقين أشد من ضرر الكفار ؛ لأن أولئك يدخلون
بين المسلمين يتعلمون أسرارهم ، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم ؛
ولذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يركن لهم ولا يأمنهم في عمل ما ،
وكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الأنصار ، ولم يعد أنه
ولى رجلاً من المنافقين ، وقد حذره الله منهم بقوله : إذا جاءك المنافقون
يا محمد قالوا لك بالسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ،
وكفى به شهيداً ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في أخبارهم ، وقد اتخذوا
أقسامهم وحلفهم وقايةً وسيراً ، فيمنعون بها أنفسهم وذرائعهم وأموالهم ،
ويدفعون بها عنها ، فأعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وإنهم لقد ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ظاهراً ، ثم كفروا
سراً فأغفلت قلوبهم ، فهم لا يفقهون صواباً من خطأً وحقاً من باطل
فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإذا خاطبوك تعجبك أقوالهم ؛ ولكنهم
يقولون بالسنتهم ما ليس بقلوبهم ، فهم أعداء كاذبون : قاتلهم الله أنى يؤفكون

وفي ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْتَهُمُ اللَّهُ أَتَى يَوْمُكَونَ ﴾

المنافقون

معاهدة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما رأت اليهود أن قدم الإسلام قد رسخت في المدينة ، هاجتهم العداوة والبغضاء ، فتمحزبوا على المسلمين ، فعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أولئك اليهود عقداً مقتضاه ترك الحرب والأذى ، فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ، ولا يعينون عليه أحداً ، وإن دهمه عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم

الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين

ومشروعية القتال

مكث الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة من بعثته إلى هجرته يدعو الناس إلى الإسلام باللين والعرف ، مبشراً ونذيراً ، وصابراً على الأذى ، متوكلاً على الله كما قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تَطْعَمِ السَّكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ الأحزاب

ولما اشتد طغيان أهل مكة تأمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، وبدأوا بالعداء والغدر ، وأصروا على العناد ، فأمره الله بالقتال لمنع الاعتداء ، وحماية الدعوة ممن يصد الناس عن الدخول في الإسلام ، أو يفتنهم ، أو يعذبهم إذا دخلوا فيه ، لقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ البقرة

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾
التوبة

نقام يغزو ويجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الدين ، وهداية الناس إلى الطريق القويم ، لا طمعاً في ملك ، ولا حباً في رئاسة أو مال ، ولا عَرَض من أعراض الدنيا ، وصار الجهاد عاماً

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ »

غزواته صلى الله عليه وسلم

وغزا بنفسه سبعةً وعشرين غزوة ، لم يبدأ فيها أحداً بالعداء ؛ بل كان لا يقاثلهم إلا بعد الانذار والتبشير فتبدو منهم الغلظة والجفاء وحمية الجاهلية ، ولذا أيداه الله بالنصر ، ونال منهم ما لم ينل أحد ، مع قلة العدد والعدد ، وكثرة الأعداء وقوتهم ، وهزمهم في عدة مواقع

وأهم الغزوات (تلك الغزوة التي فُتِحَ فيها مكة) وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة ، ودخلها فائزاً ، فخاف أهلها أن ينتقم منهم بسبب إيذائهم

وَحُرُوبِهِمْ لَهُ وَأَصْحَابَهُ ؛ وَلَكِنَّهُ عَفَا عَنْهُمْ فَأَمَّنَ بِهِ خَلْقَ كَثِيرٍ ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَصَارُوا لَهُ أَوْلِيَاءَ نَاصِرِينَ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَاءَ مَبْغُضِينَ ، وَبِذَلِكَ قَضَى عَلَى الْوَثْنِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

وَمَا زَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْشُرُ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى عَمَّ بِلَادَ الْعَرَبِ ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْقَبَائِلُ كُلُّهَا ، وَأُرْسِلَتْ إِلَيْهِ وَفُودًا تَقْدِمُ الطَّاعَةَ وَالْخُضُوعَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَأَ الْإِسْلَامُ قُلُوبَهُمْ ، وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ

فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقَابِلُهُمْ بِالْبَشَاشَةِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَ الدِّينِ وَيُبَيِّثُ فِيهِمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ تَأْيِيدًا لِقَوْلِهِ :

« إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »

دَعْوَتُهُ الْمُلُوكَ إِلَى الْإِسْلَامِ

لَمْ يَقْتَصِرِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جِهَادِهِ ، وَانْتِشَارِ دِينِهِ ؛ بَلْ أُرْسِلَ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ الْجَاوِرِينَ لِبِلَادِ الْعَرَبِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الدِّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَحَسَّنَ حَالَهُ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ رَدَّ رَدًّا حَسَنًا ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفُضَ ، فَحَارَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَانْتَقَصَرُ عَلَيْهِ

وَهَاكَ صُورَةُ الْكِتَابِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ :

١ — بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ

سلام على من اتبع الهدى'. أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام
أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط
﴿يَسْأَلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية

٢ — وكتب مثله إلى قيصر عظيم الروم

٣ — أما الكتاب الذى وجهه إلى كسرى ملك الفرس فهك صورته :
بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس)
سلام على من اتبع الهدى' ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ،
فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على
الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس
فما وصله الكتاب مرقه استكباراً ؛ ولما بلغه عليه السلام ذلك قال :
(مَرَّقَ اللَّهُ مَلَكَه كُلَّ تَمَزِيقٍ) وقد فعل ، فكانت مملكته أقرب للمالك
سقوطاً وانحطاطاً

٤ — أما الكتاب الذى وجهه إلى النجاشى ملك الحبشة فهك صورته :
بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة)
أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس
السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها

إلى مريم البتول ، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني وتوثق بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى

فلما وصله الكتاب أحترمه غاية الاحترام ، وقال لحامله : (عمرو بن أمية) إني أعلم والله أن عيسى بشر به ؛ ولكن أعوانى بالحبشة قليل عددهم ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان ، وألين القلوب

حجة الوداع

فى السنة العاشرة من الهجرة حيث انتشر الإسلام ، واتسعت دائرته وعلت كلمته ، وأمنت بالجهات ، خرج الرسول فى يوم السبت لمخس بقين من ذى الحجة فى جموع كثيرة لأداء فريضة الحج ، فدخل مكة وأدّى نسكه ثم خطب يوم النحر (يوم العيد الأكبر) بمضى خطبته التى بين فيها الدين ، وأوضح معالمه ، وأكثر فيها من قوله : ألا هل بلغت ؟ ليلغ الشاهد منكم الغائب اللهم اشهد ، ثم ودع فيها الناس ، فلذلك سميت تلك الحجة (بحجة الوداع) ثم عاد عليه السلام إلى المدينة

نزول ختام القرآن الكريم

وقد نزل ختام القرآن يوم عرفة ، في تلك الحجة ، وهو قوله تعالى :
﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة
وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام ، وأتم رسالته على أكمل وجه ،
ثم عاد إلى المدينة
فلا غرابة أن اتخذها المسلمون عيداً ، ويوماً سعيداً ، يظهرون فيه شكراً
لله على هذه النعمة الكبرى

مرض الرسول عليه الصلاة والسلام

في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة
بعد أن عاد الرسول من الحج إلى المدينة مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد
عليه المرض استأذن نساءه أن يُمرض في بيت إحداهن ، فأذن له بيوت
عائشة الصديقة رضي الله عنها

ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال : مُروا أبا بكر فليصل بالناس ؛
ثم خرج عليه السلام متوكئاً على عليّ والفضل ، وتقدم العباس أمامهم ،
والنبي عليه الصلاة والسلام معصوب يخط برجليه حتى جلس في أسفل

مرقاة المنبر، فسار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس ، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي
 فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا وإني لاحق بربي ، ألا وإنكم لا حقون بي
 فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن
 الله تعالى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر

وإن الأمور تجري بإذن الله ، إلى أن قال : وأوصيكم بالأنصار خيراً .
 فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم إلى آخر خطبته »

وفاته صلى الله عليه وسلم

في السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبي غزو الروم ، فجهز جيشاً
 كبيراً ، وأمر عليه (أسامة بن زيد) وفي أثناء الاستعداد طرأ المرض الذي
 توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم تتم تلك الغزوة في حياته ، وأتمها
 بعد وفاته (أبو بكر الصديق) خليفته ، فإنه عليه الصلاة والسلام بقى مريضاً
 حتى فارق الدنيا فاختره موله ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وذلك في يوم
 الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من تلك السنة (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م)
 المتممة له ثلاثاً وستين سنة ، ودفن حيث قبض في حجرة عائشة

بالمدينة المنورة ، ومدفنه هناك يسمى (بالحرم المدني) والحجرة التي بها قبره تسمى (بالروضة النبوية الشريفة) ولا يزال قبره الشريف موضع احترام المسلمين وتعظيمهم ، يزوره الحجاج في كل عام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

وبوفاته حزنّت النفوس حزناً شديداً على فراقه ، فاللهم آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ، وأبعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد .

وقد نعاه إلى أصحابه أبو بكر رضى الله عنه وقال لهم وهم مجتمعون ، وقد استولت عليهم الدهشة وتملكهم الحزن والأسى :

« أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ الزمر

ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى

الأمانة كما أمر ، وعمره عليه السلام ٦٣ سنة قرية وثلاثة أيام ، وترك المسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم حميد ، وترك أصحابه الكرام البررة يوضحون الدين ، ويقومون بفتح البلاد ، ويظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم .

زوجاته عليه الصلاة والسلام

المشهورات من نسائه إحدى عشرة امرأة (متفق عليهن) وهن :

- ١ خديجة - ٢ عائشة - ٣ سودة - ٤ زينب بنت جحش - ٥ هند
- وهي أم سلمة - ٦ حفصة - ٧ رمة وهي أم حبيبة - ٨ جويرية - ٩ صفية -
- ١٠ ميمونة - ١١ زينب بنت خزيمة أم المساكين .

وتوفي رسول الله عليه الصلاة والسلام عن تسع زوجات وقد نظمن بعضهم فقال :

« توفي رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المسكرات وتنسب »
 « فعائشة ، ميمونة ، وصفية وحفصة ، تتلوهن هند ، وزينب »
 « جويرية ، مع رمة ، ثم سودة ثلاث وست نظمن مهذب »
 وماتت في حياته خديجة وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما .

وكلهن أمهات المؤمنين ، فاضلات طيبات ، طاهرات صالحات ،

وأفضلهن عائشة بنت أبي بكر الصديق ، التي لم يتزوج بكرًا غيرها ، وتوفى عنها وعمرها ١٨ سنة ، وعاشت بعده ٤٠ سنة

سراريه عليه الصلاة والسلام

أما سراريه فثلاث : مارية القبطية - ريحانة - جميلة

أولاده عليه الصلاة والسلام

أولاده سبعة : ثلاثة ذكور ، وأربع إناث ، منظومة في قول

بعضهم :

« قاسمُ إبراهيمُ عبد الله هم الذكور للنبي الأواه »

« ثم الإناث زينب فاطمة فأم كلثوم كذا رقية »

وكلهم من خديجة ، إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية ، وتوفى في السنة

العاشرة من الهجرة

وأما القاسم ، وعبد الله ، فإنهما ماتا قبل البعثة

أما الإناث فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن ، ولم يعيش منهن بعد وفاته

عليه الصلاة والسلام إلا فاطمة الزهراء فإنها ماتت بعده بستة أشهر وقيل

بشهرين ونصف

معجزاته عليه الصلاة والسلام

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد نبي أو رسول برهاناً على صدق دعواه ، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم من يوم ولادته إلى مبعثه كانت أحواله وأقواله وأفعاله كلها كرامات تجل عن الحصر ؛ ومن مبعثه إلى وفاته كلها معجزات باهرات ، وآيات بينات ، دالة على أنه رسول الله حقاً وصدقاً

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى قسمين : معجزة علمية عقلية ، ومعجزات كونية

المعجزة العلمية الكبرى الخالدة التي فاقَت كل المعجزات

تلك المعجزة هي (القرآن الكريم) وهو كتاب الله الحكيم وآيته الكبرى ، وهدايته العظمى ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم ، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ؛ ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ؛ فإنه والحق يقال - رغم أنف المعاندين والمكابرين (معجزة كبرى فاقَت كل المعجزات) لبلاغته التي أعجزت الفصحاء ، وأفحمت الخصماء ، مع أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام كان أمياً لم يقرأ سقراً ولم يكتب سقراً ، ولم يختلف إلى معلم ، ولم يعكف على درس

وهذا القرآن الكريم ، هو كلام الله المكتوب في المصاحف ، المحفوظ في صدور الملايين من المسلمين ، من يوم نزوله على النبي العظيم إلى يومنا هذا ، وهو مشتمل على أخبار الأنبياء الماضين مع أممهم ، وعلى القوانين العادلة الموافقة لمصالح العالم ، وعلى الحكم والأمثال ، والأخلاق والآداب التي تحشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحض على الاتحاد والائتلاف وحسن المعاملة ، وصلة الأرحام ؛ وعلى الإخبار بمغيبات حصلت .

كل ذلك بألفاظ عذبة سهلة ، وعبارات هي غاية في الفصاحة والبلاغة ، وأساليب عجز عن مجادلتها البلغاء ، وكبار الكتّاب

هذا وقد ابتدأ نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، وتم نزوله في اليوم التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والسنة الثالثة والستين من ميلاده عليه الصلاة والسلام فالمدة بين مبدأ نزوله وختامه اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً كما جاء في كتاب هداية القرآن لحضرة الأستاذ المرحوم الشيخ حسين سامي من علماء الأزهر الشريف

والليلة التي أنزل فيها القرآن هي ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر

ولا نزاع في أن هذه الليلة كانت في شهر رمضان لقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة

وأما يوم الختام فهو يوم الجمعة ، يوم عرفة ، من العام الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وكانت آية الختام قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة

ولم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه ، ولم يمش عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة

وإليكم بعض الآيات التي جاءت في نزول القرآن على محمد صلى الله عليه

وسلم ، ليكون في ذكرها دليل قاطع على أن القرآن من كلام الله وليس من كلام البشر ، قال الله تعالى في كتابه العزيز :

١ — ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا ﴾ الكهف

يقول الله تعالى ذكره : الحمد لله الذي خص برسالة محمدًا وانتخبه لإبلاغها عنه ، فبعثه إلى خلقه نبيًا مرسلًا ، وأنزل عليه كتابه ، كتابًا قيمًا معتدلاً

مستقيماً لا اعوجاج ولا اختلاف فيه

٢ — ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء

يقول الله تعالى ذكره : وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين (جبريل) عليك يا محمد ، حتى وعيته بقلبك لتكون من رسل الله الذين يندرون من أرسلوا إليه من قومهم ، فتنذر بهذا القرآن قومك المكذبين بآيات الله ، وقد أنزله الله بلسان عربي مبين ليعين لمن سمعه أنه عربي ، وأنه بلسان العرب أنزل

٣ — ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

آل عمران

يقول الله تعالى ذكره : يا محمد إن ربك ، ورب عيسى ، ورب كل شيء هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب (القرآن) بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، وفيما خالفك فيه مجاحوك من نصارى أهل نجران ، وسائر أهل الشرك غيرهم ، مصدقاً هذا القرآن لما كان قبله من كتب الله الذي أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومحققاً ما جاءت به رسل الله من عنده ، لأن منزل جميع ذلك واحد ، فلا يكون فيه اختلاف ، ولو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير

وأُنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، من قبل الكتاب
الذى نزل عليه ، بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق
رسوله ، ومفيداً يا محمد أنك نبي ورسولي

وأُنزل الفرقان (أى الفارق والفاصل بين الحق والباطل) فيما اختلفت
فيه الأحزاب وأهل الملل فى أمر عيسى وغيره

والخلاصة : أنه نزل الفرقان ، وهو القرآن على محمد ، وفرق به بين الحق
والباطل ، فأحل فيه حلاله ، وحرّم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدّد
فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ونهى
عن معصيته

٤ — ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لَتَنْفِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد هذا القرآن
كتاب أنزله الله إليك ، فلا يَصِقْ صدرك من الإنذار به من أرسلتك
لإنذاره به ، وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه ، ولا تشك فى أنه من عندى
واصبر بالمضى لأمر الله تعالى ، واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء
أثقال النبوة ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، فإن الله معك
وهذا الكتاب ذكرى للمؤمنين ، أى لتذكرك به المؤمنين

وقد قام المعاندون وعارضوا فيه ، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فمجزوا ورجعوا بالخيمية والفشل كما مر ذكره
وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله متعجباً من الكفار الذين شاهدوا هذه المعجزة ، ولم يعترفوا بها ولم يزدادوا إلا ضلالاً :

« عجباً للكفار زادوا ضلالاً بالذى فيه للعقول اهتداء »
« والذي يسألون منه كتاب منزل قد أتاها وارتقاء »
« أو لم يكفهم من الله ذكر فيه للناس رحمة وشفاء »
ثم وصف القرآن بقوله :

« أعجز الإنس آية منه والجن فهل أتأتى بها البُلغاء ؟ »
« كل يوم تهدي إلى سامعيه معجزات من لفظه القراء »
« تتحلى به السامع والأفواه فهو الخُلِّي والحلواء »

الشرح : أى عجباً لبقاء الكفار على كفرهم ، مع مشاهدة معجزاته صلى الله عليه وسلم ؛ بل من ازدياد كفرهم مع مشاهدتهم من الآيات والمعجزات ما يرشد العقول إلى الحق ، لولا المعاندة والمكابرة . وأخذ يوبخهم بما حكاه عنهم ، حتى إنهم سألوه أن يرقى في السماء ، ويأتيهم بكتاب منزل عليه ، ولم يكفهم ما أنزل عليه من الكتاب العزيز الذى هو رحمة للمذنبين وشفاء للمؤمنين (قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء) فصلت ووصف لهم هذا الكتاب بأنه أعجز الإنس والجن على أن يأتوا بسورة

من مثله ، وأنه في كل وقت تهـدى القراء إلى سامعيه معجزات من لفظه
لعذوبته وانسجامه وجزالته وغاية إيجازه مع غاية فصاحته وبلاغته ، وأنه
جدير بأن تزدان به المسامع ، ويحلو مذاقه في الأفواه

ثم أخذ يشرح لهم ما في هذا الكتاب العزيز من العلوم والمعارف قائلاً :
« كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء »
« فهي كالحب والنوى أعجب الزُّ راع منه سنابلٌ وزكاء »
« فاطالوا فيه التردد والريـِّ ب فقالوا: سحر وقالوا: افتراء »
« وإذا البينات لم تغن شيئاً فالتمس الهدى بهن عناء »
« وإذا ضلّت العقول على عدِّ م فـإذا تقوله النصحاء »

الشرح : أى أن آيات القرآن الكريم أوضحت من العلوم والمعارف
مالاً يُحدِّ بحروف قليلة بالنسبة لها ، وهى حروف الهجاء ، ولا غرابة فإن المنتهى
قد يحصل منه ما لا ينتهى ، ألا ترى أن الحب الذى يلقى الزرع فى الأرض
قد ينشأ عنه من السنابل والحبوب ما لا يسكاد يحصى ، والنوى الذى يلقى
الغراس فى الأرض قد ينشأ عنه من التمر كذلك

ومع ذلك فإن الكفار أطالوا فيه (أى فى القرآن) التردد والريب
فقالوا : سحر كما حكاه الله عنهم ، وقالوا : افتراء ، وقالوا : أساطير الأولين ،
فكذبهم الله بقوله :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ البروج
 وقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
 حَكِيمٍ مَحِيدٍ ﴾ فصلت

وإذا كانت هذه الحجج القطعية البرهان ، الواضحة البيان ، لم تهدهم
 إلى سواء السبيل ، فالتماس الهدى بهن تعب وعناء ، وإذا ضلت العقول عن
 طريق الحق مع العلم بها فأى قول تقوله النصحاء ؟ قال تعالى :

﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس
 ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ
 وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية

هذه المعجزة العلمية الكبرى فاقت معجزات الرسل قبله . وذلك أن
 المعجزات التي أيد الله بها الرسل السابقين كانت كلها حوادث كونية تنتهي
 بوقوعها أو بموت الرسول المؤيد بها

كانفلاق البحر لموسى ، وقلب العصاة حية تسعى ، وإبراء عيسى بعض
 الأمراض التي استعصى على الطب علاجها

أما معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (وهى القرآن الكريم)
 فبذلك هى المعجزة العلمية الباقية بدوام الدهر ، المنقولة بالتواتر ، المحفوظة من
 التحريف والتبديل ، لقول الله تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر
ولا يزال كتاب الله ناطقاً بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ،
ودليلاً ناهضاً على بقاء شريعته ، وأنها آخر الشرائع ، وأنها ناسخة لكل
شريعة قبلها

وفي ذلك يقول البوصيرى رحمه الله فى قصيدة البردة :

« آياتُ حقٍ مِنَ الرحمنُ محدثةٌ قديمةٌ صفةُ الموصوفِ بالقدمِ »
« لم تقترنْ بزمانٍ وهى تحبّرنا عن المعادِ وعن عادٍ وعن إرمِ »
« دامت لدينا فقاقت كل معجزةٍ من النبیینِ إذ جاءت ولم تدُمِ »

المعجزات الكونية

المعجزات الكونية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً ، نذكر
بعضها وهى :

١ — انشقاق القمر حين طلبت قريش منه ذلك فنزل قوله تعالى :

﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ﴾ القمر

كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود قال : انشق القمر على
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اشهدوا . وقال بعضهم : وفي انشقاق القمر له مناسبة لشق قلبه حين شقه الملكان ، وفي ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« أقسمت بالقمر المنشق إن له من قلبه نسبة مبرورة القسم »
ومعنى البيت : أقسمت برب القمر يمينا مبرورة إن للقمر المنشق شبهاً بقلبه صلى الله عليه وسلم في انشقاق كل منهما مرتين ؛ ووجه الشبه بين الانشاقين جريهما على خلاف العادة في الانشقاق والالتئام من غير تأثير ولا اختلاف

٢ — احتباس الشمس ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر قريشاً بقدوم غيرهم من الشام في يوم من الأيام فولى النهار ولم تجيء فدعا فزيد له فيه ساعة وجبست عليه الشمس

ومن ذلك ما روت أسماء بنت عميس أنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه ورأسه في حجر عليّ وفوت على صلاة العصر لمراعاته ؛ فلما أفاق صلى الله عليه وسلم قال :

« اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك ، فاردد عليه الشمس »
قالت أسماء : فرأيتهما غربت ، ثم رأيتهما طلعت بعد ما غربت ، ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر

٣ — نسيج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فم الغار لما دخله هو

وأبو بكر استقاراً عن أعين المشركين يوم الهجرة النبوية كما تقدم ذكرها
وفي ذلك يقول البوصيري :

« وما حوى الغار من خير ومن كرم وكُلَّ طرف من الكفار عنه عَمَى »
« فالصدق في الغار والصدق لم يَرَمَا وهم يقولون ما بالغار من أَرَم »
والمنعنى : أنه لما دخل صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر في الغار هرباً
من الكفار ، فطلبوهما حتى وقفوا على فم الغار ، فأعماهم الله تعالى عنهما
ببركة النبي صلى الله عليه وسلم

وأما لم يبرحا الغار والكفار لا ينظرونهما ويقولون ليس أحد في الغار
« ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم »
ولما رأى الكفار أن الحمام حام حول الغار ، والعنكبوت نسجت
خيوطها عليه في ساعة واحدة ظنوا أن خير البرية وصاحبه ليسا في الغار
لظنهم استبعاد حوم الحمام حول الغار ، ونسج العنكبوت عليه في وقت
لا يتسع لذلك

« وقايةُ الله أغفَت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأطم »
وقد حفظهما الله من العدو بهذا الغار ، لما فيه من الكفاية والاستغناء
عن الدروع الكثيرة ، وعن الحصون العالية كل ذلك ببركته صلى الله
عليه وسلم

٤ - إراء الرضى وذوى العاهات بمجرد اللبس والنفث وفى ذلك

يقول البوصيرى :

« كم أبرأت وصباً باللس راحته وأطلقت أرباً من ربة الدم »
 أى أنه صلى الله عليه وسلم ما مسح براحته الشريفة على مريض
 إلا عوفى ، ولا على من علق به داء إلا خلصه الله تعالى منه
 فمن الأول ماروى : أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عيني على كرم الله
 وجهه يوم خيبر وبه رمد شديد فبرأ من حينه ، وأنه مسح على عين قتادة
 بعد ما عميت فردها الله تعالى عليه ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً ،
 وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى

ومنها أنه عليه الصلاة والسلام أمرها على عيون رُمد بقوى أبصارها حتى
 أصبحت ترى ما لم تره (الزرقاء) التى كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام وفى
 ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وأزالت يلمسها كل داء أكبرته أطبّة وإساء »

« وعيون مرّت بها وهى رُمد فأرتها ما لم تر الزرقاء »

« وأعادت على قتادة عيناً فهى حتى مماته النجلاء »

ومن الثانى ما روى : أن امرأة أتت بصبي لها به عاهة فمسح على رأسه

فشفاه الله تعالى

وما روى : أن رجلاً سقط من علو فانكسرت رجله فمسحها صلى الله عليه وسلم فساكنه لم يشك قط

وهكذا من خوارق العادات التي جرت على يديه صلى الله عليه وسلم عندما طلبت منه ، وقد نقلت بالتواتر والأخبار الصحيحة التي جاء بها الشهود العدول

فلما وجد القوم أنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بما طلب منه من تلك المعجزات ، وخلاف النواميس الطبيعية الكونية التي لا يقدر على خرقها إلا الله تعالى ، أيقنوا بتصديق الله له بإجرائها على يديه عند طلبها منه ، فآمنوا به وصدقوه ، واعتقدوا بعظمته ورسالته صلى الله عليه وسلم

أما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فهي كثيرة جداً ولها كتب خاصة بها في فن الحديث فليرجع إليها طلاب الحديث وطلاب العلم والأدب والدين

شمائله

عليه الصلاة والسلام

١ — كرم خلقه — كان صلى الله عليه وسلم على أكمل الأخلاق الكريمة وأتمها ، ولذا وصفه الله تعالى بذلك فقال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

آل عمران

وقال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » ولا يتمها

إلا من كان كاملاً فيها . ولقد فاق جميع الأنبياء في الخلقة والسجية ولم يقار به في العلم ، ولا في الكرم ، وفي ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« فاق النبيين في خلق وفي خلق ولا يُدانوه في علم ولا كرم »

« وكلُّهم من رسول الله ملتمس غرّاً من البحر أو رشفاً من الدّيم »

٢ — أمانته وصدقه : عُرف صلى الله عليه وسلم منذ نشأ بالأمانة

والصدق ، وهما من أخص صفات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، فلم يقع منه في ذلك هفوة ، ولم تحفظ عنه زلة ، حتى اشتهر في قومه وهو في ريعان

شبابه (بالأمين) وكانوا يودعونهم ودائعهم ، ويستحفظونه أماناتهم
ولما اختلف قریش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود حكموا
أول داخل وذلك قبل النبوة

فقالوا : هذا محمد (هذا الأمين) قد رضيناه حكماً
وقد لقي رجل أبا جهل (وهو من أعداء الرسول) بعد رسالته
فقال له الرجل : يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا فخيرني
عن محمد صادق أم كاذب ؟

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط
ومع ذلك لم يؤمن به أبو جهل عناداً واستكباراً ، ومات مشركاً في
غزوة بدر

وسأل (هرقل ملك الروم) عنه أبا سفيان قبل أن يسلم ؛ فقال :
هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا
وقال (النضر بن الحارث) لقریش المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم :
قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ؛ وأعظمكم
أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ؟
قالوا : لا والله ، ما هو ساحر

فهذه شهادة ثلاثة من أعظم قریش ، اتفقوا على صدقه وأمانته ، ولم

يكونوا مؤمنين به وقت هذه الشهادة كبراً وأتقاً ، والفضل ماشهدت به الأعداء

٣ - تواضعه - كان عليه الصلاة والسلام أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم

من كبر ، يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويتفقد أحوالهم ، ويجلس بين

أصحابه مختلطاً بهم حينما انتهى به المجلس

روى أنه خرج على أصحابه يوماً فقاموا له ، فقال لهم : لا تقوموا كما

يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبد آكل كل كاياكل العبد ،

وأجلس كما يجلس العبد ، وكان يقضى حاجات بيته بنفسه ويحملها بيده

الشريفة إلى أهله ويقول : صاحب الشيء أحق بحمله

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : هَوِّنْ عليك

فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (اللحم

المجفف)

٤ وقاره - كان صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه ، لا يتكلم في

غير حاجة ، ويعرض عن يتكلم بغير جميل ، وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه

قصداً ، لافضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له

واقتراء به ، مجلسه مجلس علم وحياء ، وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ،

ولا تنتهك فيه الحرمات

وكان إذا عطس يضع يده أو ثوبه على فمه ، وخفض صوته وحمد

ربه ، ماتئاب قط ، ويكر التثاؤب من غيره

٥ - جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أوسع الخلق صدراً ، وأطيبهم نفساً ، وكان على الهم ، واسع الجود والكرم ، يعين على النوائب ، ويحيب سؤال السائل ، ويكسب المعدوم ، ولا يدخر شيئاً من يومه لغده ، وكان يحود بكل موجود ، ولذلك لما توفي كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله ، مع أنه قد ملك جزيرة العرب ، وحاز ملساً كبيراً ، ولكنه لم يقن ديناراً ولا درهماً ، لزهده ، وعفته ، وقناعته

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل إلا الطعام الغليظ ، ولا يلبس إلا الخشن من الثياب ، ومع ذلك يعطى الجزيل ، ويتجرع مرارة الصبر على الجوع

وقد وصفه الإمام على كرم الله وجهه فقال :

كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجةً ، وأوفاهم ذمةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عشرةً ، من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه

وما يؤثر عنه : أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم

قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وابتغاء مرضاته تعالى ؛ فإنه كان يبذل المال تارةً لفقير أو محتاج ، وتارةً ينفقه في سبيل الله تعالى وطوراً يتألف به على الإسلام حتى يقوى الإسلام بإسلامه

وكان يؤثر غيره على نفسه وأولاده ، فيعطى عطاءً تعجز عنه الملوك ، مثل (كسرى) و (قيصر) ويعيش في نفسه عيشة الفقراء ، فيأتى عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع ، ليتأسى الفقير به من غير ما سلطان لجوع

٦ - حسن معاشرته : كان صلى الله عليه وسلم كريم العشرة ، رءوفاً رحيماً بأصحابه ، وبهذا وصفه الله تعالى في كتابه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

وكان يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، قد وسع الناس خلقه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء

ماقهر خادماً ، وماضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله قال أنس رضي الله عنه : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعتيه لم صنعتيه ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟

فكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائه ، ماضرب منهم
أحداً قط

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية ، لولا التأييدات الربانية ، والعناية
الالهية

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
خلا فى بيته ألبن الناس ، بساماً ضحوكاً

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، فقد أردف بعض نسائه ، وأردف
معاذ بن جبل وأردف أسامة بن زيد

وقد روى : أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح
شاة ، فقال رجل : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال آخر : صلى الله عليه وسلم ، وقال
آخر : صلى الله عليه وسلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وسلم

فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال علمت أنكم تكفوننى ؛
ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن
يكون متميزاً بين أصحابه

وقد جاء وفد النجاشى فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال أصحابه :
نكفيك يا رسول الله . قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم

ودخل الحسن والنبي صلى الله عليه وسلم يصلى فركب الحسن ظهره وهو ساجد فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن ؛ فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ، قال : إن ابني ارتحلنى ففكرت أن أمجله

٧ — حسن سياسته — كان ذا سياسية شريفة ، ومعارف منيفة ، ونظر

ثاقب ، ورأى صائب ، وظن صادق ، وحَدَسٍ موافق ، وفضائل مشكورة ، وأخلاق محمودة ، دينه الإيمان ، وخلقه القرآن ، يقبل معذرة من يعتذر إليه ويطلب التوبة على يديه

وإليك دليلاً قاطعاً قصة كعب بن زهير وهى :

غضب كعب بن زهير على بُجَيْر أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكتب إليه يلومه ، فأعلم بُجَيْر المصطفى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ كَعْبَ بْنِ زُهَيْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ . فكتب بُجَيْر إليه يخبره بأن المصطفى أهدر دمه ، فإن كان لك فى نفسك حاجة فسر إليه فإنه يقبل من جاء تائباً ، ولا يطالبه بما عمله قبل الإسلام

فلما بلغ الكتاب كعباً فرَّ إلى قبيلة لتجيره ، فأبت عليه ذلك ، فأشفق على نفسه ، وأرجف به أعداؤه ، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأتى به إلى المسجد وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه واستأمنه ، فسمع كلامه وقام إليه حتى جلس بين يديه ، فوضع يده فى يده قائلاً : يا رسول الله إن (كعب بن زهير)

قد جاء يستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتُك به ؟
قال : نعم . قال : أنا يارسول الله (كعب بن زهير)

فقال عليه الصلاة والسلام : الذي يقول مايقول ؟ ووثب إليه رجل من
الأنصار فقال : يارسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه
فقال له الرسول : دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً

ثم أخذ (كعب بن زهير) في إنشاد قصيدته المشهورة «بانت سعاد» يمدح
فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويذكر خوفه ، وإرجاف الوشاة به قائلاً :
« إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول »
إلى أن قال :

« أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول »
« لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنّب وإن كثرت في الأقاويل »
فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم برده الشريفة عليه وعفا عنه
وكان صلى الله عليه وسلم يباسط أصحابه
وكان رجل يسمى (زهيراً) يهادي النبي صلى الله عليه وسلم بموجود
البادية بما يستطرف منها

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهاديه ، ويكافئه بموجود الحاضرة وبما
يستطرف منها

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : زهير باديقتنا ، ونحن حاضرته

ولقد جاء إلى السوق يوماً فوجد زهيراً قائماً من قبل ظهره فضمه بيده إلى صدره ، فأحس زهيراً أنه الرسول ، فجعل يمسح ظهره في صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : مَنْ يشتري العبد ؟ فقال زهير : إذا تجددني كاسداً

فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : أنت عند الله غال وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ، ولا يقول إلّا حقاً : فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بَلَه فقال : يا رسول الله احملني فقال : أحملك على ابن الناقة

فقال : ما عسى يقنى عني ابن الناقة ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويحك وهل يلد الجمل إلا الناقة ؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلني الجنة

فقال : يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز . فوَلَّتْ تبكي فقال ، أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ الواقعة وصفوة القول : أنه كان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس ودأ ، وأحسنهم وفاء وعهداً ، وأكثرهم تواضعاً ، وأجزلهم عفة وصيانةً ، وأصدقهم لهجةً ، وأغزرهم فضلاً وإحساناً

٨ — شجاعته — أما الشجاعة والنجدة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم
منهما بالمكان الأعلى الذي لا يجهل ، حضر المواقف الصعبة ، وفتر السكاة
والأبطال عنه ، وهو ثابت لم يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح
قال على رضى الله عنه : ما هو إلا شجاعة ونجدة ، إنّا كنا إذا
اشتد البأس ، واحمرت الحدى ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما
يكون أقرب إلى العدو منه

سمع أهل المدينة ذات ليلة صراخاً مزججاً ففرعوا ، وخرجوا ليستطلعوا
الخبر ، فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً من جهة الصوت ، وكان
قد سبقهم إليه على فرس غرى (لاسرج عليه) متقلداً سيفه ، وطمأنهم قائلاً
لهم : لن تراعوا (أى لا تخافوا)

وعرف عليه الصلاة والسلام بأنه فى جميع غزواته كان ثابتاً فى مكانه
وجهاده ، حتى عاد المؤمنون وانتصروا على أعدائهم المشركين

٩ — صبره وثباته وصدق عزمته . قد اتصف صلى الله عليه وسلم
بالصبر ، وشدة الاحتمال ، فكان لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى
إسراف الجاهل إلا حملاً ، لقي فى سبيل الله تعالى الشدائد ، وتعرض للمكاره ،
وهو لا يزداد إلا ثباتاً ومضاء وإقداماً

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« لا تحل البأساء منه عرى الصبر ولا تستخفه السراء »

طلب كفار قریش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يكف عن الدعوة إلى الإسلام ، وهددوه بالقتل ، ونصح له عمه أبو طالب بأن يوافقهم على ما طلبوا ، فلم يقبل

وقال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ولقي صلى الله عليه وسلم من ضروب الإيذاء والإهانة من العرب شيئاً كثيراً كما مرّ ذكره ، ولم يجد عن مبدئه ؛ بل كان صلى الله عليه وسلم مثال الثبات ، وصدق العزيمة

١٠ — شفقتة ورأفته — كان عليه الصلاة والسلام شقيقاً رءوفاً فن أمثال شفقتة : أنه وجد عليه الصلاة والسلام هرة عطشى فأمال لها الإناء حتى شربت

وركبت زوجه السيدة عائشة رضي الله عنها جلاً وصارت تحميه على الإسراع في السير ، فقال لها عليه السلام : عليك بالرفق

ويكفي في ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

١١ — حلمه وغفوه عن أساء إليه . آذاه المشركون يوم أحد ، وشجوا وجهه ، وكسروا رباعيته ، فقال له أصحابه : لودعوت عليهم ؛ فقال : إني لم

أبعث لعمانا ؛ واسكن بعثت داعياً ورحمةً ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون
آذاه المشركون من قریش ، فأخرجوه من دياره وقتلوه ، فلما فتح مكة
عفا عنهم تفضلاً منه ورحمةً ، وما زاد على أن قال لهم : ما تظنون أنى فاعل
بكم ؟ قالوا : خيراً (أخ كريم ، وابن أخ كريم)

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء

وفي ذلك يقول البوصيري رحمه الله :

« جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء »

« وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعمه الإعياء »

ولا شك أن هذا منتهى الحلم ، والعفو عند المقدرة

لقد أراد بعض أعدائه أن يفتك به ، فتصدى له وهو قائل وحده (نائم)

في ظل شجرة وقت الظهر ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والرجل

قائمٌ والسيف مصلت في يده فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله ! فسقط

السيف من يده فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك مني ؟ قال :

كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه

فرجع الرجل إلى قومه فقال لهم : جئتكم من عند خير الناس

١٢ — حسن معاملته — بعث النبي صلى الله عليه وسلم في قوم

متنافرين متباغضين ، كالوحوش الضارية في طباعهم الخسنة ، فاحتمل

جفوتهم ، وصبر على أذاهم ، وقابل إساءتهم بالإحسان إلى أن انقادوا إليه وأجوه أكثر من أنفسهم وأبنائهم ، وهجروا في رضاه أوطانهم ، ولو كان غطاءً غليظ القلب لانفضوا من حوله وتركوه ، كما قال الله تعالى له :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ جَوْلِكَ ﴾ آل عمران
كان صلى الله عليه وسلم يزور أصحابه ، ويعود المرضى منهم ، ولا يرد دعوة من يدعوه ، وما سُئِلَ في شيء قط فمنعه ، ولا يأنف أن يمشى مع الفقير والمساكين ، ويجلس مع المساكين وكان يقول :

« اللهم أحييني مسكيناً وأميتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين »
وعلى الجملة فقد كان صلى الله عليه وسلم مثلاً كاملاً للصفات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، فهو رغم أنف كل معاند قوَّال ، نبي الرحمة ، وبحر الحكمة وإمام الهدى ، وعين الكمال .

أما صفاته الخلقية — فكان صلى الله عليه وسلم حسن الجسم ، معتدل الخلق ، متناسب الأعضاء سمياً سمناً متناسباً ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، عظيم الرأس ، سهل الخدين ، في وجهه طول مع استدارة ، يتلألاً تلاًؤ القمر ليلة التمام ، أبيض مشرباً بحمرة ، وأحسن وأصدق وصف للنبي ما قالته (أم مَعْبِد) العربية في وصفه مع أنها ما كانت تعلم من أمره شيئاً وهو :

كلام أم معبد تصف النبي

صلى الله عليه وسلم

مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ الصَّدِيقُ فِي هِجْرَتِهِمَا بِحِمَّةِ
 أُمِّ مَعْبِدٍ ، فَرَأَى شَاةً أَضْعَفَهَا الْهَزَالُ ، فَاسْتَأْذَنَهَا أَنْ يَحْلِبَهَا فَأَذِنَتْ
 فَسَمَّى اللَّهُ وَدَعَا وَحَلَبَهَا فَدَرَّتْ فَمَلَأَ إِنَاءً وَسَقَاهَا وَسَقَى الصَّدِيقَ ثُمَّ
 شَرِبَ بَعْدَهُمَا ، ثُمَّ مَلَأَ الْإِنَاءَ ثَانِيًا وَأُرْتَحَلَا فَأَقْبَلَ أَبُو مَعْبِدٍ يَسُوقُ
 أَغْزَا عِجَافًا يَتَسَاوَيْنَ هُزَالًا ، فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَا حَلُوبَةٌ
 فِي الْبَيْتِ ؟ فَقَالَتْ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ وَذَكَرَتْ قِصَّتَهُ فَقَالَ : صِفِيهِ ،
 فَقَالَتْ : إِنَّهُ ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الْخَلْقِ ، لَمْ تَعْنِهِ
 ثَجَلَةٌ ^(١) ، وَلَمْ تُزِرْ بِهِ صَعْلَةٌ ^(٢) ، وَسِيمٌ ^(٣) ، قَسِيمٌ ^(٤) ، فِي عَيْنَيْهِ
 دَعَجٌ ^(٥) ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطْفٌ ^(٦) ، وَفِي صَوْتِهِ صَحْلٌ ^(٧) ، وَفِي عُنُقِهِ
 سَطْعٌ ^(٨) ، أَحْوَرٌ ^(٩) أَكْهَلٌ ^(١٠) أَرْجٌ ^(١١) أَقْرَنٌ ^(١٢) ، شَدِيدُ سَوَادِ

- (١) ثَجَلَةٌ : عظم البطن (٢) صَعْلَةٌ : دقة الرأس والعنق (٣) وسيم : حسن
 الوجه (٤) قسيم : معتدل (٥) دعج : سعة سوداء العين (٦) وطف : كثرة
 الشعر (٧) صحل : خشونة (٨) سطم : طول (٩) أحور : شديد بياض
 العين وسوادها (١٠) أكهل : كأن بعينه كهل (١١) أرج : رقيق الحاجب
 (١٢) أقرن : مقرون الحاجبين

الشَّعْرَ ، إِذَا صَمَّتْ عَلَاهُ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ ، أَجْمَلُ
النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَأَخْلَاهُمْ مِنْ قَرِيبٍ ، خُلُوُ الْمَنْطِقِ
فَصْلٌ (١) ، لَا تَزُرُ (٢) وَلَا هَذَرُ (٣) ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نُظْمِنَ
يَتَحَدَّرْنَ رَابِعَةً (٤) ، لَا تَقْصِمُهُ عَيْنٌ (٥) مِنْ قِصَرٍ ، وَلَا تَشْنُوهُ (٦) مِنْ
طُولٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ،
لَهُ رُفَقَاءُ يَحْقُقُونَ بِهِ ، إِذَا قَالَ اسْتَمِعُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى
أَمْرِهِ ، مُحْفُودٌ (٧) مُحْشُودٌ (٨) ، لَا عَابِسٌ (٩) وَلَا مُفْنَدٌ (١٠) . قَالَ أَبُو مَعْبُدٍ:
لَتَتْبِعَنَّهُ ، فَلَحِقًا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُسْلَمًا .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع
مشيةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد
أنفسنا وإنه لغير مكترث ، بل يمشى على هيئة فيقطع من غير جهد ما لا
نقطعه بالجهد .

- (١) فصل : بين بليغ (٢) لا تزر : لا قليل (٣) ولا هذر : لا كثير باطل
(٤) ربيعة : لا طويل ولا قصير (٥) لا تقصمه عين : لا تحتقره ولا تزدريه
(٦) لا تشنؤه : لا تبغضه (٧) محفود : مخدوم بسرعة (٨) محشود : مطاع يخف
الناس لخدمته (٩) لا عابس : غير مقطب الوجه (١٠) لا مفند : لا يفند ، ولا
يكذب رأيه

وقال الشاعر الشهير (حسان بن ثابت) في وصفه صلى الله عليه وسلم :
 « وأحسن منك لم تر قط عيني وأجل منك لم تلد النساء »
 « خلقت مبرا من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء »

وقال البوصيري في وصف محمد صلى الله عليه وسلم :
 « رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وضياء »
 « لا تحل البأساء منه عرى الصبى ر ولا تستخفه السراء »
 « كرمته نفسه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء »

وقال أحد الشعراء حمداً على اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام :
 « يا من يريد نجاته يوم الحساب من الجحيم وموقد النيران »
 « اتبع رسول الله في الأقوال والأعمال لا تخرج عن القرآن »
 « فالرب رب واحد وكتابه حق وفهم الحق منه دان »
 « ورسوله قد أوضح الحق المبين ن بغاية الإيضاح والتبيان »

وقد مدحه أحد الشعراء الأفاضل في قصيدة له فقال :

« نبى قد رأى مولاه جهوراً وحسن سنانه يزرى بالهلال »
 « وتعم للمكارم فهو حقاً كمال فى كمال فى كمال »
 « أنى والجاهلية فى شقاء وجل القوم يرتع فى ضلال »
 « فبدد شملهم وحطى بنصر وأظهر للملا خير الفعّال »

- « وأعطاه المهيمن ما تمنى وأيده بأبطال الرجال »
« فأضحت ملة الإسلام تعلو بقمضيد الصحابة خير آل »
« فـكونوا مثلهم يا قوم تحظوا وتكتسبوا غداً شرف المعالي »
« وتكرار الصلاة على التهامي كذا صاحب ذروا لهم العوالي »
« ووقفنا لما يرضيك ربي وكمل في الختام نجاح حالي »

محاضرة دينية

في خلاصة السيرة المحمدية

للمؤلف ألقاها في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

لما كانت سيرة سيد الأنام، عليه أفضل الصلوات والسلام، أهم ما يُتلى في ليلة مولده، وأعظم درس لتثقيف العقول، وتهذيب النفوس، وأقوى غرس يزرع في قلوب المسلمين، محبة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم رأيت أن أتلو على حضرتكم خلاصة سيرته أمدنا الله بمحبته ووفقنا وإياكم للعمل بسنته.

وها أنذا أشنف الأسماع بفرائد من نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته، وأخبار مولده وتربته، وكيفية معيشته في نفسه وسيرته مع أهله تمهيداً لبيان المقصد الأهم الأعظم وهو نبأ بعثته صلى الله عليه وسلم، مستمداً ذلك من الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة عند المحدثين وما تمس الحاجة إليه مما أثبتته ثقة المؤرخين ليعرف قدر الإصلاح العظيم الذي أرسل به هذا النبي الكريم عليه من ربه أفضل الصلوات والتسليم.

نسبه الشريف الطاهر

أولاً - من جهة أبيه

نبينا العربي الهاشمي القرشي أكرم العرب نسباً وأشرفهم حسباً
هو محمد بن عبد الله . بن عبد المطلب . بن هاشم . بن عبد مناف .
ابن قصي . بن حكيم . بن مُرّة . بن لؤي . بن غالب . بن فهر . بن مالك .
ابن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن إلياس . بن مُضَر .
ابن نِزَار . بن مَعَدّ بن عدنان .

ويتصل نسب عدنان هذا بسيدنا إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليهما
الصلاة والسلام

ثانياً - من جهة أمه

أمّه آمنة بنت وهب . بن عبد مناف . بن زهرة . بن حكيم الذي هو
الجد الخامس للنبي عليه الصلاة والسلام وكانت سيدة قومها .

حمّله ووفاة أبيه ومحل ولادته

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه فوزجة آمنة بنت وهب
وسنه ثمانى عشرة سنة وهى يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً .

فلما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم في أول رجب
وبعد شهرين من حملها توفي أبوه في المدينة عند أخواله بنى النجار وعمره
١٨ سنة وكان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة المنورة وهو
راجع فدفن فيها ، ورأت أمه أثناء حملها به كأن نوراً خرج منها أضاءت له
بُصرى من أرض الشام وقد تمثل هذا النور لعينها حين أخذها المخاض فوضعتة
عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام

ولادته

وُلد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة في ثاني عشر من ربيع الأول
في عام الفيل سنة ٥٧١ ميلادية أى العام الذى حبس الله فيه الفيل عند دخوله
مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد أبرهة قائد جيش النجاشى فدمرهم الله أشنع
تدمير وجعل كيدهم فى تضليل إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام
وقد ذكر الله القصة فى القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۖ فَأَرَأَاحَ قَرِيشًا مِنْ عَنَاءِ مَقَاوِمِهِمْ ۚ

وكانت ولادته فى دار أبى طالب بشعب بنى هاشم وكانت قابله (الشفاء)
أم عبد الرحمن بن عوف

ولما وُلد أرسلت أمه لجدته تبشره فأقبل مسروراً وسَمَّاهُ (مُحَمَّدًا) ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكر في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالنوراة والإنجيل فألهم الله جده أن يسميه بذلك انفاذاً لأمره . وكانت حاضنته (أمّ أيمن بركة) الحبشية أمة أبيه عبد الله وقد دلت الروايات على اتصافه حين الولادة بصفات تليق بمقامه السامي إذ وُلد نظيفاً مدهوناً مكحولاً يعلوه النور والبهاء رافعاً رأسه رامقاً بطرفه إلى السماء وفي ليلته شاهد كثيرون ما يدل على شرفه وعظم قدره من الآيات الباهرات مثل تنكيس الأصنام . وارتجاج الإيوان (اهتزاز القصر الهائل الذي كان لكسرى حتى انشق سقفه وسقط من زينته أجزاء) . وخمود نار فارس (انطفاء النار التي كانت دولة الفرس تعبدها وكان لها ألف عام لم تحمد) . إلى غير ذلك من العجائب والآثار . وقال في حمله وولادته (حسان بن ثابت) الشاعر العظيم :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت	مثل الرسول نبى الأمة الهادى
وقال شاعر مصر شوقى بك :	
وُلد الهادى فالكَائِنات ضياءه	وفم الزمان تبسم وثناء
(الروح) والملاّ الملائك حوله	للدين والدينى به يشركه
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى	والمنتهى والسدره العصماء

وحديقة الفرقان ضاحكة الربأ بالترجمان شذية غفَاء
والوحى يُقطرُ سلسلاً من سلسل واللوحُ والقلمُ البديع رُواء
نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة في اللوح واسم (محمد) طغراء
اسم الجلالة في بديع حروفه اسم هنالك واسم (طه) الباء
وهي قصيدة طويلة تقع في أكثر من مائتي بيت يقال لها الحمزية فمن
أراد أن يقرأها فليطالع عليها في ديوانه المطبوع

رضاعه ومرضعاته وفطامه

لما وُلد عليه الصلاة والسلام أرضعته أمه ثلاثة أيام ثم (ثَوْبَةُ) مولاة
عمه أبى لهب عدة أيام ثم (حليمة السعدية) التي اختارها جده عبدالمطلب مرضعةً
له وهي من قبيلة (هوازن) المشهورة في العرب بالرأفة وكال الشرف فأخذته
ورجعت إلى قومها (بنى سعد) وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع
لمواليدهم في البوادي لأن ذلك أنجب للولد . وكانوا يقولون : أن المربي في المدن
يكون قليل الذهن فاتر العزيمة

أقام صلوات الله عليه وسلامه مع حليمة في بنى سعد إلى أن أتم الرابعة
من عمره فردّته إلى أمه . وكانت مدة إقامته عندها مدة سعد ورضاء
وخصب وهناء

حادثة شق الصدر

وحصل له عليه الصلاة والسلام وهو في بيت حليلة السعدية حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليلة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة :

بينما هو وإخوته في بهم لنا خلف يموتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقاً بطنه فهما يسوطانه (يحركانه بسوط) فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يا بني ؟

فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض . فقال : أحدهما لصاحبه أهو هو قال : نعم . فأقبلا يتدراني فأضجعا فشقاً بطني فالتسا فيه شيئاً فأخذهما وطرحاه ولا أدري ما هو ؟

حضانته وكفالاته ووفاة أمه وجدته

ثم إن أمه أخذته منها وتوجهت إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى ابن النجار وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فانت بالأبواء (قرية بين مكة والمدينة) فحضرته أم أيمن وكفله جدّه عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنًا عظيمًا في المستقبل وكان يكرمه غاية الإكرام .

ثم لما بلغ ثمانى سنين توفى جده عبد المطلب فقام عمه أبو طالب بكفالته واعتنى به اعتناء كبيراً حتى قدمه على أولاده فى كل شيء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له حيث قال فيها :

أوصى أبا طالب بعدى بنى رحم (محمد) وهو فى الناس محمود
فاحذر عليه شرار الناس كلهم والحاسدين فإن الخير محسود
وكان صلى الله عليه وسلم فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن كل
نقص وهو مما تميل إليه الأطفال عادة . ويركته أصبح عمه فى سعة من العيش
بعد أن كان فى ضيق .

رحلته الأولى للشام

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام عزم
عمه أبو طالب على السفر إلى الشام فى تجارة له فتعلق النبى صلى الله عليه وسلم
بعمه فطيب خاطره وأخذه معه فى سفره لشدة حبه له ، وهنالك رآه الراهب
(بحيرى) وبشر به عمه أبا طالب إذ قد رأى فى النبى صلى الله عليه وسلم علامات
يعرفها من الكتب المقدسة التى بين يديه وأوصاه بالعناية به وحذره شديداً
التحذير عليه وقال له : سيكون لهذا الغلام شأن عظيم وسيبعثه الله رحمة
للعالمين .

ولما بلغ سنّه عليه السلام عشرين سنة حضر مع قريش حرب الفجار
فكان يجمع السهام لأعمامه بها ويرمى معهم فكلل الله عملهم بالنصر على
أعدائهم الذين اتهمكوا إذا ذك حرمات البيت المعظم عند جميع العرب .

رحلته الثانية إلى الشام وزواجه من خديجة

ولما بلغ عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام مرة ثانية في
تجارة (لخديجة) بنت خويلد ومعه (ميسرة) غلامها فراهب (نسطوري) وقال :
هذا آخر النبيين ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج .

ثم حضروا سوق بضري وباعوا واشتروا فربحوا ضعف ما كانوا يربحون .
فلما عادوا ورأت (خديجة) ربحها العظيم وعرفت أمانته وصدقه وشاهدت
بعض علامات النبوة وأخبرها غلامها (ميسرة) بكلام الراهب . وبما رآه بنفسه
بعثها ذلك إلى الرغبة في الزواج به ، وهى من أعظم قريش نسباً وحسباً
وأكثرهم مالا وثروة . وكانت أعقل وأكمل امرأة في قريش حتى كانت
تدعى في أيام الجاهلية (بالطاهرة) لما لها من الصيانة والفضائل الظاهرة . فلا غرو
أن رغبت بعد أن علمت ما علمت أن تتخذ (محمداً) صلى الله عليه وسلم بعلّاً لها .
وكم عظيم خطبها وبذل لها الأموال الطائلة فأبت ولكن لما خطبها أبو طالب
لحمد أجابت لما توسمته فيه من الخير والبركة فتزوجها وهى بنت أربعين بعد

(أبى هالة) لمتوفى عنها وعن ولدها (هند) الذى هو ربيب المصطفى ولم يتزوج غيرها حتى توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين . وكان عليه السلام يحبها كثيراً ويذكرها بكل خير ويعطف على أقاربها ويبش في وجوه أصحابها . وهذا هو الوفاء الكامل اللائق بهذا النبي الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم . ورزق منها (بفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم وعبد الله والقاسم) ثم رزقه الله بولد آخر من مارية القبطية يدعى (إبراهيم)

ولما بلغ سنه خمساً وثلاثين سنة وشرعت قريش في بناء الكعبة كان عليه الصلاة والسلام ينقل الحجارة من الجبل مع أشراف مكة . وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً شديداً كاد أن تكون عاقبته الحرب لولا أن (أبا أمية الخزومي) الذى كان أكبرهم سناً قال : لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضونه فانفقوا على أول داخل من باب بنى شيبه فإذا الداخل (محمد) فاطمأن الجميع له وقالوا : هذا الأمين وكلنا نرضى بقضائه لأنه من حداثة سنه كان مشهوراً بينهم بالأفعال الصالحة والأعمال السديدة من الحلم والصبر والعدل والزهد والحياء والصدق والعفاف والأمانة حتى إنهم لقبوه (بالأمين) من صفته .

فلما أخبروه الخبر بسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال : لتأخذ كل قبيلة من طرف ففعلوا واحتملوه حتى إذا انتهوا إلى موضعه أخذه عليه الصلاة والسلام ووضعه بيده الشريفة في موضعه المعروف

حالة معيشته قبل النبوة

نشأ في حال صغره يتيمًا فقيرًا فكفله جده ثم عمه ولما قوى على العمل اشتغل بحرفة الأنبياء قبله وهو رعاية الغنم لأهل مكة على بعض منها . ثم اشتغل بالتجارة مع عمه . ولما تزوج خديجة عمل في مالها فكانت معيشته كلها من كسب يده ، ولم يكن عالة على غيره بل كان معتمدًا على نفسه ور به فحقق بذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

كيفية الرسالة

لما بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رسولًا إلى الخلق أجمعين ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذلك أنه كان يتعبد في غار حراء (جبل قريب من مكة) على دين إبراهيم عليه السلام .

وبينا هو معتكف فيه يوم الاثنين ١٧ رمضان إذ ظهر له الملك وقال : يا محمد أبشر أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة . ثم قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء (لأنه لم يتعلم القراءة) فضمه ثم قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء . فضمه أيضًا . ثم قال له : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ عَقْبٍ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾

فقرأها . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم على هذا النبي العظيم .
ثم رجع إلى خديجة يرجف فؤاده من الخوف . وقال : زملوني زملوني
(أى لقوني فى ثوب) فزملوه حتى ذهب عنه الخوف . ثم أخبر خديجة بما جرى
وقال : لقد خشيت على نفسى .

فقالت : كلا والله لا يُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل
وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر (الحق) فلا يسلط
الله عليك الشياطين أو الأوهام ولا مرأ أن الله اختارك لهداية قومك .

ثم انطلقت به إلى (ورقة بن نوفل) لأنه كان أعلم العرب إذ ذاك بما فى
الكتب العبرانية فأخبراه الخبر فقال وَرَقَةُ : هذا الناموس (الوحى أى جبريل)
الذى أنزل على موسى ليتنى أكون حياً إذ يُخرجك قومك . فقال النبي :
أَوْخِرْجِيَّ هُم . قال ورقة : نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عُوْدِي
وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (شديداً) .

ثم احتبس عنه الوحى مدة ثم نزل بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبُّكَ فَكَبِّرُ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ
فَاھْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٢﴾ »

معنى هذه السورة : يا أيها المتلف بالثوب قم خوف الناس من عبادة
غير الله وعظمه ونظف ثيابك وارك أسباب القدر والعذاب ولا تعط شيئاً
واصبر على الأذى .

فقام عليه السلام يدعو قريشاً إلى عبادة ربه ويرشدهم إلى النور الذي
جاء به . فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة . وبادروا بتصديقه .

أول من أسلم ودعوة الناس للإسلام سرّاً ثم جهرّاً

وكان أول من سطع نور الإسلام على قلبه خديجة وعلى بن أبي طالب
وزيد بن حارثة وأبو بكر الصديق الذي أخذ يدعو للإسلام من يشق بهم من
قريش فأسلم عثمان بن عفان وابن العوام وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف
وغيرهم من أشرف مكة .

ثم مكث الرسول يدعو للإسلام سرّاً حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .
وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

فجهر بالدعوة ونادى فروع قريش فاجتمعوا إليه فقال :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم

مُصَدِّقِيَّ ؟

قالوا : نعم . ما جر بنا عليك كذباً .

قال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وإني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ؟

فقال أبو لهب : ألهذا جمعنا وهزأ به .

فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَايَ لِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... إلى آخر السورة ﴾ .

تحمله إيذاء قريش وحماية عمه له

ثم أخذت قريش تسخر منه وتؤذيه وتضييق عليه وهو مع قلة رجاله وماله لا يصدده عن الدعوة إلى الإسلام شيء .

وكان عمه أبو طالب يدافع عنه ويحميه من غوائلهم ويميل إلى ما جاء به من الدين ولم يمنعه من إظهار الإسلام إلا الحياء من قومه ولذا قال :

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد من خير أديان البرية دينا

لولا للملامة أو حذاري سُبَّة لوجدتني سمحاً بذلك مبينا

والله إن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

ثم ازداد الحقد والعداء حين أسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب وكانا من أشد المعارضين له فعزز الله بهما الإسلام وحى بهما رسول الله عليه السلام فاغتاظت قريش وصارت تعذب كل من آمن به بأنواع العذاب .

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء الكفار لأصحابه أذن لكل من ليس له عشيرة تحميه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها من هاجر ومنهم سيدنا عثمان وزوجته رقية بنت الرسول

وهذه أول هجرة وقعت في الإسلام بعد الرسالة بخمس سنين وكان ممن هاجر إلى الحبشة أيضاً في المرة الثانية جعفر بن أبي طالب

خروجه إلى الطائف بعد وفاة أبي طالب وخديجة

ولما بلغ خمسين سنة توفي عمه أبو طالب وبعده بقليل توفيت السيدة خديجة فقويت شوكة قريش فاشتد العداء وازداد الإيذاء ومع ذلك كان عليه السلام يلاطفهم ويستميل قلوبهم طمعاً في هدايتهم فلم يزدادوا إلا طغياناً وعناداً فخرج من مكة ومعه غلامه زيد بن حارثة إلى (الطائف) مستنجداً بأهلها لأن له بهم قرابة فعرض عليهم الإسلام وطلب منهم نصرته فلم يوجبوا بل أخرجوه وسلطوا عليه الغلمان والسفهاء يؤذونه ويرمون به بالحجارة حتى آدموا وجهه وشجوا رأسه مع أن زيداً كان يدافع عنه ويقيه بنفسه فلما وصل إلى شجرة هناك قعد يستظل تحتها فرآه (ابناربيعة) على تلك الحالة وهما في بستانهما فرقا له مع أنهما كانا من ألد أعدائه وأرسلا له قطعاً من عنب مع غلام لهما .

فلما شرع يأكل منه قال : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال الغلام : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه الجهة

فقال النبي : من أى البلاد أنت وما دينك ؟

فقال : نصرانى من ينوى (بلد فى حدود العراق)

فقال عليه السلام : قرية الصالح (يونس بن متى) .

فقال الغلام : ومن أعلمك يونس بن متى ؟

فقال النبي : ذاك أخى ونبى قبلى ثم قرأ الآيات التى فى قصة يونس فى الصافات فما سمع الغلام القرآن حتى أسلم .

ثم نزل جبريل وقال : يا محمد . إن الله أمرنى أن أطيعك بما تأمر به فى قومك لما صنعوه معك .

فقال عليه السلام : أرجو أن يا جبريل يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله .

اللهم اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

فقال جبريل : صدق من سمّاك الرؤوف الرحيم .

« من هذا كله تعلم كيف كانت درجة أخلاقه الفاضلة وشمائله الفاتحة

وحرصه على هداية قومه ورحمته بهم وشفقته عليهم مع شدة إيذائهم له وقوة

تحمله الأذى وصبره على المسكاره »

ثم دخل مكة ثانياً وصار يدعو بما أمره به ربه غير مكترث بتهديد قريش

وسمعهم في إبطال مسعاه (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ)

الإسراء والمعراج

ولما بلغ الرسول اثنين وخمسين سنة أسرى به ليلة السابع والعشرين من رجب من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (بيت المقدس) وصلى فيه بالأنبياء وعُرج به (صعد) إلى السموات العلى فرأى ما رأى من آيات ربه الكبرى . وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة

ثم رجع من ليلته وأصبح يخبر قومه بما رأى وشاهد فصدقه بعض قریش وكذبه آخرون فأيده الله بالمعجزات التي طلبوها منه . منها وصفه بيت المقدس على ما كان عليه وصفاً حقيقياً مع أنه لم يره من قبل . ومنها إخباره عن حالة العير (الإبل التي تحمل التجارة) التي كانت لهم بالشام . وعن عدد إبلها . وقال لهم : ستقدم عليكم مع غروب شمس يوم كذا يقدمها جمل أورق (لونه بين البياض والسواد) فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف فلم يزدادوا إلا كفرًا وعنادًا وقالوا : هذا سحر مبين .

لما رأى عليه الصلاة والسلام استمرار قریش على عدم الإجابة لدعوته والاهتداء بهديه وعلى التماذى في إيدائه قام يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم لعل يجد فيهم من يحميه ويعينه على تبليغ أوامر ربه ففهم من نأى

وأعرض . ومنهم من أجاب الدعوة كرؤساء العرب من أهل يثرب (المدينة)
الذين أسلموا وبايعوه على النصرة والاعانة . وذلك عند العقبة بمنى (وهى بيعة
العقبة الأولى) . ثم لما رجعوا الى بلدكم أخبروا قومهم به فصدقوا وآمنوا وشاع
خبر الرسول فيما بينهم ثم بعثوا له بأن يرسل لهم من يعلمهم دينهم فأرسل
(مصعب بن عمير) رضى الله عنه وأمره بأن يعلمهم الدين والقرآن فلم تمض مدة
حتى انتشر الإسلام فى المدينة حتى لم يبق بيت من بيوتهم إلا وللنبي صلى
الله عليه وسلم ذكر فيه

ولما جاء الموسم الثانى وفد منهم كثيرون للحج فاجتمعوا بالرسول وقالوا له
خذ علينا من العهود لنفسك ولربك ما أحببت فإننا على الوفاء والصدق
وبذل المهج دونك

فقال لهم : أشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً . ولنفسى
أن تمنعوني مما تمنعون به نساءكم وأبنائكم متى قدمت عليكم
فبايعوه على ما طلب عند الموضع الأول (وهى بيعة العقبة الثانية)

الهجرة إلى المدينة المنورة

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وخمسين سنة وأخذ الإسلام ينمو فى
بعض القبائل واشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه حتى رأى ما لم يره فى سائر

حياته أمره الله بالهجرة إلى المدينة المنورة التي كان أسلم أغلب أهلها فأذن للمسلمين بالمهاجرة إليها فهاجر خلق كثير منهم سيدنا عمر وأخوه زيد وعمار ابن ياسر وبلال وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان حتى لم يبق بمكة مع الرسول وأهل بيته إلا القليل منهم سيدنا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق فلما أحس كفار قريش بأن الرسول سيهاجر أيضاً تأمروا على قتله قبل أن يهاجر فأطلعه الله على سرهم فانفق مع أبي بكر أن يجهزا للخروج من مكة إلى المدينة

كيفية الخروج من مكة

جهز سيدنا أبو بكر للسفر راحتيه واشترى منه الرسول إحداهما ثم أودعاهما عند رجل استأجراه ليبدل بهما إلى المدينة ووعداه غار ثور (جحر في جبل بينه وبين مكة نحو ميلين) بعد ثلاث ليال . ثم اتفق النبي مع أبي بكر على المقابلة ليلاً خارج مكة . وكانت تلك الليلة موعد تنفيذ قريش ما تأمروا عليه من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاجتمعوا حول البيت الذي بات فيه الرسول . وصاروا يرددون النظر من شقوق الباب حتى إذا نام يدخلون عليه ليقتلوه

فلما أراد الخروج أمر سيدنا علياً بأن ينام مكانه فنام وغطاه ببردته ليخفي

الأمر على القوم . ثم تحصن بالله وخرج عليهم نائراً التراب على رؤسهم فلم يشعر به أحد فقابله أبو بكر في الموعد وسارا حتى دخلا الغار ليلاً وكنا فيه . فلما هم القوم بالقتل دخلوا البيت فوجدوا النائم على بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله فاغتazonوا غيظاً شديداً . واقتفوا الأثر الذي انقطع عند الغار فتحيروا في أمرهم ، ولم يهتدوا حيث أعمى الله بصرهم عن النظر في الغار بنسج العنكبوت وتشيش الحمامتين على فمه ، فرجعوا خائبين وجعلوا مكافأة كبيرة لمن دل عليهما .

ولما جاء الدليل بالراحتين في الميعاد ، ركبا وسارا فلحق بهما (سراقة بن مالك) الذي طمع في أخذ المكافأة من قريش ، وأراد أن يتعرض لهما ففاصت يدا فرسه في الأرض الصماء ، فاستجار بالنبي فأجاره على أن يرجع فرجع . ولكن حدثته نفسه بالمكافأة ، فكرر عليهما ثانياً ففاصت قوائم الفرس الأربع إلى الركبتين ، فطلب منهما الأمان ، وتهد بأن يردّ عنهما جيش العدو ففعا عنه الرسول وأشار إلى الفرس فهضت فركبها ورجع كما جاء .

من هذه القصة تعلم مقدار حماية الله لرسوله ، وخيبة أعدائه ، ومحبة سيدنا على له حيث عرض نفسه لعدائه ، وتعلم مقدار حلم الرسول على قومه وصبره على الأذى وحسن معاملته لطالب الغدر به ، حيث عفا عنه مع قدرته إذ ذاك على الانتقام . وتعلم أيضاً مقدار صداقة أبي بكر وصحبته ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام

الوصول إلى المدينة المنورة

ثم سار النبي وصاحبه في أمان ، حتى قربا من المدينة بعد ستة أيام ، وكان أهلها ينتظرونه لعلمهم بقدومه فإذا يهودى ينادى بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا حظكم الذى تنتظرونه ، فتقلدوا بأسلحتهم وتلقوا الرسول مهللين مكبرين فعدل بهم ذات اليمين ونزل بقباء (موضع بجوار المدينة) على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . وأسس مسجد قباء الذى وصفه الله بقوله : ﴿ الْمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾

ثم تحول بعد ليال إلى المدينة والأنصار شاهرون السلاح محيطون به إحاطة الهالة بالقمر ، فما فرح أهل المدينة بشئ فرحهم برسول الله عليه الصلاة والسلام حتى أن البنات كن ينشدن أمام موكبه :

طلع البدر علينا من ثنيات^(١) الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان كل واحد منهم يود نزول الرسول بفنائه ويأخذ بزمام ناقته فقال لهم عليه الصلاة والسلام (خلوا عنها فإنها مأمورة) . فلما دخلت إلى فناء بنى

(١) طرقات الجبل التى يودع المسافر عندها

النجار أخوال أبيه بركت أمام دار أبي أيوب الأنصارى فأخذ أهل المدينة في الترحيب بالرسول والمبالغة في إكرامه وإكرام المهاجرين . ووازره ونصره فسموا بالأنصار ومن وفدوا عليه بالمهاجرين .

المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين

ولما استقر بالرسول المقام بالمدينة وبني مسجده وداره قريباً من دار أبي أيوب الأنصارى أخذ يؤاخى المهاجرين والأنصار حتى صار كل أحد يفضل أخاه على نفسه فقويت بذلك عصبيتهم وهاجهم القريب والبعيد . فعاش المهاجرون في هناء وصفاء وأحبوا المدينة أكثر من محبتهم لوطنهم ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام .

من هنا تعلم شدة تعلق أهل المدينة بالرسول ، وعظم محبتهم له ولأصحابه واعتنائه بالمهاجرين . وأن القوة والشوكة لا تكون إلا بالاتحاد والتآلف . وهذا هو السر في التآخي الذي عقده عليه السلام بين المهاجرين والأنصار .

مبدأ التاريخ الإسلامى

لما كان لهجرته عليه السلام وتركه بلده وعشيرته شأن عظيم وبهاء ظهر الإسلام ظهور الشمس في رابعة النهار بعد أن كان في خفاء واستتار اختار سيدنا عمر بن الخطاب في أيام خلافته أن يكون عام الهجرة مبدأً للتاريخ الإسلامى

الجهاد في سبيل الله

مكث الرسول ثلاث عشرة سنة من مبعثه إلى هجرته يدعو الناس إلى الإسلام باللين والعرف مبشراً ونذيراً وصابراً على الأذى كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تَطْعَمِ السَّكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ولما اشتد طغيان أهل مكة حتى تآسروا على قتله وأخرجوه من داره وبدأوا بالعداء والغدر وأصروا على العناد أمره الله بالقتال فقام يغزو ويجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الدين وهداية الناس إلى الطريق المستقيم القويم لا طمعاً في ملك ولا رئاسة ولا مال ولا عرض من أعراض الدنيا . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أسرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة لم يبدأ فيها أحداً بالعداء بل كان لا يقاتلهم إلا بعد الإنذار والتبشير فتبدوا منهم الغلظة والجفاء وحمية الجاهلية . ولذا أيده الله بالنصر ونال منهم ما لم ينله أحد مع قلة العدد والعدد وكثرة الأعداء وقوتهم .

في السنة العاشرة من الهجرة حيث انتشر الإسلام واتسعت دائرته وعلت
كلمته وأمنت الجهات خرج الرسول في جموع كثيرة لأداء فريضة الحج فدخل
في مكة وأدى نسكه ثم خطب يوم النحر بمعى خطبته التي بين بها الدين وأوضح
معامله وأكثر فيها من قوله :

(أأهل بلغت ليلبلغ الشاهد منكم الغائب . اللهم اشهد)
ثم ودّع الناس فسميت تلك الحجة بـحجة الوداع

وفي السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبيّ غزو بلاد الروم فجهز جيشاً
كبيراً وأمر عليه (أسامة بن زيد) وفي أثناء الاستعداد طرقة المرض الذي توفي
فيه الرسول فلم تتم تلك الغزوة في حياته وأتمها بعد وفاته أبو بكر خليفته فإنه
عليه الصلاة والسلام بقي مريضاً حتى فارق الدنيا .

وذلك في يوم الاثنين ثلثي عشر ربيع الأول من تلك السنة المتممة له ثلاثاً
وستين سنة فدفن حيث قضى في حجرة عائشة رضى الله عنها بالمدينة المنورة
ومدفنه هناك يعرف (بالحرم المدني)

فالسّلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً

شمائله وصفاته عليه الصلاة والسلام

كما وصفه المرحوم الشيخ (زكي الدين سند)

نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

لوسأل سائل عن (محمد) نبي الإسلام والمسلمين ؟ لأجيب : بأنه البحر

الزاهر ، والبدر المنير ، والسراج الوهاج . والروح الذي تجلى عليه الوحي ،

فجلى من أمرار الملك والملكوت شيئاً غريباً

والحق الذي سدده الحق ففتح في الفضل والفضيلة والدين والدنيا فتحاً

قريباً .

لازمته الرعاية قبل النبوة فكان أميناً في الأرض ، أميناً في السماء .

لاحظته العناية في البعثة فكان مؤيد الحجة في المحجة البيضاء .

سرى إليه المدد الأعلى ، فكان في جميع الأقوال والأفعال

نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

فظم عن ثدى السيدة حليلة ، لسنن الأخلاق الكريمة ، والأذواق

السليمة ، والأعراق القويمة لم ينزل منها يرضع ، وفيها يرتع ، وعليها يتعرع ،

حتى نشأ والعناية له خادمة ، حتى طلع والهداية له ملازمة ، حتى سما وأشخاص
الكمال فيه قائمة ، حتى نما وآيات الحق عليه حاكمة . حتى أشرفت
شمس النبوة الكاملة ، وتدفقت ينابيع الحكمة الفاضلة .

فكان قبل النبوة وافر الأدب ، زاهر الحسب ، باهر الجلال ، وكان
بعدها نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

إذا كانت مباني الأهرام دليلاً على قوة الأقدمين ، فباني الإسلام دليل
على حكمة رب العالمين . ومعالي نبي الإسلام آية القدر العالی والفضل المبين .
دعا محمد دعوة الدليل الصادق إلى خير السبل ، وصبر على الإيذاء صبر
أولى العزم من الرسل . برز وحيداً فريداً بين أجلاف جفاة . غلاظ
شداد عتاه .

لا ناصر له إلا أن يضع سيف الحق في رقاب الأباطيل ، لا مستمد له إلا أنه
يترجم عن لسان الوحي الجليل .

لحق أشد ما يلقاه حق عن باطل ، وعالم من جاهل ، تدفقت ينابيع حكمته
وبهرت الأبصار شمس رسالته ، وتغلغلت في القلوب آيات شريعته

فأصبح الأعرابي الجلف حكيماً ، والعربي المضروب حليماً . والقاسي الغليظ
رحيماً ، والبخيل الحرص كريماً ، والمفتون بالدنيا زاهداً . والمشرك بالله عابداً
والسكسلان نشيطاً قوياً . والخامل نبيهاً ذكياً . والجاهل عالماً .

والفرط حازماً ، والجبناء شجعاناً . والأعداء إخواناً .

جاء (محمد) وأوروبا لم تبصر نور المدنية إلا في سم الخياط . والشرق
مقلوب الكيان يمسى في افتتان ويصبح في اختباط . والعرب نار الحمية من
بين أيديهم تتوقد ، والعالم كله بصنوف الكوارث مهدد . والأخلاق على
أقصى أنواع الوحشية واردة الرعاة قد سلبت مختارات الرعية .

جاء (محمد) فلم يكن ملكاً حشد وحشر ، ونهى وأمر ، بل نبياً حشد
إلى الهدى عميد الأضاليل . وإلى التوحيد عباد التماثيل ، وإلى الحق أبناء
الباطيل

حشر في القلوب القاسية رأفةً ورحمةً . وفي الأخلاق الغليظة رقةً وحكمةً
وفي الأرواح الخبيثة طهارةً وذمةً ، وفي الأشباح الفاترة نشاطاً وهمة
نهى عن إفشاء الأسرار ، ومصاحبة الأشرار ، والنظر إلى بيت الجار .
نهى عن أكل الأمانات ، وسب الأموات ، وقذف المحصنات
نهى عن التنقيير والتعسير ، والتفجير والتحجير ، والتبذير والتقتير
نهى عن الفحش والفحشاء ، والكذب والافتراء . والجدال والمراء
والسمة والرياء

نهى عن التباغض والتنازع ، والتحاسد والتقاطع ، والتجالد والتصارع
نهى عن البذاءة والسب ، والمثلة والضرب ، والازدراء والعيب

نهى عن التشبه بالأعاجم ، والقسوة على البهائم ، والفرار من الملاحم
نهى عن الغيبة والاستماع ، والنميمة والنزاع ، والمكر والخداع ، وكل ردىء
من العادات والطباع

أمر ببرّ الوالدين ، والعمل للدارين ، وحفظ اللسان والعين
أمر بصلة الأرحام ، وإلانة الكلام ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام
والصلاة بالليل والناس نيام

أمر بحفظ المهود ، ومراقبة الرب المعبود ، وملاحظة الوجود
أمر بالمساواة والعدل والتآخي والبذل ، والرفق والمهل
أمر بالصبر عند الصدمة ، والشكر على النعمة ، والجد في الخدمة
أمر بما فيه سعادة العالمين ، وجور الرعايا والسلطين
أمر على الجملة بما فيه صلاح الدنيا والدين
فهل بعد هذا يقال : إنه رجل ساحر محتمل ؟ أو هو ملك عاقل كما قال
من قال ؟

هو ولا جدال نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال
أخلاقه : بشاشة في لين ، إخلاص في يقين ، عزيمة في دين ، ذكر
في استغفار . دعاء في إذكار ، سكينه في وقار ، تعليم في تهذيب ، تشريع في
تأديب

تدبير في ترتيب ، إحسان في معاملة ، لطف في مجاملة ، إبتسام في مقابلة
 سداد رأى في آراء ، صدق في وفاء ، عفاف في حياء .
 صبر في حلم ، حكمة في علم ، حزم في عزم ، فهم في حزم .
 عفوف في إحسان ، قوة في برهان ، زهد في تكلان
 خشوع في صلاة ، خنوع في مناجاة ، قنوع في حياة
 معروف في بر ، حفظ في سر ، تؤدة في كلام ، صيام في قيام ،
 عدل في أحكام ،

بذل في سماحة ، عقل في رجاحة ، قول في فصاحة ،
 خطارة في شان ، تواضع في سلطان ، توفيق في مداراه ، صحت
 في إناه

إيفاء بالعهد ، وفاء بالوعد ، حسن في القصد ، رأفة بالمؤمنين ،
 رحمة بالمساكين .

عزة لا أخذاً بالصلف ، علو لا فخراً بالشرف ، سيادة لا عن مال ،
 فوز لا باحتيال ، أبهة في جمال ، هيبة في جلال

هو بالإجمال كما شهد الحق ، ودل الصدق ونطق الحال
 نبي الرحمة ، وبجر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

حالته المعاشية

عاش محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يلبس حريراً ولا ذهباً ، ولم يأخذ
إلى الأبهة أهبةً ولا سبباً

لم يقل : أين سطوة الملوك وعترة السلاطين ؟ بل قال : اللهم أحيني مسكيناً
وأمتني مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

لم يوح إليه : أن أجمع المال وكن من التاجرين المثرين ؛ بل أوحى إليه :

« أَنْ سَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ

الْيَقِينُ »

ما جمع بين إدامين فى طعام . بل أثنى على الملح والزيت والخل ، وقال :

نعم الإدام .

لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط ، ترفعاً عن مواطن الريبة ونشريعاً لأمرته .

لم يغتسل عرياناً قط ، حياء من الله وملاحظة لعظمته

كان لا يحقر مسكيناً لحاجته وفقره . ولا يهاب ملكاً لرفعة فى قدره

كان يستحى من الله إذا أراد دخول بيت الخلاء ، حتى كان يتقنع بردائه

فى شدة الحياء

كان يلبس ما وجد ، فرة جبة صوف ، ومرة برد حبرة ، ومرة ثوب قطن ، ومرة شملة

كان يركب ما وجد ، فرة فرساً ، ومرة بعيراً ، ومرة حماراً ، ومرة بغلة
كان يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم ، ويبش في وجوههم ويفرح .
كان لا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح . ويقابل السيئة بالإحسان
كان يساعد أهل بيته في الخدمة ، كان يحتطب ثم يحمل الحطب وهو
سيد الأمة .

كان يجلس حيث انتهى به المجلس حتى إنه لم يكن يُعرف من بين
أصحابه

كان الأعرابي إذا جاء يسأل عن دينه لا يعرفه فيسأل عنه حتى يهتدى إلى جنبه
كان على رغم أنف كل معاند قوال :

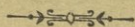
نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين السكال

شريعته

أما شريعته (عليه الصلاة والسلام) فحدث عنها ولا حرج . فانه لم يشن
مقام الإلهمية باتحاد أو حلول أو صلب ، ولا مقام الأنبياء بزنا أو سكر أو سب ، ولم
يضيق على النفوس بزوجة واحدة ، أو منع طلاق ، ولم يرض بفضيحة الاعتراف
بالذنوب على الإطلاق .

شريعته على عينك ياتاجر . والسعيد مؤمن والشقي كافر . نعم الحق ما عليه
من غبار ، والصبح لا يضره الإنكار ، والناس على هدى أو في ضلال مبين
﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾

هذا هو (محمد) صلى الله عليه وسلم وهذه سيرته ، وشريعته غر بلوها
وانخلوها لم تجدوا فيها غير الاعتدال والكمال ، وتعترفون بكل طاعة وإمتثال
إنه (محمد) نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإم الهدى ، وعين الكمال .



خطبه

كان عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على الأرض ، وعلى المنبر ، وعلى البعير والناقة

وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه .

وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله ، وكان يخطب قائماً ، وكان يبدأ الناس بالسلام ، ويختم خطبته بالاستغفار . وكثيراً ما يخطب بالقرآن .

وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه ، وذكر الجنة والنار وتعليم قواعد الإسلام والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه وكان منبره ثلاث درجات فإذا استوى عليه واستقبل الناس أخذ المؤذن في الأذان فقط

وإذا خطب أخذ عصاً فتوكأ عليها وهو على المنبر ، ويعتمد أحياناً على قوس ؛ ولم يؤخذ عنه التوكؤ على سيف . لأن الدين الإسلامي إنما قام بالوحي ومدينة النبي فتحت بالقرآن لا بالسيف

وكان إذا عرض له عارض اشتغل به ثم رجع لخطبته

وكان يقصر خطبته ويطيلها أحياناً حسب حاجته للناس

وكانت خطبته العارضة أطول من الرائبة .

وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد وبحرطن على الصدقة
وله خطب كثيرة نذكر منها الخطبة الآتية

خطبة له صلى الله عليه وسلم في الوعظ

أيها الناس إن لكم معالم فأنتموها إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فأنتموها
إلى نهايتكم

إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ،
وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ،
ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذي
نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو
النار .

موعظة نبوية من خطبه

اتقوا الله حق تقاته ، واسعوا في مرضاته ، وأيقنوا من الدنيا بالفناء ، ومن
الآخرة بالبقاء ، واعملوا لما بعد الموت فكم أنكم بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل
ألا وإن من في الدنيا ضيف وما في يده عارية ، وإن الضيف مرتحل ، والعارية
مردودة ، ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، والآخرة وعد
صدق يحكم فيها ملك قادر

فرحم الله امرأ نظر لنفسه ، ومهد لرمسه ، مادام رسنه مرخى ، وحبله على
غاربه ملقى قبل أن ينفذ أجله وينقطع عمله

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أدب به أمته :

أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ،
والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ،
وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي
ذكراً ، ونظري عبراً

وقال أيضاً : نهيتكم عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال
وقال : لا تغمدوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وأفشوا
السلام ، واهدوا الضلال ، وأعينوا الضعيف

وقال : ألا أنبئكم بشر الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله
قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده . ثم قال : ألا أنبئكم
بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من يبغيض الناس ويبغضونه
وقال : اليد العليا خير من اليد السفلى فابدأ بمن تعول

وقال صلى الله عليه وسلم في الحكم والآداب :

المؤمن للمؤمن كالنيمان يشد بعضه بعضاً . من لا يرحم لا يرحم
آية المنافق ثلاث . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا
أؤتمن خان

إذا لم تستح فاصنع ما شئت
لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين
من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

وقال أيضاً في الحكم والآداب :

اتق الحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ،
وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً .
اطلبوا العلم ولو بالصين ، دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك . من دل على خير فله
أجر فاعله . رضا الله في رضا الوالدين ، وسخطه في سخط الوالدين . طلب
العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

(حكم جرت مجرى الأمثال من كلامه صلى الله عليه وسلم)

الدال على الخير كفاعله . زرغباً تزدد حباً . يد الله مع الجماعة .

تهادوا تحابوا

ترك الشر صدقة . من غشنا فليس منا

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها

احذروا من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره

هذا وأحاديثه صلى الله عليه وسلم كثيرة ولها كتب خاصة في علم الحديث

الخاتمة

ونختم سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بشهادة أحد المسيحيين
بأنه أعظم رجل في العالم ، والفضل ماشهدت به الأعداء

اقترحت جريدة الوطن البيروتية ، وصاحبها مسيحي ، على قرائها بأن يكتبوا
إليها آراءهم في أعظم رجل ظهر في العالم ، ولماذا ؟
فأجابها كاتب من أحرار الطائفة المسيحية قائلاً :

أعظم رجال العالم على الإطلاق رجل وضع في عشر سنين ديناً وفلسفة ،
وشريعة اجتماعية ، وقوانين مدنية ، وغير شريعة الحرب ، وأنشأ أمة ودولة ،
طاولت الدهر ، وكان أمياً ذلك هو :

محمد

ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشي العربي نبي المسلمين

وقد تدارك النبي لمشروعه العظيم كل حاجاته ، فوفر لأمته ولتابعيه والمملك
الذي أنشأه أسباب الانتشار والخلود ، بحيث إذا انقطع المسلم إلى القرآن
والحديث وجد فيهما ما يهيمه من أمور دينه ودنياه

وجعل المسلمين مؤتمراً يعقد كل عام في مكة (وهو الحج)

ومن تنبه إلى فرض الحج على من يملك الراحلة والنفقة وإسقاطه عن
لا يملكها ، أدرك أن الغاية من الحج اجتماع الموسرين والوجود من الأمة
للبحث في شؤون جامعتهم وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها

وتدارك أمر الفقير بالزكاة المفروضة على كل مسلم ، بحيث إذا أداها
المسلمون على حقها لم يبق في الأمة فقير

وجعل نواة أبدية للإسلام بكون القرآن كتاباً عربياً يتحتم على كل
مسلم أن يتفهّمه بلغة العرب ، وإذا لم يكن في هذا غير أن فهم العربية حتم
على كل عالم وإمام لكفى به جامعة لسان للمسلمين

ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة بكون المسلم لا يفضل المسلم إلا بالتقوى ،
فكان الإسلام جمهورية حقيقية (وكان الإسلام دين الديموقراطية)

وسهل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله : لا فضل لعربي على عجمي ،
ولا لعجمي على عربي

ويسر لغير المسلمين العيش برخاء في بلاد الإسلام بقوله : اخلق كلهم
عيال الله فأحبهم إليه أنفهم لعياله

ونظر في أمر العائلة فرتب أمور الزواج ، والتناسل والتوارث ، من
شأن المرأة

وعاد إلى الأمور المدنية فوضع قوانين وقضاة للنظر في شئون الأفراد
ولم يهمل مالية الدولة ؛ بل وضع لها سنناً لمبيت المال

وكان للعالم من همه نصيب وافر ، فجعل الحكمة ضالة المؤمنين

وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو في الصين ، فكان لهذه الترجمة شيء

عظيم في اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره في أيامهم
أفلا يكون الذي فعل كل هذا أعظم رجل ظهر في العالم ؟
« نقلاً عن مجلة المنار »

وختاماً أقول : اللهم إنا نسألك أن توفق جميع المسلمين إلى الاعتصام
بهدى هذا النبي الأمين ، وأن تصلح لهم أمور الدنيا والدين ، إنك على
ما نشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؟

السيد علي فكري

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله

الحكيم

منظومة

في ذكر الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام

للشيخ محمد الدمنهوري من علماء القرن الثالث عشر طبع مصر سنة ١٣٠٦
« ألا إن إيماناً برسل تحتما وهم آدم إدريس نوح على الولا »
« وهو دوصالح لوط مع إبراهيم أنى كذا نجله إسماعيل إسحاق فضلا »
« ويعقوب يوسف ثم يتلو شعبيهم وهارون مع موسى ودود ذو العلا »
« سليمان أيوب وذو الكفل يونس والياس أيضا واليسع ذاك فاعقلا »
« كذا زكريا ثم يحيى غلامه وعيسى وطه خاتماً قد تكملا »
« وقد تم نظمي جمع رسل مرتباً لهم حسب إرسال كما قاله الملا »
« عليهم صلاة الله ثم سلامه يدومان مادام الأراضى وما علا »

انتهى بحمد الله ومعاونته طبع الجزء الثاني من قصص الأنبياء في يوم

الخميس ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ١ مارس سنة ١٩٤٥

التقاريط

١ - كلمة فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان

عميد كلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد المجيد اللبان إلى حضرة الأستاذ المحترم على أفندي فكري
الأمين الأول بدار الكتب الملكية المصرية

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأقدم لك خالص التiche والشكر
قد وصلقتي هديتكم وإنها لمن خير ما يهدي . كتاب كريم . هو أحسن
التمصص ، جادت به قريحتك الصائبة ودبجه يراعك ، في بلاغة ولباقة ، يخاطب
الأرواح بسير الصالحين فيضيء أمامها سبيل الرشاد ، ويصور لها القدوة الحسنة
بتاريخ الأنبياء والمرسلين ، وأئمة المسلمين ، وفضليات المؤمنات ، فيهدي النفوس
ويثبت الأفئدة على خلق المؤمن الكامل

فأهنئك بملك الصالح . وأسأل الله لك دوام التوفيق في كل الشؤون

١٩٣٤ / ١٢ / ٣ وتقبل احترامي ؟ عبد المجيد

٢ - أحسن القصص - قصص الأنبياء

لمؤلفه الأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب المصرية وأظن القارئ ليس فى حاجة لأن نبيّن له حقيقة هذه الشخصية البارزة التى تنادى عنها آثارها : وحسب المرء أن تدل عليه صفاته : وقيمة كل الناس ما يحسنونه

ولا أدلّ على الأستاذ على فكرى من نبرات قلمه ، ونتيجة بحثه ، التى يرسلها للناس محاضرات ، ومقالات ضافية أبحاثاً اجتماعية ، وشؤوناً واقعية ، يبين فيها مِمَّ نجمت علل المجتمع وأمراضه ، وكيف تستأصل شأفتها ؟ وإليك ما يغدقه على (الإسلام) تبعاً من أفكاره الناضجة التى يبعثها شعاعاً يستبين به القارئ كيف يأتى البيوت من أبوابها ؟ ولا أدلّ عليه كذلك من مؤلفاته التى هى رسول عقله ، ووافد لبه ، وخلاصة اختياره

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره ولا أبدع فى مؤلفاته من كتابه (أحسن القصص) فإنه قد شاده من أصفى الموارد ، وأوثق المصادر وذكر أخبار كل نبى وحواره مع قومه ، مع تفسير آى التنزيل الحكيم التى وردت فى شأن كل نبى ولما كان مقصده الخير والنفع العام لم يغفل من ثمنه ، وننصح لكل شغوف بحب الاستطلاع أن يفتنم اقتناء هذا الكتاب
مجلة الإسلام

٣- أحسن القصص - قصص الأنبياء

من يعلم ما فطر عليه أخى وزميلى وصديقى العزيز الأستاذ على فسكى الأمين الأول لدار الكتب المصرية ورئيس الغيرين بها من أخلق الكريم ، والأدب السليم لا يعجب أن يتجلى آثار خلقه وأدبه بقلمه على صفحات كتبه ، التى يخرجها من آن لأن .

وقد شب منذ صباه ميالاً إلى إخراج المؤلفات العلمية والأدبية وخصوصاً ما يتعلق بتربية الناشئة ، تربية خلقية ، دينية اجتماعية ، مما كان له عظيم الأثر فى نفوس الآباء ورجال التعليم فى كل قطر ومصر

وبين يدي الآن ، وأنا أكتب هذه السطور كتابه الأخير أحسن القصص

الذى تفضل فأهدى إلى الجزء الأول منه ، ويشمل قصص الأنبياء مقتبساً من القرآن الكريم بطريق مختصرة جامعة ، وبأسلوب طلى رائع جذاب ، وهذه القصص هى قصص أنباء محبوكة الحوادث ، ذات مفاجآت رائعة ، شاملة لجميع عناصر القصة التى أصبحت اليوم فناً يتباهى به كتاب الغرب ، ويقلدهم فيه أدباء الشرق ، وهو من مجد أدبهم الموروث

وهى سير ذات مواظ وعبر ، ثم هى المثل العليا لمن شاء نباهة الذكر وخلود الأثر ، ثم هى مفتاح حفظ القرآن ، المذهب بطبيعة لأساليب البيان ، وتقويم النطق باللسان ، ومن هذا يتبين مقدار فائدة هذا العمل الجليل الذى قام به الاستاذ على فسكى لدينه ووطنه وأمتة ، أحسن الله جزاءه بما فعل ، وأثاب الله أبناء السيد عيسى البابى بما يقومون به من نشر أمهات الكتب فى الدين والعلم والأدب ؟

محمد الهراوى (رحمه الله)

٤ - قصص الأنبياء

للأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب ورئيس المغيرين فيها
عناية خاصة بتدوين الكتب النافعة للأحداث والناشئين
وقد سبق غيره من الكتّاب في وضع هذه الكتب ، ومنها كتاباه :
تربية البنين ، وتربية البنات

نشر منذ أشهر الجزء الأول من كتابه (قصص الأنبياء) وأهدى إلينا
اليوم الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وفيه سير أولى العزم من الرسل وهم :
نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد « عليهم الصلاة والسلام »
وقد خصص نصف الكتاب للأنبياء الأربعة الأولين والنصف الآخر
للسيرة النبوة المحمدية

فأنت تجد في هذا الجزء وعدد صفحاته ٣١٢ صفحة متوسطة ما يغنيك
عن الكتب ، ويسهل لأبنائك تعرف تاريخ الأنبياء . فإن لم يكتف بهذه
السير الموجزة فإن قصصها يدفعه إلى طلب المطولات في كتبها
والكتاب مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل ويطلب من ناشره عيسى
البابى الحلبي وشركاه بمصر

الأهرام فى ١٨ / ٥ / ١٩٣٤

٥ — تخليداً لذكرى صديقي المرحوم محمود بك صدق رئيس قلم النفض والإبرام سابقاً ، والمراب العام لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، أردت أن أنشر هنا نص الخطابين الآتين المرسلين إلى بشأن كتاب (أحسن القصص)

١ — بسم الله الرحمن الرحيم

من محمود صدق . إلى الحسيب النسيب . الأستاذ السيد على فكرى بك الأمين الأول لدار الكتب المصرية الملكية ورئيس المغيرين . حفظه الله . آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، فإنى تشرفت بهديتكم الثمينة الجزء الأول . الذى يشمل قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمطبوع تحت عنوان « أحسن القصص » وقد قبلته ووضعت فوق رأسى إجلالاً وتعظيماً لما حواه من الآيات البينات . والحكم الغالية . والدرر الثمينة والمعاني الجزلة . والألفاظ الرائقة . ولقد أجدت . وأبدعت . مع سهولة فى اللفظ . ومتانة فى التركيب . وتوخى للحقيقة . وبعُد عن الغلو . وقد أتيت بكتابتك العُجب العجاب . من السهولة والانسجام . ورائع الحكم . ودقيق الشعور والوجدان . فجزاك الله عن الإنسانية . وعن الدين . خيراً

وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى . أن يُثيبك على هذا المجهود العلمى النافع العظيم . وأن يمدّ فى أجلك . ويبارك فى حياتك . ويوفقك لما يرضاه وترضاه . حتى تخدم العلم . بإظهار نفائسه الكريمة . ودرره الثمينة . إن الله

على كل شيء قدير . ونحن في انتظار (الجزء الثاني) من هذه القصص
الحسنة . للرجوع إليها في وقت الحاجة . وما أخرجنا إليها في الوعظ والإرشاد
الأحد ٢٦ ذى القعدة ١٣٥٢

محمود صدقي

١٢ مارس سنة ١٩٣٢

رئيس قلم النقض والإبرام سابقاً والمراقب
العام لمجموعة مكارم الأخلاق الإسلامية

٢

سيدي الأستاذ على فكري أمين أول دار الكتب الملكية
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد . فكنت مسافراً وحضرت
منذ يومين واستلمت كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (الجزء
الثاني الخاص بأولى العزم من الرسل عليهم السلام) . وقرأته . وجل بخاطري
بعد الفراغ من قراءته أن أكتب إليكم ما يأتي :

إن القلوب الطيبة تلقى فيها علوم ربانية . فلا يدري العبد كيف
جاءت ولا من أين وصلت إليه ؟ لأن تربتها خلقت مستعدة لقبول حقائق
المعلومات . وهي درجة المخلصين في أعمالهم . الصادقين في أقوالهم . المجاهدين
بأموالهم وأنفسهم في نشر الفضيلة ومكارم الأخلاق (كصديقنا الحميم الأستاذ
على بك فكري) فقلبه الطاهر وصل إلى حقائق هذه الكليات . فينظر
بنور الإيمان . ماتحتاج إليه الأمة ؛ بل العالم الإسلامي ، من نشر العلم . وبث

الفضيلة ، حتى وصلت ياسيدى الأستاذ . بكتبك النفيسة . إلى الإجلال
والتعظيم من أعماق القلوب . وخصوصاً هذين الكتابين العظيمين (قصص
الأنبياء)

فإلى الله نترك مشوبتك . وإلى الله نرجو أن يزيد فى توفيقك لنشر
العلم الصحيح ، كما ترغب ، وأن يُمْنَّ عليك بالصحة والعافية والغناء
دنيا وأخرى .

ومن القلب من يصل (أغنى الإنسان) إلى درجة العلم والكماليات
بالتعلم والجد والاجتهاد . فما بالك يا صديقى العزيز . وأنت قد جمعت بين
الدرجتين علماً وإخلاصاً . إلهاماً وتوفيقاً . ولقد قال الله تعالى (الذى عَلَّمَ
بِالقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فالقلم ليس كقلمنا الذى به نكتب ؛ لكن
هو قلم القدرة . ينقش على قلوب المخلصين الإلهامات الطيبة فتقول قولاً يوافق
الحقيقة . فهنيئاً لك بنفسك ، وهنيئاً للأمة بك ، وهنيئاً للعلم الذى تنشره
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

القاهرة فى ١٧ صفر سنة ١٣٥٣

محمود صديق

٣٠ مايو سنة ١٩٣٢

مراقب عام جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية	٤٢	إبراهيم والملائكة وتبشيره
٥	مقدمة الطبعة الثالثة	باسحق	
٧	قصة سيدنا نوح عليه السلام	٤٤	سؤال إبراهيم لربه رؤية إحياء
١٨	صفات سيدنا نوح عليه السلام	الموقى	
٢١	قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام	٤٥	إبراهيم أسوة حسنة للمؤمنين
٢٥	مجادلة إبراهيم لأبيه وقومه	٤٧	العبرة في قصة إبراهيم
٣٠	محاورة إبراهيم لأبيه ونصحه	٥٠	قصة موسى وهارون عليهما السلام
٣٣	تبرؤ إبراهيم من أبيه لكفره	٥١	ولادة موسى وإرضاءه
٣٤	مجادلة إبراهيم لقومه	٥٥	تربية موسى في بيت فرعون
٣٦	مجادلة أخرى لإبراهيم مع أبيه وقومه	»	خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسببه
٣٨	رحلة إبراهيم إلى فلسطين ثم إلى مصر	٥٩	دخول موسى أرض مدين ونزوله بها
٤٠	بيان الثلاث كذبات التي نسبت لإبراهيم	٦٢	زواج موسى بإحدى ابنتي
٤١	محااجة إبراهيم للنمرود		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٤	خروج موسى من مدين إلى مصر بأهله وما لاقاه من الشدة	٨٦	الدليل على نبوة موسى
٦٧	معجزتا العصا واليد	٨٨	فرعون يدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح ليصعد به السماء
٦٨	عودة موسى إلى مصر ودعوته لفرعون إلى توحيد الله	٨٩	اللائمار بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه
٧٢	تذكير فرعون لموسى بتريدته وفضله عليه	٩٢	تمادى قوم فرعون في غيهم
٧٣	محااجة موسى لفرعون	٩٣	فرعون يستخف بموسى ويباهى بملكه وثروته
٧٧	طلب فرعون المبارزة من موسى مع السحرة	٩٥	الآيات التي أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه لما كذبوا موسى
٨٠	انتصار موسى واعتراف السحرة بنبوته ونبوة أخيه هارون	٩٩	خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر
٨٢	تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر	١٠١	حال بنى إسرائيل مع موسى
٨٤	إيمان طائفة من بنى إسرائيل بموسى ونصحه لهم	١٠٥	ذهاب موسى لميقات ربه
٨٥	وحى الله إلى موسى وأخيه	١٠٦	مناجاة موسى لربه

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٧	نزل التوراة على موسى	١٣٢	موت موسى وهارون وثناء الله عليهما
١٠٩	اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلهًا يعبدونه	١٣٣	العبرة من قصة موسى وهارون
١١٢	توبيخ الله لهم على عبادة العجل	١٣٤	قصة سيدنا عيسى بن مريم
١١٩	توبة بنى إسرائيل عن عبادة العجل	»	تبشير مريم بعيسى عليه السلام
١٢٠	أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وعصيانهم موسى	١٣٦	ولادة عيسى عليه السلام
١٢٣	التيه الذى كتبته الله على بنى إسرائيل أربعين سنة	١٣٩	مثل عيسى كمثل آدم
»	ذكر القرية التى مسح الله أهلها بعدوانهم فى السبت وجعلهم قردة	١٤٠	ذهاب مريم والمسيح عيسى إلى مصر مع ابن عمها يوسف النجار
١٢٦	معجزة موسى فى مسألة البقرة	١٤١	نبوة المسيح عيسى ورسالته
١٢٨	إيذاء بنى إسرائيل لموسى	١٤٣	معجزات عيسى عليه السلام
١٢٩	قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر)	١٤٥	إقامة الحجّة على مَنْ كفر وادعى أن المسيح هو الله وابن الله وثالث ثلاثة
		١٥٤	الحواريون أعوان وأنصار عيسى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٦	آراء بعض المفسرين في رفع عيسى إلى السماء والحكم بين المختلفين في ذلك	١٧٢	الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام
١٥٧	معجزة نزول المائدة	١٧٣	تسميته صلى الله عليه وسلم محمداً
١٥٩	اعتراف عيسى بعدم اتخاذه وأمه إلهين	١٧٤	رضاعه وفطامه وما حصل فيهما من المعجزات
١٦٢	خاتمة المسيح عليه السلام وما قيل بشأن قتله وصلبه	١٧٦	حادثة شق الصدر
١٦٦	محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وخاتم النبيين	١٧٧	وفاة والدته وكفالة جده وعمه له
»	نسبه الشريف من جهة أبيه	١٧٨	نشأته وكسبه من يده وثمرة عمله
١٦٧	نسبه الشريف من جهة أمه	١٧٩	تأديب الله له وحسن خلقه
١٦٨	أدوار حياته صلى الله عليه وسلم	»	رحلته الأولى إلى الشام
»	١ - الدور الأول من ولادته إلى النبوة	١٨١	حرب الفجار
»	ميلاده	»	رحلته الثانية إلى الشام
١٧٠	العجائب التي ظهرت يوم ولادته	١٨٢	زواجه من السيدة خديجة
		١٨٤	بناء البيت الحرام
		١٨٦	سيرته في قومه قبل البعثة
		»	بفضه للوثنية من أول حياته
		١٨٧	تعبده بغار حراء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٨	تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم	٢٠٤	الدعوة سرّاً وأول من أسلم
»	تبشير الإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم	٢٠٦	الدعوة جهراً
١٨٩	٢ الدور الثاني من النبوة إلى الهجرة	٢١٠	دعوته سلمية أساسها الدليل والبرهان
١٨٩	نزول الوحي و بدء النبوة	٢١٣	معارضة العرب لقبول دعوته ومعاداتهم له وحقدهم عليه
١٩٠	كيف كان بدء الوحي ؟	٢١٨	مجادلة العرب ومحاجتهم للرسول عليه السلام
١٩٢	فترة الوحي - عود الوحي	٢٢٣	الاحتجاج على المشركين وتحدى الرسل للعرب بالقرآن
١٩٣	الرد على منكري الوحي منافماً	٢٢٦	عجز العرب عن معارضة القرآن
١٩٤	إثبات الوحي الحمدي	٢٢٨	الأذى وما لقيه النبي في سبيل الدعوة
١٩٦	بيان أن الوحي كان للأُنبيا عامة	٢٣١	حماية عمه أبي طالب له والسيدة خديجة وزوجه
١٩٧	الآيات الدالة على صدق نبوته وإثبات رسالته ودعوته للناس عامة	٢٣٢	مكثه بمكة عشر سنوات على هذه الحال
٢٠٢	الأمر بتبليغ الرسالة		
٢٠٤	قيامه بتبليغ الرسالة والدعوة		

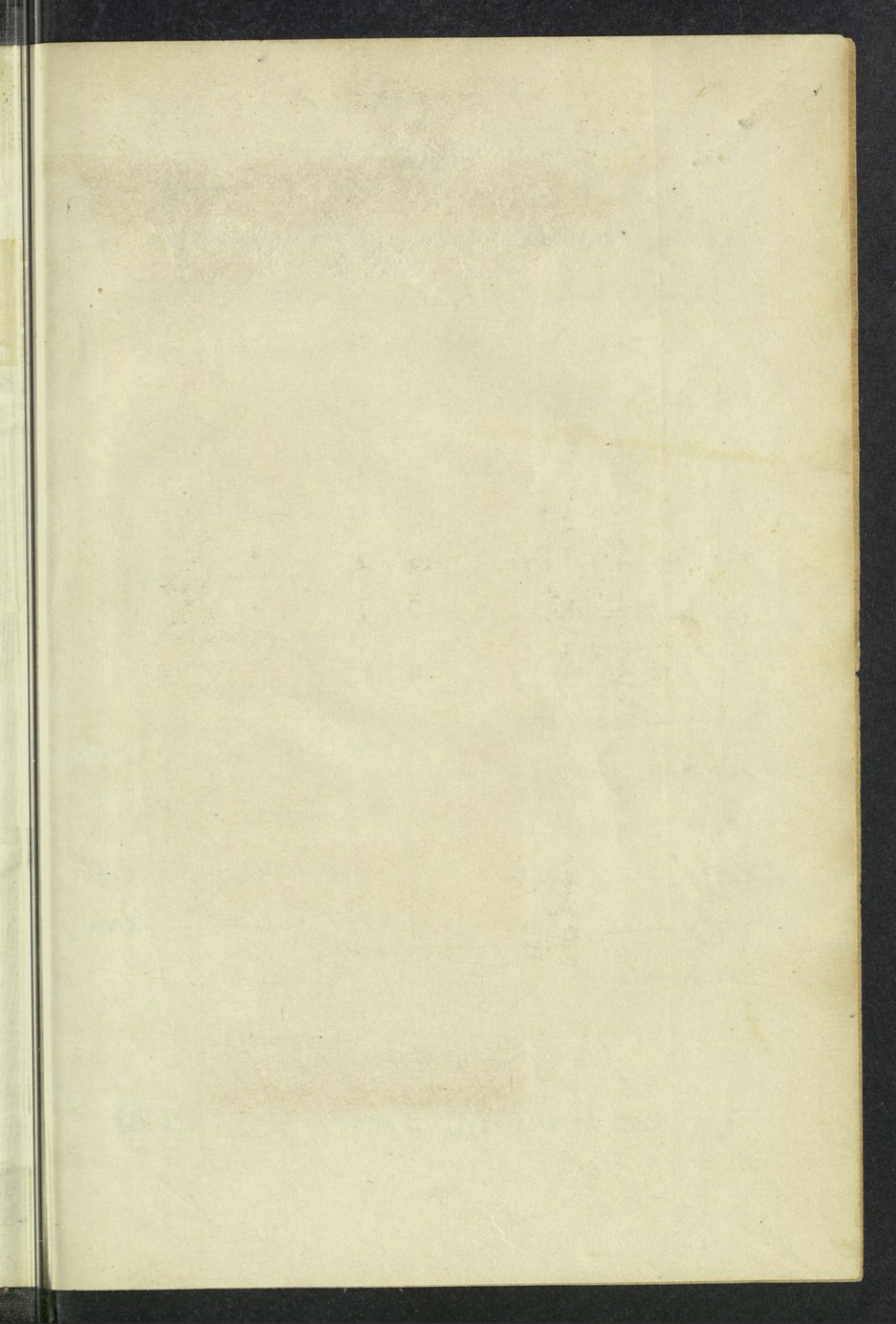
الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٣٢	مطالب كفار قریش	٢٥٦	المؤاخاة بين الأنصار
٢٣٨	استهزاء المشركين به		والمهاجرين
٢٣٩	الهجرة الأولى إلى الحبشة	»	مبدأ التاريخ الإسلامى
٢٤٠	الهجرة الثانية إلى الحبشة		وشرع الأذان للصلاة
٢٤١	وفد نجران	٢٥٧	يهود المدينة
٢٤٣	وفاة زوجه السيدة خديجة	٢٦١	النافقون المستهزئون
	وعمه	٢٦٣	معاهدة اليهود لرسول الله
٢٤٣	هجرة الطائف	٢٦٤	الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة
٢٤٦	الإسراء والمعراج وفرض الصلوات		الحق ومشروعية القتال
٢٤٧	عرض نفسه على القبائل فى	٢٦٥	غزواته صلى الله عليه وسلم
	موسم الحج	٢٦٦	دعوته الملوك إلى الإسلام
٢٤٨	قدوم كثير من أهل المدينة	٢٦٨	حجة الوداع
	إلى مكة ومعاهدتهم للرسول	٢٦٩	نزول ختام القرآن
٢٥٠	٣ -- الدور الثالث من	»	مرض الرسول عليه السلام
	الهجرة إلى الوفاة	٢٧٠	وفاته صلى الله عليه وسلم
»	تأمر المشركين على قتله	٢٨٢	زوجاته
٢٥١	هجرتة مع أبى بكر الصديق	»	»
٢٥٤	وصوله إلى المدينة المنورة	٢٧٣	سرارية
		»	»
		»	أولاده

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٧٤	معجزاته عليه الصلاة والسلام	٩	صبره وثباته وصدق
	المعجزة العلمية الكبرى		عزيمته
	الخالدة (القرآن)	٢٩٧	١٠ - شفقتة ورأفته
٢٧٦	بعض الآيات التي وردت	٢٩٧	١١ - حلمه وعفوه
	في نزول القرآن على محمد	٢٩٨	١٢ - حسن معاملته
	صلى الله عليه وسلم	٢٩٩	صفاته الخلقية
٢٨٢	المعجزات الكونية	٣٠٠	كلام أم معبد تصف النبي
٢٨٧	شمائله عليه الصلاة والسلام	٣٠٤	محاضرة دينية في خلاصة السيرة
	١ - كرم خلقه		الحمدية للمؤلف
٢٨٨	٢ - أمانته وصدقه	٣٣٩	الخاتمة (أعظم رجل في العالم)
٢٨٩	٣ - تواضعه	٣٤٢	منظومة في ذكر الأنبياء
٢٩٠	٥ - جوده وسخاؤه		جميعاً عليهم الصلاة والسلام
٢٩١	٦ - حسن معاشرته	٣٤٣	تقاريف العلماء والكتّاب الأفاضل
٢٩٣	٧ - حسن سياسته		للكتّاب
٢٩٦	٨ - شجاعته		

(تم طبع الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً)

في يوم السبت ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ - ١٨ مارس سنة ١٩٥٠

س
رة
(
م
ل



فكرى، على
احسن القصص

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010595

DATE DUE



